

الثقافة العالمية

■ **مسابقاتهم بمديسة لسانبوتة والطفولة والرافقة**

■ **أدب الأطفال بين اختيار الطفل وتقييم النقاد**

■ **الثقافة الأمريكية ومصالح التجارة**

أضواء على مستقبل الطفولة — ملف خاص



■ **التنويم وماضي الصدمة**

■ **ماذا تصنع بترسانة نسوية؟**



«امرأة في رداء بنفسيجي — ١٩١٧» الفنان العالمي هنري ماتيس

الثقافة العالمية

أسسها
أحمد مشاري العدواني
١٩٩٠ - ١٩٢٣

رئيس التحرير :

د. فاروق العمر

نائب رئيس التحرير :

د. سليمان العسكري

سكرتير التحرير :

سليمان الخلفي

عبد السلام رضوان

الإخراج الفني :

رفعت بدران

تصدر عن
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب - الكويت

سعر النسخة :

الكويت : ٥٠٠ فلس	ليبيا : دينار ونصف	اليمن : ٤٠٠ فلس
السعودية : ٧ ريالات	المغرب : ١٥ درهم	السودان : ٢٠ جنيها
الأردن : دينار ونصف	تونس : دينار ونصف	البحرين : نصف دينار
سوريا : ٥٠ ليرة	الجزائر : ١٥ دينارا	قطر : ٥ ريالات
لبنان : ٨٠٠ ليرة	مصر : جنيها	عمان : نصف ريال

الإمارات العربية المتحدة : ٥ ريالات

المراسلات

الاشتراكات (للمؤسسات - فقط)

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس
الوطني للثقافة
فاكس : ٤٨٧٣٦٩٤ - ص.ب ٣٣٩٩٦
الصفاء 13000 - الكويت

٦ دنانير كويتية

٨ دنانير كويتية

٤٠ دولاراً أميركياً

في الكويت

في الوطن العربي

خارج الوطن
العربي

الآراء المعروضة في الأبحاث تعبر عن وجهة نظر كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس..

الثقافة العالمية

ترجم الجديد في الثقافة المعاصرة

محتويات العدد

- محو الأمية الإعلامية:
نحو ركيزة تربوية
لعصر المعلومات
— قمة فورشيون
التربوية:
كيف ننهض بأداء
المدارس؟

- الطفل الصغير
والتحليل النفسي

- فصل من كتاب
تطوير برامج تنمية
الطفولة

١٧٧

ثقافة روسيا الجديدة:
خصوصية العقلية
الروسية

جون كوهان

د. سعد بن طفلة العجمي

١٨٧

التنويم وماضي الصدمة
سارة سولوفيتش
فاطمة عشري

١٩٤

باتريوت والكومبيوتر
ستيف هومر

د. يوسف يعقوب سلطان

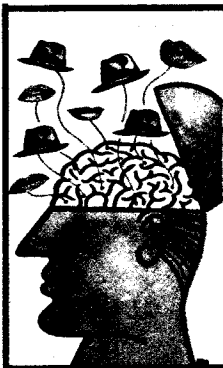
٢٠٦

الثقافة الأمريكية
ومصالح التجارة
هربرت شيلر

فاتن عبدالرحمن

٢١٣

كتب جديدة
ترجمة: أحمد فقيه



- فيلم ديزني الجديد
«علاء الدين»:
أساليب جديدة في
سينما الأطفال



- أدب الأطفال بين
اختيار الطفل وتقييم
النقاد:
- لاي نمط من الأمهات
تنتمين

سهم المرض
كولومبس والغزو
الجرثومي للعالم الجديد
جار دياموند
د. قاسم عبده قاسم

٢٩

لماذا الاختلاف بين
الجنسين؟

كريستين جورمان
شوقي جلال

٤٢

ماذا تصنع بترسانة
نووية؟

كريستوف بلوث
خالد الجبيلي

٥٣

حوار مع الكاتب الأمريكي
فيليب روث

جوسيان سافينيو
د. فوزي أيوب

٥٩

جون هنري تواكتمان:
ذلك الهدير الناعم

الفريد كورن
شاهر حسن عبيد

٦٤

الديانة الفينيقية
ريتشارد كليفور

د. جاب الله علي جاب الله

٨١

ملف خاص: (أضواء
على مستقبل الطفولة)

- مفاهيم جديدة للأبوة
والطفولة والمراقبة

عزيزي القاريء

يأتى هذا العدد مع هذا الشتاء الجميل،
مذكرا ايانا بشتاء الحرب والتحرير، الرائع
كروعة الحياة والقاسي كقسوة المخاض! ذلك
الشتاء قد مر علينا - صامدين وفي الشتات -
مرور الجبال، بيد أنه نفذ الى جوارح الأطفال،
فاستهال في جنانهم خيالات وشكولا سرطانية
متفاقمة. وان ذكراه لتضرب أطنابها في حمى
آب، حتى إذا ما تعقد الزمن وتكورت المسافة،
غسلت خيامها سيول يناير وفبراير، ليصبح
الرجاء في اللحظة الخائقة فرحا من كل عام،
فكل عام وانتم بخير.

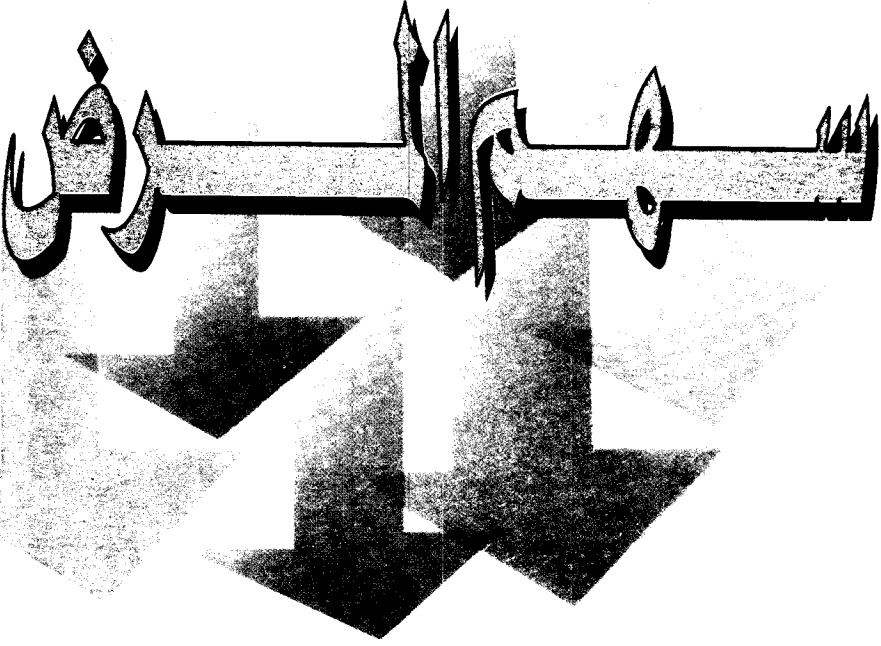
ويأتي هذا العدد وقد القى بطرفه نحو
الطفولة يستذكر في مدارها هموما ومشاكل
كبرى: كيف نربي الأطفال، هل نتساهل معهم؟
هل نشملهم بالحرص والعناية؟ أم نحن
حازمون ومنصفون في نفس الوقت؟ هذه هي
الأسئلة. فكيف نختبر قدراتنا التربوية؟ ذلك أن
الأبوة والطفولة والمراهقة ذات مفاهيم، فما هو
أثر عصر المعلومات، في تكوين كل ذلك؟

وفي أدب الأطفال، كيف نقدم شيئاً يتصل
بحياتهم الخاصة أو انشغالاتهم وخبرتهم
اللغوية وذلك من أجل الوصول اليهم وجذبهم
 للقراءة؟

ان التطلع الذي نحاول ان نحقق بعدا من
أبعاده، التطلع الى رصد تيارات الفكر
والسياسة والفنون في العالم، كيما نستشرف
ما تقدمه عقول الانسانية من خلالها، ولكي
نكون على صلة بمعطيات الابتكارات الحديثة
والاكتشافات المماثلة، لا يتحقق كليا لأنه أوسع
من أداتنا، لكنه في الوقت نفسه يوفر المتعة
الخالصة كما يجدد الدوافع إلى مزيد من
التطلع.

فإن كان ما تقدمه «الثقافة العالمية» شيئاً
مطلوباً لديكم، فإن اسهامكم فيها أمر نسعى
إليه.

رئيس التحرير



جار دياموند

د. قاسم عبده قاسم

عندما غزا كولومبوس وخلفاؤه الأميركتين كانت جراثيمهم هي أشد أسلحتهم فتكاً. ولكن، لماذا لم يتدفق المرض القاتل في الاتجاه الآخر؛ أي من العالم الجديد صوب العالم القديم؟

متواضعة للغاية. وثانيهم زوجته التي كانت تقوم بدور الوسيط في التفاهم، وكانت قلقة على زوجها، خائفة من جو المستشفى. أما الشخص الثالث في هذا الثلاثي، فكان طبيباً شاباً تعوزه الخبرة، يحاول أن يحدد سبب المرض الغريب. وتحت وطأة الإجهاد نسي الطبيب كل ماتعلمه عن كسب ثقة المريض. وارتكب

كان الثلاثة الذين يتحدثون بغرفة المستشفى منهكين بالفعل من جراء محاولتهم كشف مرض غامض، ولأنهم كانوا يتفاهمون بصعوبة كانت جهودهم غير مثمرة إطلاقاً. كان أولهم المريض، وهو رجل ضئيل البنية، يرتعد خوفاً، أصابه التهاب رئوي بسبب ميكروب غير معروف، وكانت معرفته بالإنجليزية



يُسمع. وفجأة، صرخت زوجته في غضب
وهجمت عليه. وقبل أن يتمكن الطبيب
من وقفها أمسكت قنينة معدنية ثقيلة
وهوت بها على رأس زوجها. مرت برهة
قبل أن يستنبط الطبيب، من خلال
إنجليزية الرجل الركيكة، مذكره وسبب
هياج زوجته. فقد خرجت الإجابة على

خطأ فاحشاً، إذ سأل الزوجة أن تستفسر
من زوجها عما إذا كان قد مرّ بتجارب
جنسية ربما جلبت له المرض. وإذا كان
الطبيب الشاب يراقبهما، احمرَّ وجه
الزوج وانكمش حتى بدا وكأنه أصغر
حجماً، وحاول أن يخفي تحت ملاءة
السريّر، ودمدم بكلمات في صوت لا يكاد

يلتقطون الأمراض المعدية من حيواناتنا الأليفة. وعادة ماتبقى هذه الأمراض في شكل مضايقات مزعجة لا أكثر، ولكن بعضها يتطور إلى ماهو أبعد من ذلك. و كل الأمراض الأشد فتكاً بالإنسان في تاريخنا الحالي - الجدري، الأنفلونزا، السل، الملاريا، الطاعون، الحصبة والكوليرا - أمراض معدية انتقلت أصلاً من الحيوانات. وحتى الحرب العالمية الثانية كان معظم ضحايا الحروب يموتون بفعل الميكروبات لا برصاص البنادق، أو طعنات السيوف. وكافة التواريخ العسكرية التي تمجد الإسكندر الأكبر ونابليون بونابرت تغض النظر عن هذه الحقيقة التي تكبح غرور النفس وهي حقيقة مؤداها: أن الذين كسبوا حروب الماضي لم يكونوا بالضرورة أفراد تلك الجيوش التي يقودها أفضل القادة، وتتسلح بأحسن السلاح، وإنما أولئك

استحياء : إذ اعترف الرجل بمجامعة النعاج عدة مرات في أثناء زيارة قام بها أخيراً إلى مزرعة العائلة؛ ومن المحتمل أن يكون الميكروب الغامض قد أصابه عن هذا الطريق.

هذه الحادثة، التي رواها لي طبيب صديق كان على صلة بالحالة، تبدو غاية في الشذوذ، بحيث لايمكن أن يكون مغزاها أبعد من مضمونها. بيد أنها في الحقيقة تكشف عن موضوع غاية في الأهمية: وهو موضوع الأمراض البشرية ذات الأصل الحيواني. إلا أن معظمنا نحب حيواناتنا الأليفة بشكل أفلاطوني، ومنها كلابنا وقططنا، ولاشك في أننا كمجتمع، نبدي ولعاً جامحاً بالأغنام وغيرها من المواشي، بدليل تلك الأعداد الهائلة التي نحفظ بها.

وبعضنا - أطفالنا في أغلب الأحوال -



نتأمل المرض من وجهة نظر الجراثيم والميكروبات. ولنتجاوز عن غضبنا ونحن نراها تسبب لنا المرض بطرق عجيبة مثل الأوجاع في الأعضاء التناسلية أو الإسهال، لنبحث عن السبب في أن الميكروبات تفعل هذا. في التحليل الأخير، الميكروبات ليست سوى نتاج الانتخاب الطبيعي مثلنا تماماً، ومن ثم فإن تصرفاتها جاءت على هذا النحو لأنها تنطوي على فائدة تطويرية ما.

وبطبيعة الحال، يختار التطور أساساً الأفراد الأكثر فعالية في توليد الذرية ومساعدة تلك الذرية على إيجاد الأماكن المناسبة للحياة. وبالنسبة لهذا المطلب الأخير تبدو الميكروبات مدهشة إلى حد الإعجاز. إذ إنها طورت وسائل عديدة للانتقال من شخص لآخر، ومن الحيوانات للبشر. والحقيقة أن معظم أمراضنا تكشف عن الوسائل التي تستخدمها بعض الجراثيم الماهرة لتعديل أجسادنا أو سلوكنا بحيث نصلح لنشر الجراثيم المعدية.

وأقل الطرق مشقة لنشر ميكروب ما هي الانتظار حتى يُنقل بطريقة سلبية إلى الضحية التالية. وتلك هي الإستراتيجية التي تمارسها الميكروبات التي تنتظر أن يأكل حاضن حاضناً آخر - مثل بكتيريا السالمونيلا، مثلاً، التي نصاب بها إذا أكلنا البيض أو اللحم المصاب، أو الدودة الشريطية التي تنتظر أن نذبح خنزيراً ونأكله دون طهوه على نحو سليم.

وتمتد يد سيطرتها الإستراتيجية لبعض

الذين يحملون أسوأ الجراثيم التي يوقعون بها أنكى الضربات على أعدائهم.

وأكثر الأمثلة شراسة على دور الجراثيم في التاريخ ماثل بوضوح في أذهاننا هذا الشهر ونحن نستعيد ذكرى الغزو الأوروبي للأميركتين بداية برحلة كولومبوس سنة ١٤٩٢ م. وبقدر ما كان ضحايا وحشية الغزاة الأسبان من الهنود كثيرين، تزايدت أعدادهم أيضاً بفعل الميكروبات الأسبانية القاتلة التي أودت بحياة العديد من الضحايا. إذ قتل أولئك الغزاة القساة ما يقدر بحوالي ٩٥٪ من عدد السكان الهنود في العالم الجديد قبل كولومبوس.

فلماذا كان تبادل الجراثيم القذرة بين الأميركتين وأوروبا على هذا القدر من عدم التعادل؟ ولماذا لم يحدث العكس بدلاً من ذلك، بحيث تؤدي الأمراض الهندية بالغزاة الأسبان، ثم تنتشر عبر الأطلنطي لتسبب تناقصاً بين سكان أوروبا بنسبة ٩٥ بالمائة؟ وثمة أسئلة شبيهة تثور حول الأذى الذي سببته الجراثيم الأوروبية لشعوب أخرى عديدة، وحول انهيار الغزاة الأوروبيين في المناطق المدارية بأفريقيا وآسيا.

لابد أن نفكر، بطبيعة الحال، في الأمراض من وجهة نظرنا: ماذا بوسعنا فعله لإنقاذ أنفسنا وقتل الميكروبات؟ لكننا نحدد الأوغاد «الجراثيم» دون أن نلقي بالاً لدوافعها أبداً.

وفي الحياة، لابد للمرء أن يحدد العدو لكي يضره. ومن ثم، فلنحاول للحظة أن

الذي يصيب الجلد بسبب الجدري ينشر الميكروبات عن طريق الاتصال الجسدي المباشر أو غير المباشر (وفي بعض الأحيان بطريقة غير مباشرة تماماً، مثلما قام البيض من الأمريكين والأستراليين بإرسال هدايا من البطاطين التي كان يستخدمها مرضى الجدري إلى الأهالي الأصليين «المحاربين» بقصد استئصالهم).

ومع ذلك، فإن الإستراتيجية التي تمارسها ميكروبات الأنفلونزا وأمراض البرد العامة، والسعال الديكي، هي الأكثر نشاطاً، لأنها تجعل الضحية يسعل أو يعطس، وبذلك

ينشر الجراثيم باتجاه من يحتمل أن يكونوا ضحايا جديداً. كذلك فإن بكتيريا الكوليرا تنتسب في إسهال شديد ينشر البكتيريا في مصادر المياه التي يعتمد عليها الضحايا الجدد. ولاشيء يباري فيروس داء الكلب في تعديل سلوك الضحية، إذ لا يدخل هذا الفيروس في لعاب الكلب المسعور فحسب، وإنما يسوق ضحيته في حال من الجنون إلى العض، وبذلك يصيب العديد من الضحايا الجدد.

وهكذا، فإن آلام الأعضاء التناسلية والإسهال والسعال هي «أعراض» للمرض من وجهة نظرنا. أما من وجهة

الميكروبات لا تنتظر موت حاضنها القديم، وإنما تعلق في لعاب حشرة تعض الحاضن القديم، ثم تطير إلى حاضن جديد. هذه التوصيلة المجانية يمكن أن يقدمها البعوض والبراغيث، والقمل، وذبابة تسي تسي، وهي الحشرات التي تنشر الملاريا والطاعون والتيتنوس ومرض النوم بالترتيب. وأكثر حيل الناقلات السلبية قذارة هي تلك

التي تقوم بها الميكروبات التي تنتقل من امرأة إلى جنينها - وهي ميكروبات من النوع الذي يسبب الزهري والحصبية الألمانية، والأيدز.

وتستطيع هذه الميكروبات بدهائها أن تصيب جنيناً قبل مولده.



وإذا استخدمنا الأسلوب المجازي نقول إن بعض الجراثيم تمسك بزمام الأمور في يديها. إذ إنها تنشط لتعديل التركيبة البنوية، أو عادات حاضنها لكي تسرع من عملية انتقالها. ونحن نرى في الآلام الناتجة عن الأمراض التناسلية مثل الزهري أمراً يحط من قدر المرء ويسيء إليه. أما من وجهة الميكروبات، فإنها وسيلة مفيدة لضمان مساعدة الضحية لتلقيح ثغرة في جسد ضحية أخرى بالميكروبات. كما أن الضرر

نظر الجراثيم، فهي استراتيجيات حاذقة للمواءمة ونشر الجراثيم. وهذا هو الذي يجعل من صالح الجراثيم أن تجعلنا «مرضى». ولكن، ما الذي تكسبه من قتلنا؟ إن هذا يبدو هزيمة للذات، لأن الميكروب الذي يقتل حاضنه يقتل نفسه.

وعلى الرغم من أنك قد ترى في هذا القليل من العزاء، لأن موتنا في حقيقته ليس سوى نتيجة جانبية عارضة غير مقصودة لأعراض مرض الضحية الذي يحسن فعالية وسائط نقل الميكروبات. نعم إن مريض الكوليرا الذي لا يعالج قد يموت من جراء إخراج سائل الإسهال بمعدل عدة جالونات يومياً. وما دام المريض على قيد الحياة أفادت بكتيريا الكوليرا من انتشارها بمعدل عالٍ في موارد المياه التي يستخدمها ضحاياها القادمون. وما دامت الضحية تصاب بهذه الطريقة، وهي في المتوسط أكثر من ضحية واحدة، فإن البكتيريا ستنتشر حتى وإن ماتت الضحية الأولى.

لقد أنفقنا الكثير من الوقت في التحري الهادئ عن مصالح الجراثيم. فلنعد الآن لنأمل مصالحنا الخاصة، أي أن نبقى أحياء أصحاء، وهو ما يمكن تحقيقه على أفضل وجه بقتل الجراثيم اللعينة. إحدى الاستجابات الشائعة هي الحمى. ومرة أخرى، نحن نعتبر الحمى من «أعراض» المرض، كما لو أنها قد جاءت بطريقة حتمية دون أن تكون لها أية وظيفة. ولكن تنظيم حرارة الجسم يخضع لسيطرة الجينات داخلنا، ولا تحدث الحمى هكذا

بمحض المصادفة. ولأن بعض الميكروبات أكثر حساسية من أجسادنا تجاه الحرارة، فإننا نحاول برفع درجة حرارة أجسادنا أن نقتل الجراثيم حرماً قبل أن نحترق نحن في واقع الأمر.

وثمة استجابة شائعة أخرى تتمثل في تعبئة نظامنا المناعي. ذلك أن كرات الدم البيضاء وغيرها من الخلايا تنشط لطرد الميكروبات الغريبة وقتلها. والأجسام المضادة الخاصة التي نبنيناها تدريجياً ضد ميكروب بعينه تجعلنا أقل عرضة للمرض مرة أخرى، إذا تم شفاؤنا. وكما نعرف جميعاً، هناك بعض الأمراض، مثل الأنفلونزا وأمراض البرد عامة، التي تكون مقاومتنا لها مؤقتة فقط؛ ومن ثم فإننا يمكن أن نصاب بالمرض ثانية. والأجسام المضادة التي يخلقها المرض تكسب الجسم مناعة مدى الحياة ضد أمراض أخرى - منها الحصبة، والغدة النكفية، والسعال الديكي، والجذري الذي أمكن التغلب عليه حتى الآن. وهذا هو المبدأ وراء التطعيم - أي نحفز إنتاج الأجسام المضادة في أجسامنا دون أن نمر بتجربة المرض الحقيقية.

ومن المؤسف أن بعض الجراثيم الماهرة لا تنهار أمام دفاعاتنا التطعيمية. إذ إن بعضها تعلم أن يحتال علينا بتغيير موادها المضادة، أي تلك الجزيئات من الميكروب التي تتعرف عليها المضادات في أجسامنا. والتطويع المستمر، أو توالد أنواع جديدة على الدوام من الأنفلونزا، بمواد مضادة مختلفة، يفسر لنا السبب في

الآدميين تتوافر لهم حماية كلية بشكل أفضل.

وباختصار، تعين على الكثير من الجراثيم أن تطور الحيل التي تمكنها من الانتشار بين من يحتمل أن يكونوا من الضحايا. كما أننا طورنا حياً مضادة، استجابت لها الجراثيم بأن طورت حياً مضادة للحيل المضادة. ونحن وجراثيمنا رهن سباق متصاعد للتطوير، وموت أحد المتسابقين هو ثمن الهزيمة، على حين يلعب الاختيار الطبيعي دور الحكم.

والشكل الذي يتخذه ذلك السباق المميت يختلف باختلاف الجراثيم، فهو بالنسبة لبعض الجراثيم أشبه بحرب العصابات، وبالنسبة للبعض الآخر أشبه بالحرب الخاطفة. فمع أمراض معينة، مثل الملاريا أو دودة الأنكلستوما، هناك قدر ثابت من المرض المخفف الذي يصيب حالات جديدة في المناطق المصابة، بحيث تظهر هذه الحالات خلال أي شهر، أو أية سنة قادمة. ومع هذا، فإن الأمراض الوبائية تختلف، إذ إنها لاتنتج حالات جديدة على مدى زمن طويل، ثم تגיע موجة شاملة من الحالات، يعقبها عدم وجود حالات جديدة لفترة من الزمان.

وبين مثل هذه الأمراض الوبائية. تقف الأنفلونزا باعتبارها الأكثر شهرة بين الأميركيين، وكانت سيئة بالنسبة لنا هذا العام بشكل خاص (ولكنها كانت سنة عظيمة بالنسبة لفيروس الأنفلونزا). ويأتي وباء الكوليرا على فترات أطول، فقد كان وباء الكوليرا الذي استشرى في بيرو

أن الأنفلونزا التي أصبت بها منذ عامين لاثميك من هذه الأنفلونزا الجديدة التي وصلت في هذا العام. ومع هذا فإن مرض النوم أكثر قابلية وقدرة على تغيير جزيئاته المضادة بسرعة.

أما أسرع الفيروسات تغيراً ومراوغة فهو فيروس الأيدز الذي يغير جزيئاته المضادة حتى وهو مستقر داخل مريض واحد، حتى يهيمن في النهاية على الجهاز المناعي.

وأبطأ استجاباتنا تأتي من خلال الانتخاب الطبيعي الذي يغير المعدل النسبي لظهور الجينات من جيل لآخر. إذ إن بعض الناس يظهرون مقاومة وراثية ضد مرض ما أكثر مما يبدية غيرهم. وفي حال الوباء، يكون أولئك الناس الذين يملكون جينات تقاوم مرضاً بعينه أكثر حظاً في النجاة من أولئك الذين يفتقرون إلى مثل هذه الجينات. ونتيجة لهذا، فإنه على مر التاريخ كانت الجماعات السكانية التي تتعرض بشكل متكرر لميكروب معين تتكون من أفراد يملكون جينات مقاومة للمرض — فقط لأن الأفراد سيئي الحظ الذين لا يملكون مثل هذه الجينات لم تكن فرص نجاتهم كبيرة، بحيث ينقلون هذه الجينات إلى أولادهم.

وربما تظن أن هذا نوع من العزاء المريح. بيد أن هذه الاستجابة التطورية لا تُسدي للفرد ذي الحساسية الجينية الذي يعاني سكرات الموت أي خير. ومع ذلك فإنها تعني أن جماعة من السكان

سنة ١٩٩١م هو الأول الذي يصل إلى العالم الجديد خلال القرن العشرين. ومع أن الأنفلونزا والكوليرا مرعبتان اليوم، فإنهما تتواريان خجلاً أمام أمراض الماضي الوبائية التي كانت أشدّ بعثاً للربح في الماضي، قبل ظهور الطب الحديث. كانت أكبر موجة أنفلونزا شهدتها العالم هي تلك التي قتلت ٢١ مليون نسمة عند نهاية الحرب العالمية الأولى. كما أن الموت الأسود، أو الطاعون الدبلي، أهلك ربع سكان أوروبا فيما بين سنة ١٣٤٦ م وسنة ١٣٥٢م، وارتفعت نسبة الوفيات في بعض المدن إلى ٧٠ بالمائة.

وتشترك الأمراض المعدية التي تزورنا على شكل أوبئة في عدة خصائص. أولها، أنها تنتشر بسرعة وفعالية من شخص مصاب إلى الأشخاص الأصحاء القريبين منه، وتكون النتيجة تعرض كل السكان للمرض في زمن قصير. وثانيها، أنها أمراض «ذكية»، لأنك إما أن تموت خلال فترة قصيرة أو تشفى تماماً. وثالثها، أن الأشخاص المحظوظين الذين يشفون يطورون مضادات تجعلهم محصنين ضد الإصابة بالمرض ثانية ولفترة طويلة ربما امتدت إلى آخر العمر. وأخيراً، أن هذه الأمراض تميل إلى ملازمة الإنسان، إذ إن الجراثيم التي تسببها لاتميل إلى العيش في التربة، أو في حيوانات أخرى. كل هذه الخصائص تنطبق على ما يظن الأميركيون أنها أكثر أمراض الطفولة الذكية شيوعاً ومنها

الحصبة، والحصبة الألمانية، والغدة النكفية، والسعال الديكي، والجذري.

وثمة مثال توضيحي كلاسيكي عن مجرى هذه العملية يقدمه لنا تاريخ الحصبة في جزر الفايروي المنعزلة في شمال الأطلنطي. إذ وصل وباء شديد من هذا المرض إلى جزر الفايروي سنة ١٧٨١م، ثم تلاشى، تاركاً الجزر خالية من الحصبة حتى وصل نجار مصاب بالحصبة على متن سفينة قادمة من الدانمرك سنة ١٨٤٦م. وفي غضون ثلاثة شهور أصيب كل سكان جزر الفايروي — ٧٧٨١ نسمة — تقريباً بالحصبة، وماتوا أو شفوا، تاركين فيروس الحصبة ليختفي مرة أخرى حتى الوباء القادم. وتكشف الدراسات عن أنه من المحتمل أن تلاشى الحصبة في أي تجمع سكاني يقل عن نصف مليون نسمة. ففي المجتمعات ذات الكثافة السكانية العالية فقط يمكن للحصبة أن تنتقل من منطقة محلية إلى أخرى، ثم تكمن هناك حتى يولد العدد الكافي من الأطفال في المنطقة التي أصيبت أصلاً بحيث يمكن للمرض أن يعود.

وتقدم لنا الحصبة الألمانية في أستراليا مثلاً مشابهاً، وعلى مدى أكبر كثيراً، عندما كان سكان أستراليا سنة ١٩١٧م لا يزال خمسة ملايين نسمة، يعيش معظمهم في مناطق ريفية متناثرة. وكانت الرحلة البحرية إلى إنجلترا تستغرق شهرين، كما كان النقل البري داخل أستراليا سهلاً بطيئاً والحقيقة أن أستراليا لم تكن

ولاستطيع أمراض الزحام أن توطن نفسها وسط جماعات صغيرة من الصيادين - الجامعين والفلاحين الرحالة. ومثلما تؤكد التجربة المأساوية الحديثة مع هنود الأمازون وسكان جزر المحيط الهادي، يمكن لعشيرة قبلية أن تهلك بأسرها من جراء وباء يجلبه زائر من الخارج، لأنه ليس من بين أفراد هذه العشيرة من يحمل مضادات للميكروب. وفضلاً عن ذلك، فإن الحصبة وغيرها من أمراض «الطفولة» ربما تقتل من البالغين أكثر مما تقتل من الأطفال، لأن كل البالغين في العشيرة لديهم قابلية للعدوى. فإذا ماتم قتل معظم البالغين من أفراد العشيرة اختفى المرض. والعدد الصغير في التجمعات السكانية هو الذي يفسر لنا سبب عدم قدرة العشائر القبلية على الصمود أمام الأوبئة المجلوبة من الخارج؛ كما يفسر لنا في الوقت نفسه السبب في أنهم لا يطورون أمراضاً وبائية من لديهم لكي يعطوها بدورهم للزوار.

وليس معنى هذا أن التجمعات البشرية صغيرة العدد خالية من الأمراض المعدية. إذ إن بعض أمراضهم تسببها ميكروبات قادرة على الحياة في الحيوانات، أو في التربة، وبذلك يبقى الميكروب باستمرار

تتألف من سكان يبلغ عددهم خمسة ملايين نسمة، بل كانت تتكون من مئات التجمعات السكانية الصغيرة، ونتيجة لهذا، كانت الحصبة الألمانية تصيب أستراليا في شكل وباء مؤقت فقط، عندما كان يصل شخص مصاب من وراء البحار، ويقيم وسط منطقة كثيفة السكان. ومع هذا، فإنه بحلول سنة ١٩٢٨م، كانت مدينة سيدني وحدها سكناً لأكثر من مليون نسمة، وكان الناس يتحركون كثيراً وبسرعة بين لندن وسيدني وغيرها من المدن الأسترالية. وفي ذلك الوقت، تقريباً، تمكنت الحصبة الألمانية للمرة الأولى من الاستقرار بشكل دائم في أستراليا.

وما يصدق على الحصبة الألمانية في أستراليا يصدق على معظم الأمراض المعدية الذكية في شتى أرجاء العالم. إذ إن هذه الأمراض تحتاج، لكي توطن نفسها، إلى تجمع سكاني

كبير العدد وكثيف بالقدر الذي يكفي لتوفير جيل جديد من الأطفال القابلين للعدوى في الوقت الذي يكون المرض قد ضعف. ومن ثم فإن الحصبة الألمانية، وغيرها من الأمراض المشابهة، معروفة باسم «أمراض الزحام».



مصدر إصابة محتملاً للإنسان. وعلى سبيل المثال، فإن فيروس الحمى الصفراء تحمله القروء الوحشية الأفريقية، وهو مصدر محتمل لإصابة سكان المناطق الريفية في أفريقيا باستمرار. كما كان من الممكن حمله إلى البشر والقروء في العالم الجديد من خلال تجارة العبيد عبر الأطلنطي.

والأمراض الأخرى التي تصيب التجمعات السكانية الصغيرة هي من الأمراض المزمنة، مثل الجذام والمصع (مرض مثل الزهري)، التي تحتاج إلى وقت طويل جداً لقتل ضحيتها. وبذلك يبقى الضحية حياً كاحتياطي للميكروبات لكي تنشر العدوى بين أفراد آخرين من أبناء القبيلة. وأخيراً، فإن أبناء التجمعات السكانية الصغيرة لديهم قابلية للإصابة بالأمراض غير القاتلة التي لانطور أية مناعة ضدها، مما ينتج عنه أن يكون الشخص نفسه معرضاً للإصابة مرة ثانية بعد شفاؤه. وتلك هي الحال مع دودة الأنكلستوما، وطفيليات كثيرة غيرها.

كل تلك الأنماط من الأمراض، التي هي من خصائص التجمعات السكانية الصغيرة المعزولة، لا بد أنها أقدم أمراض البشرية. إذ إنها الأمراض التي استطعنا تطويرها والإبقاء عليها خلال الملايين الباكورة من تاريخ تطورها، عندما كان عدد البشرية كلها ضئيلاً متناثراً. كما أنها شركة بيننا وبين أقرب أقاربنا المتوحشين مثل القرود الأفريقية الكبيرة، أو هي

شبيهة بأمراضهم. وعلى النقيض من ذلك، ربما يكون ظهور أمراض الزحام قد جاء فقط مع بناء التجمعات السكانية الكبيرة والكثيفة، وهو ما لم يكن ممكناً إلا بظهور الزراعة منذ حوالي عشرة آلاف سنة، ثم ظهور المدن منذ عدة آلاف من السنين. والواقع، أن أول تواريخ مؤكدة لكثير من الأمراض المعدية الشائعة حديثة بشكل يدعو إلى الدهشة، فالجدري حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م «كما يستنبط من آثار بثور الجدري على المومياءات المصرية»، والغدة النكافية سنة ٤٠٠ ق.م، وشلل الأطفال سنة ١٨٤٠ م، والأيدز ١٩٥٩ م.

والزراعة تعول مثل هذه التجمعات البشرية عالية الكثافة على نحو أفضل من الصيد أو الجمع والالتقاط — بحوالي من ١٠ إلى ١٠٠ ضعف في المتوسط. — فضلاً عن أن الصيادين — الجامعين كثيراً ما يغيرون مكان إقامتهم تاركين خلفهم أكوام البراز بما تحويه من ميكروبات ويرقانات الدود. ولكن الفلاحين مستقرون، ويعيشون وسط أقذارهم، بحيث يوفرّون للميكروبات وسائط نقل سريعة من جسد شخص إلى المياه التي يشربها آخر. كما أن الفلاحين محاطون بوسائل نقل المرض التي يجذبها الطعام المخزون.

بل إن بعض التجمعات البشرية تجعل من الأسهل على البكتيريا والديدان إصابة ضحايا جدد، عندما يجمعون برازهم وبولهم لنشره كسماد لتخصيب حقولهم التي يعمل الناس فيها. وغمر الأرض

الوسطى. وقد اختصرت طائراتنا النفاثة في العصر الحالي أطول المسافات بين القارات بحيث تقل عن دورة أي من الأمراض المعدية. وهذا ما يفسر لنا كيف أن طائفة من الخطوط الجوية الأرجنتينية كانت قد توقفت في ليما عاصمة بيرو في وقت سابق من هذه السنة، ونقلت عشرات من المصابين بالكوليرا إلى مدينة لوس أنجلوس، عبر ثلاثة آلاف ميل. والزيادة الرهيبة في معدل سفر الأميركيين إلى أنحاء العالم وزيادة أعداد المهاجرين إلى الولايات المتحدة تحولنا إلى بوتقة أخرى للصهر، لكن في هذه المرة لصهر وخطط الميكروبات التي كنا قد تخلصنا منها من قبل على اعتبار أنها تسبب الأمراض المجلوبة من بلاد نائية.

وعندما باتت جمهرة السكان كبيرة وكثيفة بالقدر الكافي، وصلنا إلى مرحلة من تاريخنا جعلتنا نقدم الدعم لأمراض الزحام المرتبطة بالجنس البشري. بيد أن هذا يخلق تناقضاً مؤداه أن مثل هذه الأمراض لم تكن لتوجد قبل ذلك أبداً. وبدلاً من ذلك تطورت كما لو كانت أمراضاً جديدة. فمن أين وفدت تلك الأمراض المستجدة؟

يبرز الدليل من طيات الدراسات الخاصة بالميكروبات المسببة للأمراض، ففي كثير من الأحوال تمكن علماء البيولوجيا الجزيئية من تحديد أقرب أقرباء الميكروبات. وقد برهن أولئك الأقرباء أيضاً على كونهم وسطاء لنقل الأمراض المعدية، بيد أنهم مرتبطون

بمياه الري في الزراعة، ومزارع الأسماك توفر ظروفاً معيشية مثالية للقواقع التي تحمل الديدان التي تخترق أجسادنا في أثناء الخوض في المياه المحملة بالفضلات.

وإذا كان ظهور الزراعة نعمة وليكوروباتنا، فإن ظهور المدن كان خيراً حقاً لها، لأن التجمعات البشرية الأكثر كثافة لا تزال تنن تحت وطأة ظروف صحية أسوأ «إذ لم يحدث قبل القرن العشرين أن صارت التجمعات السكانية الحضرية قادرة على الصمود بنفسها، فحتى ذلك الحين كانت هجرة الفلاحين الأصحاء من الريف ضرورية لتعويض الوفيات المستمرة بين سكان المدينة بسبب أمراض الزحام». وثمة هبة سخية أخرى هي طرق التجارة العالمية، التي كانت في أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية تربط بفعالية بين سكان أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا في أرض موحدة شاسعة تتوالد فيها الميكروبات. وقد حدث هذا عندما وصل الجدري في نهاية الأمر إلى روما باسم «طاعون أنطونيوس»، الذي قتل ملايين المواطنين الرومان بين سنة ١٦٥ م وسنة ١٨٠ م.

كذلك ظهر الطاعون الدبلي للمرة الأولى في أوروبا باسم طاعون جستنيان «٥٤٢ - ٥٤٣ م»، بيد أن الطاعون لم يبدأ في ضرب أوروبا بكامل قوته، مثل أوبئة الموت الأسود، حتى سنة ١٣٦٤ م، عندما وفرت التجارة البرية مع الصين وسيلة انتقال سريعة في الفراء المليء بالبراغيث من المناطق المصابة بالطاعون في آسيا

فإذا ما أخذنا في اعتبارنا قربنا من الحيوانات التي نحبها نجد أنه لابد أن نتعرض باستمرار لهجوم ميكروبات الحيوانات. إذ تمت غريبة أولئك الغزاة بالانتخاب الطبيعي بحيث لم ينجح منها سوى عدد قليل في جعل نفسها أمراضاً بشرية. وأي مسح سريع للأمراض الحالية يجعلنا نحدد أربع مراحل مرّ بها تطور الأمراض البشرية التي جاءت من أصول حيوانية.

في المرحلة الأولى، نلتقط ميكروبات الحيوان التي تظل في مرحلة باكراً من تطورها إلى جراثيم خاصة بالإنسان. وهي لا تنتقل مباشرة من شخص لآخر، بل إن انتقالها من الحيوان إلينا ليس أمراً شائعاً. فهناك عشرات من الأمراض تشبه المرض الذي نأخذه من الحيوانات المنزلية والأليفة. ومنها حمى الهرش التي تنقلها القطط، ومرض ضيق التنفس الذي تنقله الكلاب، ومرض الصدفية الجلدي الذي ينتقل من الدجاج والبيغاوات، ومرض الحمى المتوجة من الماشية. كما أننا معرضون لالتقاط الأمراض من الحيوانات البرية، مثل حمى التلري التي تصيب الصيادين أحياناً في أثناء سلخ الأرناب البرية.

وفي المرحلة الثانية، يتطور جرثوم الحيوانات السابق ليصل إلى نقطة ينتقل عندها مباشرة إلى الناس مسبباً الأوبئة. وعلى أية حال، فإن الأوبئة تتلاشى لعدة أسباب — فإما أن تعالج بالدواء الحديث، وإما أن تتوقف بعد إصابة كل

بأنواع مختلفة من الحيوانات الأليفة والمستأنسة! وبين الحيوانات أيضاً تتطلب الأمراض الوبائية وجود جمهرة كثيفة، وهي مرتبطة بشكل أساسي بالحيوانات التي تعيش في جماعات، وتوفر الجمهرة اللازمة. ومن ثم، فإننا عندما استأنسنا الحيوانات الجماعية مثل الأبقار والخنازير، كانت مصابة فعلاً بأمراض وبائية تنتظر الفرصة للانتقال إلينا.

وفيروس الحصبة، مثلاً، قريب جداً من الفيروس الذي يسبب طاعون الماشية، وهو مرض وبائي قدر يصيب الماشية والعديد من الثدييات المجترّة البرية. ولا يصيب طاعون الماشية الإنسان، كما أن الحصبة بدورها لا تصيب الماشية. ويوحى التشابه الشديد بين فيروس الحصبة وفيروس طاعون الماشية بأن طاعون الماشية انتقل من الحيوان للإنسان، ثم تحول إلى فيروس الحصبة بأن غير خصائصه لكي يناسبنا. هذا الانتقال ليس غريباً إذا ما وضعنا في اعتبارنا كيف يعيش الكثير من الفلاحين وينامون بالقرب من أبقارهم، بروثها، وبولها، وأنفاسها، وأوجاعها. وترجع الألفة التي تربطنا بالماشية إلى ثمانية آلاف سنة — عندما استأنسناها — وهي فترة مناسبة لأن يكشف فيروس طاعون الماشية وجودنا بجواره. ويمكن تتبع نشأة الأمراض المعدية الأخرى الشائعة من أمراض أصدقائنا الحيوانات بالطريقة نفسها.

الأفراد أو وفاتهم، أو تتوقف عندما يكون كل الأفراد قد أصيبوا واكتسبوا المناعة. فمثلاً، هناك مرض لم يكن معروفاً من قبل أطلق عليه «حمى الأونيونج - نيونج» ظهر بشرق أفريقيا ١٩٥٩م، وأصاب عدة ملايين من الأفريقيين. وربما يكون قد نشأ عن فيروس يصيب القرود ثم انتقل للإنسان بواسطة البعوض. ولأن المرضى شفوا بسرعة، واكتسبوا

حصانة ضد أي هجوم آخر للفيروس تلاشى المرض الجديد بسرعة.

وحوليات الطب ملأى بأمراض تبدو وكأنها تختلف عن أي أمراض معروفة اليوم، ولكنها قد تسببت ذات مرة في أوبئة مرعبة قبل أن تختفي بنفس الطريقة الغامضة التي جاءت بها. ومن الأحياء اليوم يذكر «مرض العرق الإنجليزي»

الذي اجتاح أوروبا

وروعها بين ١٤٨٥م و١٥٧٨م، أو مرض «عرق بيكاردي» الذي استشرى في فرنسا في القرنين ١٨، ١٩؟

المرحلة الثالثة في تطور أمراضنا الرئيسية تمثلها جراثيم الحيوانات السابقة التي توطن نفسها في البشر، والتي لا تفنى؛ وإلى أن يحدث ذلك يظل

السؤال مطروحاً للنقاش حول إمكانية تحول هذه الجراثيم إلى صفوف كبار قتلة البشرية. إذ إن المستقبل لا يزال غير مؤكد بالنسبة لحمى اللاسا التي لوحظت لأول مرة بنيجيريا ١٩٦٩م بسبب فيروس ربما انتقل من القوارض، وأكثر منه ثباتاً مرض ليمي الذي تسببه بكتيريا الحمى الراجعة التي تنتقل إلينا من عضه حشرة القرادة. وعلى الرغم من أن أولى

الحالات بين البشر في الولايات المتحدة لم تظهر سوى سنة ١٩٦٢، فإن مرض ليمي وصل إلى حد الوباء في الشمال الشرقي، وعلى الساحل الغربي والغرب الأوسط. أما مستقبل الأيدز، الذي جاء من فيروسات القرود، فهو الأكثر أمناً من وجهة نظر الفيروس.



المرحلة الأخيرة في هذا

التطور تتمثل في الأمراض الوبائية الرئيسية التي استقرت منذ وقت طويل، ولازمت الإنسان. ولا بد أن هذه الأمراض هي البقايا المتطورة لجراثيم أخرى قديمة حاولت أن تقفز إلينا من الحيوانات، وكان مصيرها الفشل غالباً.

والأمراض تمثل التطور صوب الأمام،

على حين تتواءم الميكروبات بالانتخاب الطبيعي مع الحاضنين الجدد. وأجسادنا، مقارنة مع أجساد الأبقار، تقدم دفاعات مناعية مختلفة كما تفرز كيمياء مختلفة. وفي هذه البيئة الجديدة لابد للميكروب أن يطور طرقاً جديدة للعيش والتكاثر.

وأفضل مثال مدروس عن الميكروبات التي تطور هذه الطرق الجديدة يتمثل في وباء الورد الهلامي الذي ضرب الأرانب الأسترالية سنة ١٩٥٠م. فقد كان من المعروف أن فيروس الورد الذي كان يستوطن نوعاً من الأرانب البرية البرازيلية يسبب وباءً مهلكاً للأرانب الأليفة في أوروبا، وهي أنواع أخرى مختلفة. وقد تم استقدام الفيروس إلى أستراليا على أمل تخليص القارة من انتشار الأرانب الأوروبية في القرن التاسع عشر بحماقة. وفي السنة الأولى جاءت النتيجة سارة «للمزارعين الأستراليين» إذ قضى على حوالي ٩٩,٨ بالمائة من الأرانب المصابة. ومن حسن حظ الأرانب وسوء حظ المزارعين انخفض معدل الموت في السنة الثانية إلى ٩٠٪، ثم وصل إلى ٢٥٪، مما أحبط الآمال في استئصال الأرانب تماماً بأستراليا. والمشكلة أن فيروس الورد الهلامي تطور ليخدم مصالحه الخاصة التي تختلف عن مصالح المزارعين والأرانب. إذ غير الفيروس من طريقته وصار يقتل أعداداً أقل، ويسمح للمصابة بالمرض القاتل أن تعيش وقتاً أطول قبل أن تموت. وكانت النتيجة سيئة بالنسبة

للمزارعين الأستراليين ولكنها جيدة للفيروس، إذ ينشر فيروس الورد القاتل الفيروسات الوليدة في عدد من الأرانب أكبر مما كان الورد الأصلي ينشرها مسبباً ورماً هلامياً غاية في القسوة.

ولكى نضرب مثلاً شبيهاً لدى البشر، تأمل التطور المدهش للزهري. فنحن نميز الزهري اليوم بأوجاع الجهاز التناسلي، والبطء المتناهي لتطور المرض، بحيث يؤدي إلى موت الضحايا الذين لا يعالجون بعد عدة سنوات. وعلى أية حال، فعندما تم تسجيل الزهري بشكل محدد للمرة الأولى سنة ١٤٩٥م، كانت البثور الناتجة عنه غالباً ماتغطي الجسم من الرأس إلى الركبتين، مسبباً سقوط لحم الوجه من المصابين، مما يؤدي إلى الموت في غضون أشهر قليلة. وبحلول سنة ١٥٤٦ كان الزهري قد تطور ليصبح المرض ذا الأعراض المعروفة اليوم لنا. ومن الواضح أنه مثلما حدث للورد الهلامي تطورت بكتيريا الزهري لكي تحتفظ بضحايا أحياء فترة أطول، بحيث تنقل البكتيريا الوليدة إلى مزيد من الضحايا.

فكيف، إذن، يفسر كل هذا حصاد سنة ١٤٩٢ - أي غزو الأوروبيين للعالم الجديد، وتقليص سكانه بدلاً من أن يهزم السكان المحليون الأوروبيين ويقلصون أعدادهم؟

جزء من الإجابة يعود إلى الميزات التكنولوجية التي تمتع الغزاة بها. إذ إن البنادق وسيوف الصلب الأوروبية كانت

وصل المكسيك سنة ١٥٢٠م مع عبد مصاب من كوبا الأسبانية. ومضى الوباء الناجم عن هذا ليقتل حوالي نصف الأزكد. وانحطت معنويات الناجين بسبب المرض الغامض الذي كان يقتل الهنود ويبقي على الأسبان، كما لو كان دعاية للأسبان الذين لا يقهرون. وبحلول سنة ١٦١٨ كان عدد سكان المكسيك قد انحط إلى ١,٦ مليون نسمة بعد أن كان ٢٠ مليوناً.

كان حظ بيزارو مشابهاً عندما رسا على ساحل بيرو ١٥٣١م، ومعه حوالي ٢٠٠ رجل لغزو إمبراطورية الإنكا. ومن حسن حظ بيزارو وسوء طالع الإنكا أن الجدري كان قد وصل هذه البلاد حوالي ١٥٢٤م، ليقتل الكثيرين من السكان، بما فيهم الإمبراطور هوايانا كاباي، وابنه نينان كويوشي ولي العهد. وبسبب العرش الخالي، انغمس ابنان آخران للإمبراطور في حرب أهلية وهما آتاهاوالبا، وهواسكار. واستغل بيزارو فرصة هذه الحرب الأهلية ليلحق الهزيمة بالإنكا المنقسمين على أنفسهم.

وعندما نفكر نحن في الولايات المتحدة في أكثر المجتمعات سكاناً في العالم الجديد سنة ١٤٩٢ لا يتبادر الأزكد والإنكا إلى أذهاننا. وقد نسينا أن أميركا الشمالية كانت بها أيضاً مجتمعات هندية كبيرة في وادي المسيسيبي. ومن المحزن أن قُدر لهذه المجتمعات أيضاً أن تختفي. ولكن في هذه الحالة لم يسهم الغزاة بأي قدر في تدمير هذه المجتمعات، لأن جراثيم الغزاة

أسلحة أكثر فعالية من البلط الحجرية، والهرافات الخشبية التي كانت بحوزة الأميركيين المحليين. كما كان الأوروبيون وحدهم يملكون السفن القادرة على عبور المحيط، والخيول التي يمكن أن توفر لهم ميزة حاسمة في المعركة. بيد أن هذه ليست كل الإجابة، إذ إن عدد من ماتوا من الأميركيين المحليين في فراشهم فاق بكثير عدد من ماتوا في ساحة القتال.. لقد كانوا ضحايا الجراثيم لا قتل السيوف. وقوضت تلك الجراثيم المقاومة الهندية بأن قتلت معظم الهنود وزعماءهم، كما حطمت معنويات الذين نجوا.

ودور المرض في الغزو الأسباني لإمبراطوريتي الأزكد والإنكا موثق جيداً بشكل خاص. ففي سنة ١٥١٩م رسا كورتيز على ساحل المكسيك ومعه ٦٠٠ أسباني، لغزو إمبراطورية الأزكد ذات الطابع العسكري الصارم، والتي كانت تضم من السكان آنذاك عدداً يبلغ عدة ملايين نسمة. وقد وصل كورتيز إلى تينوشتيتلان عاصمة الأزكد بعد أن كلفه ذلك ثلثي قواته «فقط»، ثم شق طريقه عائداً إلى الساحل، وهو الأمر الذي يكشف الميزات العسكرية الأسبانية من ناحية، وسداجة الأزكد البدائية من ناحية أخرى. ولكن عندما جاء هجوم كورتيز الثاني سنة ١٥٢١م كان الأزكد قد تخلصوا من سذاجتهم، إذ حاربوا من شارع إلى شارع بمنتهى العناد.

وفي هذه المرة كان الجدري هو الذي منح الأسبان الميزة الحاسمة، إذ كان قد

التي كانت قد انتشرت قبلهم كانت قد تكفلت بكل شيء. وعندما سار دي سوتو عبر الجنوب الشرقي سنة ١٥٤٠م، مرّ على مدن هندية كانت مهجورة منذ عامين لأن كل السكان تقريباً كانوا قد هلكوا بالأوبئة. وعلى أية حال، كان لا يزال بوسعهم أن يرى بعض المدن ذات الكثافة السكانية العالية على طول مجرى المسيسيبي الأدنى. وبعد ذلك بقرن ونصف، عندما تحول المستوطنون الفرنسيون إلى حوض المسيسيبي الأدنى، كانت كل تلك المدن تقريباً قد تلاشت. وبقاياها هي أماكن ومواقع الاستحكامات الكبرى في وادي المسيسيبي. ولم يحدث إلا منذ زمن قريب أن تحققنا من أن المجتمعات التي بنت تلك الاستحكامات كانت لا تزال سليمة إلى حد كبير عندما وصل كولومبوس، وأنها انهارت فيما بين سنة ١٤٩٢، والكشف الأوروبي المنظم لنهر المسيسيبي.

وعندما كنت طفلاً في المدرسة، تعلمنا أنه كان يسكن أميركا الشمالية في الأصل حوالي مليون هندي. وكان هذا الرقم المنخفض يساعد على تبرير الغزو الأبيض لما كان يمكن رؤيته في ذلك الحين على أنه قارة خاوية تقريباً. وعلى أية حال، فإن الحفريات الأثرية والأوصاف التي تركها المستكشفون الأوروبيون الأوائل تقترح مبدئياً حوالي ٢٠ مليوناً. وفي القرن أو القرنين التاليين لوصول كولومبوس إلى العالم الجديد، تناقص السكان الهنود بنسبة تقدر بحوالي ٩٥ بالمائة.

لقد كانت الجراثيم الأوروبية بمثابة القتلة الأساسيين، وهي جراثيم لم يسبق أن تعرض لها الهنود قبل ذلك على الإطلاق، ومن ثم لم تكن لديهم أية مقاومة مناعية أو بنىوية ضدها. فالجدري والحصبة والأنفلونزا والتيتنوس كانت تتنافس لتحوز أعلى معدل بين الأمراض القاتلة. وكما لو أن تلك الأمراض لم تكن كافية، إذ لحقت بها مباشرة أمراض السعال الديكي، والطاعون، والسل، والدفتيريا والغدة النكفية، والحمى الصفراء. وفي حالات لا تحصى كان الأوروبيون حاضرين ليشهدوا الهلاك الذي حل بوصول الجراثيم. فقد حدث، مثلاً، سنة ١٨٢٧م أن أصيبت قبيلة المندان الهندية، صاحبة إحدى الثقافات الزاهرة في السهول الوسطى، بالجدري بسبب قارب بخاري مبحر في نهر ميسوري من سانت لويس. وتدهور عدد المندان من ٢٠٠٠ نسمة إلى أقل من ٤٠ شخصاً في مدى أسابيع قليلة.

ويمثل التبادل الأحادي الجانب للجراثيم المهلكة بين العالم القديم، والعالم الجديد، واحدة من أكثر الحقائق سطوعاً بما تحمله من نتائج في التاريخ الحديث. فبينما صارت أكثر من ستة من الأمراض المعدية الرئيسة في العالم القديم متوطنة في العالم الجديد، لم يصل أوروبا من الأميركتين مرض فتاك واحد. والاستثناء الوحيد الممكن هو الزهري الذي لا تزال نشأته الأصلية محل جدل.

أمراض الزحام الأوراسية قد تطورت من أمراض الحيوانات الأليفة. ومن الأمور ذات الدلالة أنه كانت هناك حيوانات كثيرة من هذا النوع في أوراسيا. لكن كانت هناك خمسة حيوانات فقط صارت مستأنسة في الأمريكتين، الديك الرومي في المكسيك وأجزاء من أميركا الشمالية، وخنزير جينيا، وحيوان اللاما في الأنديز، والبط الموسكوفي في المناطق المدارية بأميركا الجنوبية، والكلب في كافة أرجاء الأمريكتين.

هذه الندرة الشديدة في الحيوانات الأليفة في العالم الجديد تعكس ندرة المادة التي بدأت بها الحياة البرية. إذ إن حوالي ٨٠٪ من الحيوانات الكبيرة في الأمريكتين انقرضت في نهاية العصر الجليدي منذ حوالي ١١ ألف سنة مضت، أي في نفس الوقت الذي انتشرت فيه أول موجة معروفة من الصيادين الهنود في أنحاء الأمريكتين تقريباً. ومن بين الأنواع التي اختفت كانت هناك أنواع يمكن أن تكون أليفة، ومفيدة مثل الخيول، والجمال الأمريكية، ولا يزال الجدل ناشباً حول ما إذا كان انقراضها بسبب الصيادين الهنود وتأثيرهم على الطرائد التي لم تكن قد رأت الإنسان من قبل. وأيضاً كان السبب، فإن الانقراض أزاح

وتبدو هذه الأحاديث أكثر وضوحاً عندما نعرف أن التجمعات السكانية الكثيفة ضرورة لتطور أمراض الزحام. وإذا ما كانت إعادة تقديرات سكان العالم الجديد قبل كولومبوس صحيحة، فإن أولئك السكان لم يكونوا أقل كثيراً من سكان أوراسيا المعاصرين لهم. فبعض مدن العالم الجديد مثل تنو شيتيلان، كانت من بين أكثر مدن العالم سكاناً آنذاك، بيد أن مدينة تنو شيتيلان لم تكن بها جراثيم مرعبة تنتظر

الفرصة بوصول الأسبان. فلماذا؟

ثمة عامل محتمل يتمثل في ارتفاع كثافة السكان الذي بدأ متأخراً في العالم الجديد عنه في العالم القديم. وعامل آخر هو أن أكبر ثلاثة مراكز سكانية في الأمريكتين - الأنديز والمكسيك ووادي المسيسيبي - لم

تكن مرتبطة أبداً بتجارة سريعة منتظمة في أرض واحدة شاسعة تربي فيها الميكروبات وتتوالد، مثلما كانت أوروبا وشمال أفريقيا والصين والهند مرتبطة في أخريات العصر الروماني.

وعلى أية حال، يصبح السبب الرئيسي واضحاً إذا ما طرحنا سؤالاً بسيطاً: من أي الميكروبات يمكن أن تكون أمراض الزحام في أميركا قد تطورت؟ لقد رأينا أن



معظم الأسس التي يقوم عليها استئناس الحيوان المحلي بأميركا — والتي تقوم عليها أمراض الزحام.

ويبدو أن الحيوانات التي بقيت لم تكن مصدراً لمثل هذه الأمراض. إذ إن البط الموسكوفي والديوك الرومية لا تعيش في جماعات كبيرة، كما أنها ليست بالطبيعة أنواعاً محببة «مثل الحملان الصغيرة» بحيث تربطنا بها علاقة مادية وطيدة. وربما تكون خنازير جينيا قد ساهمت ببعض العدوى بالأمراض المثقبة مثل الدراق الطفيلي، أو الليشمانيا لتضعها في قائمة أعدائنا، بيد أن هذا أمر غير مؤكد. وبداية، فإن الأكثر إثارة للدهشة هو غياب أي مرض بشري جاء عن طريق حيوان اللاما الذي يمكن أن يكون المعادل الأنديزي للحيوانات الأوراسية. وعلى أية حال، فإن هناك عوامل ثلاثة تحول دون كون اللاما مصدراً للجراثيم البشرية؛ فإن أقرباءه البرين لا يتواجدون في قطعان كبيرة مثل الخراف والماعز والخنازير، كما أن أعدادها الكلية لم تكن أبداً كبيرة بالقدر الذي كانت عليه أعداد الحيوانات الأليفة في أوراسيا لأن اللاما لم ينتشر أبداً فيما وراء الأنديز، كذلك فإن اللاما لا تغري بالملاطفة مثل صغار الخنازير والحملان ولا يحتفظ بها في أماكن قريبة من الناس «ربما لا تعتقد أن صغار الخنازير تغري بالملاطفة، ولكن الأمهات الأدميات في غينيا الجديدة غالباً ما يقمن برعايتها، وهي تعيش دائماً في أكواخ الفلاحين».

وأهمية المرض المنقول من الحيوانات في التاريخ البشري تمتد إلى ما هو أبعد كثيراً من الأمريكتين. إذ لعبت جراثيم أوراسيا دوراً مهماً في إضعاف الشعوب المحلية في أماكن أخرى عديدة من العالم أيضاً، بما في ذلك جزر المحيط الهادي، وأستراليا، وجنوب أفريقيا. وقد اعتاد الأوروبيون العنصريون على أن ينسبوا تلك الفتوحات إلى عقولهم الأفضل من عقول الآخرين. بيد أنه لم يقد دليل على وجود هذه العقول الأفضل. وبدلاً من ذلك، أمكن تحقيق هذه الغزوات بفضل جراثيم الأوروبيين الأشد قذارة، وبفضل التقدم التكنولوجي والتجمعات السكانية الأكثر كثافة، والتي توصل إليها الأوروبيون أخيراً بفضل نباتاتهم وحيواناتهم الأليفة.

وهكذا، فإننا ينبغي، في الذكرى الخمسمائة لاكتشاف كولومبوس، أن نحاول استعادة إحساسنا بالمنظور حول هذه الإنجازات التي تدور حولها مناقشات ساخنة. ولا شك في أن كولومبوس كان بحاراً وقائداً عظيماً حالمًا. كما أنه لا شك في أنه تصرف هو وخلفاؤه في معظم الأحيان تصرفات القتل العتاة. بيد أن تلك الحقائق وحدها لا تشرح السبب في أن عدداً قليلاً من المهاجرين الأوروبيين بدأوا غزو الأمريكتين ليحلوا في النهاية محل السكان الأصليين. وبدون الجراثيم التي جلبها الأوروبيون معهم — وهي منقولة من الحيوانات — فربما استحال نجاح تلك الغزوات.

لماذا اختلاف الجنسين؟

كريستين جـورمان
شوقي جلال

يكشف العلماء الآن أن الفوارق بين الجنسين ترتبط
ببيولوجيا المخ بنفس القدر الذي ترتبط به بطريقة تنشئتنا

يعتمد العديد من العلماء على أجهزة شديدة التعقيد، وباهظة التكلفة، في محاولتهم الكشف عن الأسرار الغامضة التي تواجه البشرية. لكن مليسا هاينز، عالمة السلوكيات، وخلافا لهؤلاء، تأمل في حل واحد من أقدم ألغاز الحياة مستعينة بصندوق لعب أطفال مليء بسيارات شرطة، وألغاز الصور المقطعة لإعادة تركيبها، ودمى أطفال أو باربي. ولقد حاولت هاينز وزملاؤها على مدى العامين الماضيين تحديد الأصول التي نشأت عنها الفوارق بين الجنسين بأن سجلوا على شرائط فيديو صيحات الفرح، وحالات تقطيب الجبين عند تركيز الفكر وزيادة الاهتمام، وتسجيل آلاف القرارات

من أي شيء خلق الأولاد الصغار؟

من أي شيء عجن الأولاد الصغار؟

من صفادع وحلزون..

وأذغال جراء،

تلك هي عجينة الأولاد الصغار

من أي شيء خلقت البنات الصغار؟

من أي شيء عجنت البنات الصغار؟

من سكر وطيب..

ومن كل ما هو جميل،

تلك هي عجينة البنات الصغار

شاعر مجهول

الفوارق الموجودة بالكامل في الدماغ

الفص الجبهي

أكثر النساء تركز مهارتهن اللغوية في الفص الجبهي بينما تركز المهارات اللغوية لأكثر الرجال في الفص الجذري.

الجسم الجاسي

حزمة كثيفة من الأعصاب تربط مابين الجانبين الأيمن والأيسر من النصفين الكرويين للدماغ. يكون عادة عند النساء أكثر اتساعا منه عند الرجال، وربما يسمح بقدر أكبر من الاتصال بين النصفين الكرويين للدماغ - ولعله يكون أساس الحدس عند المرأة.

الفص الجداري

النخاع الشوكي

ما تحت المادة

مرتبط بالسلوك الجنسي هناك مجموعة من الأعصاب في الجزء الإنامي من «ما تحت المادة» تكون لدى الرجال ذوي الجنسية الغيرية أكبر حجما منها لدى النساء أو الرجال ذوي الجنسية المثلية.

حالة شذوذ جنسية نادرة جعلتهن يفرزن مستويات عالية من هورمون التستوستيرون الذي تفرزه الخصية، من بين هورمونات أخرى، خلال مرحلة النمو الجنيني، وتبين أنهن في المعدل العام يلعبن بنفس اللعب التي يلعب بها الصبية وبنفس طريقة لعبهم. ترى هل السبب هو أن ارتفاع مستوى هورمون التستوستيرون الموجود في أجسامهن قبل الولادة قد ترك أثرا دائما في أمخاذهن، مما أثر بالتالي في سلوكهن بعد الولادة؟ أم أن آباءهن وقد عرفوا حالة الاضطراب عندهم أثروا، بطريقة غير محسوسة، في خياراتهن؟ إذا صح التفسير الأول، وهو ما يعني أن البيولوجيا تحدد الاختيار،

التي يتخذها أطفال أعمارهم تتراوح بين سنتين ونصف السنة وثمانين سنوات في أثناء اللعب. وعلى الرغم من أن كلا الجنسين يلعب بجميع اللعب المتاحة في معمل هاينز بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، إلا أنها تؤكد ما يعرفه بالفعل غالبية الآباء (وكثيرون من الخالات والعلمات والأخوال والأعمام ومعلمي رياض الأطفال): فالأولاد كمجموعة يؤثرون سيارات السباق، وعربات إطفاء الحريق، بينما تستهوي البنات أكثر العرائس ولعب أدوات المطبخ.

ولكن إحدى مجموعات البنات تحدت التوقعات، وآثرت دائما لعب الصبية. إن لدى هذه المجموعة من صغار الفتيات

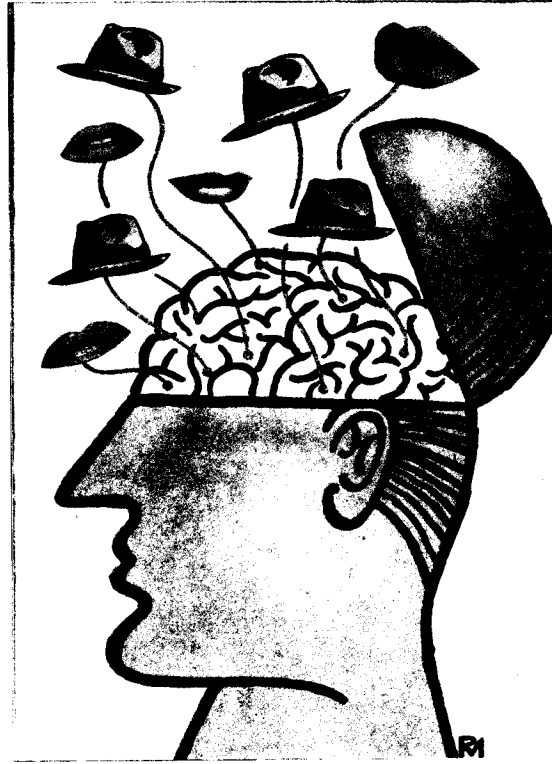
وتولت النساء أمور تنشئة الأطفال في المجتمع لأنه لم يكن متاحا لهن خيارات غير هذه. ويمضي أصحاب هذا الرأي في حججهم قائلين لا نكاد نلغي الاعتقاد بالفوارق بين الجنسين حتى يغدو العالم مكانا خنثويا أي موحدًا للجنسين، ومكافئًا بينهما على نحو كامل فيما عدا القليل من التفاصيل التشريحية.

بيد أن البيولوجيا لها أسلوبها العجيب في تنفيذ التوقعات. إذ بدلا من أن تختفي الدلائل على الفوارق الفطرية بين الجنسين نراها وقد بدأت تبرز للعيان من جديد. فقد أثبت الباحثون في مجال الطب أن أمراض القلب تصيب الرجال في أعمار أصغر من أعمار النساء، وأن استجابة النساء الفسيولوجية للإجهاد أكثر اعتدالا. واكتشف الباحثون فوارق عصبية غاية في الدقة بين الجنسين سواء في بنية المخ أو في طريقة الأداء. علاوة على هذا فقد اكتشف جيل آخر من الآباء أنه على الرغم من أنهم بذلوا قصارى جهدهم من أجل تدريب بناتهم على لعب كرة البيسبول وتعليم أبنائهم الحياكة، إلا أن البنات لا يلبثن أن يتجمعن حول عرائسهن للعب بها، بينما لا يزال الأبناء يتسلقون الأشجار. ولعل هذا يعني أن الطبيعة أخطر شأنًا من التنشئة.

وبلغ الأمر حدا انقلبت عنده شكوك أهل المهنة. إذ تقول جير ليفي أستاذة علم النفس بجامعة شيكاغو: «كنت مقتنعة وأنا أصغر سنا بأن مائة بالمائة من الفوارق بين الجنسين مرجعها إلى البيئة».

فإن هاينز تتسائل قائلة: «لماذا تتطور في تنشئتك بحيث تطلب اللعب بسيارة من أنواع الشاحنات؟».

وحتى وقت غير بعيد كان أي باحث معني بقضايا المستقبل المهني للأفراد يتردد في طرح مثل هذه الأسئلة، ولعلنا



نذكر ما كان يجرى إبان ثورة الحركة النسائية في السبعينيات حيث كان الحديث عن الفوارق الفطرية في السلوك بين الرجال والنساء يعتبر نهجا باليا بل ومن المحرمات، وكان يقال دفاعا عن هذا الرأي: أن الرجال هيمنوا على مجالات مثل العمارة والهندسة بسبب ضغوط اجتماعية وليس لأسباب هورمونية،

السلوك قد يقودنا إلى فهم غير مسبق للعقل.

وتبدو بعض الاكتشافات شديدة الغرابة، مثال ذلك أن الأيسر (أي الذين يكتبون ويبدأون حركاتهم باليد اليسرى) أكثر عددا في الرجال منهم في النساء، وهو



ما يعني هيمنة النصف الكروي الأيمن للمخ. وفي المقابل نجد أن عدد النساء اللاتي تتكافأ قوة السمع عندهن بالأذنين أكبر من عدد الرجال الذين يفضلون عادة الاستماع بالأذن اليمنى.

وثمة مفاجآت أخرى ستثير حتما جدلا واسعا. مثال ذلك أن الاختبارات النفسية تدعم دائما وأبدا فكرة مفادها أن النساء والرجال يدركون العالم من

غير أن طفلتها التي بدأت تتعلم المشي أطاحت بهذه الفكرة الخيالية: «كان عمر ابنتي ١٥ شهرا، وبدأت اجعلها ترتدي ملابس نوم لفتيات العشرينات. وحضر بعض الضيوف، ودخلت ابنتي الحجرة وإذا بها تدرك جيدا أنها تبدو مثيرة

للإعجاب، ودخلت وهي تخطو خطوات وثيدة في أناقة واختيال وقد طأطأت رأسها بينما تنظر بطرف عينيها إلى الحضور خاصة الرجال منهم إننى لم أر دلالاً كهذا في حياتي». وبعد دراسة عن المخ استغرقت عشرين عاما وصلت ليفي إلى اقتناع يوضحه قولها: «إنني على يقين من وجود فوارق في السلوك قائمة على أساس بيولوجي».

والآن وقد أصبحت هذه الإمكانية مقبولة، اتسع نطاق البحث في الفوارق بين الجنسين ليشمل كل فرع من فروع علم الحياة. ولقد فضح علماء الأنثروبولوجيا زيف دراسات مارجريت ميد بشأن إمكانية التباين إلى أقصى حد بين

أدوار الجنسين في «غينيا الجديدة». ويحاول علماء النفس حل التشابك المعقد في العلاقات بين الهرمونات والسلوك العدواني غير أن أكثر الاكتشافات جميعها إثارة، وإن لم يتم سبر أغوارها بعد، إنما يتمثل في استكشاف رائد لعالم صغير لا يتجاوز وزنه ١,٤ كجم: أعنى المخ البشري. والواقع أن بعض الباحثين يتنبأون بأن تأكيد الفوارق الفطرية في

تعارض التوصيلات أكثر منها إلى
تعارض المقاصد.

وغالبية الفوارق بين الجنسين، والتي
تم اكتشافها حتى الآن، لاتزال من
الناحية الإحصائية ضئيلة إلى حد كبير.
وتقول هاينز في هذا الصدد: «الملاحظ
حتى بالنسبة لأكبر الفوارق بين الجنسين
في مجال الوظيفة المعرفية أنها ليست
ضخمة بقدر الفارق في الطول بين الذكر
والأنثى. فنحن لانزال نجد الكثير من

حولهم بطرق مختلفة على نحو دقيق
للغاية. (الذكور يتفوقون عند إدارة
الموضوعات ذات الأبعاد الثلاثة في
رؤوسهم. وتثبت الإنثا أنهن الأفضل
عند قراءة انفعالات الناس من خلال
صورهم الفوتوغرافية. ويتزايد عدد
العلماء الذين يؤمنون بأن التناقضات
تعكس فوارق وظيفية في المخ عند الرجال
والنساء. وإذا صح هذا فإن بعض مظاهر
سوء الفهم بين الجنسين قد تعود إلى



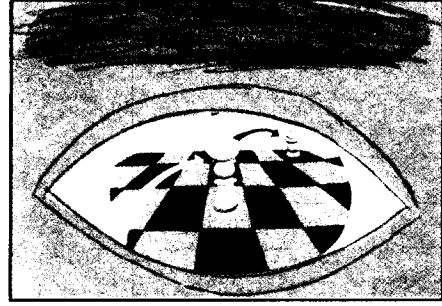
الانفعالات الحدس الأنثوي: ربما يكون هناك شيء خاص به

هل تملك النساء حقاً قدرة على قراءة المعاني
والدوافع الخفية لدى الآخرين؟
إنهن إلى حد ما يملكن هذه القدرة. فإذا ما
عرضنا صوراً لممثلين يعبرون عن انفعالات
مختلفة فإن النساء يتفوقن على الرجال في
تحديد الانفعال الصحيح. ويتجاوزن الرجال
أيضاً في تحديد المحتوى العاطفي للمحادثات
المسجلة على أشرطة والتي جرى تحريف
كلماتها. ولعل هذه القدرة ترجع إلى تأكيد
المجتمع على تنشئة الفتيات لتكون ذوات
حساسية خاصة. ولكن بعض الباحثين يرون
أنها نمت بحيث هيات للنساء مهارة أكبر في
تأويل إشارات الأطفال الذين لا يزالون دون
سن الكلام.

تبلد الشعور عند الذكور: إنها بقايا ثقافية موروثة

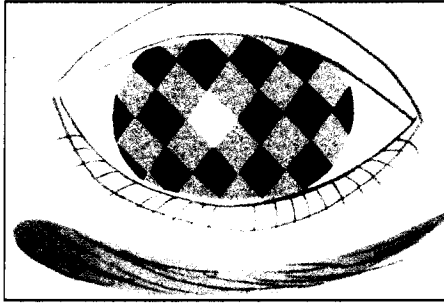
يقول رونالد ليفانت أستاذ علم النفس بجامعة
هارفارد «إذا كان الرجال يبدون أقل مهارة في
فك شفرة الانفعالات فإن السبب هو أنهم لم
يتدربوا على ذلك على نحو كاف، ويؤكد بعض
علماء الأنثروبولوجيا أن هذا الجرح النفسي إنما
أصابهم لفصل الأبناء عن الأمهات وإعدادهم
لشئون الحرب. ويقول ليفانت إن كثيرين من
الرجال يمكنهم التعرف على انفعالاته فقط في

صورة تهويم عضوي أو احتباس في الحنجرة - ويؤكد أن
هذه الحالة يمكن عكس اتجاهها عن طريق التدريب.



لادراك

ربما هذه المهنة التي احترفتها النساء في عصور ما قبل التاريخ هي التي هيات لهن هذه الميزة المقابلة. وقد أثبتت النساء في التجارب التي أجريت عليهن أنهن أفضل من الرجال بنسبة ٧٠ بالمائة فيما يتعلق بتذكر مواقع الأشياء الموجودة فوق الطاولة - وربما يعكس هذا أثر الضغوط عبر مراحل التطور على أجيال النساء اللاتي كن يطوفن بحثاً عن طعامهن. ذلك أن من يطوف بحثاً عن الطعام لابد وأن يتذكر أنماطاً معقدة تشكلت من عناصر تبدو في ظاهرها غير مترابطة.



يعرف أين جواربه؟
أته لمشهد تقليدي للشقاق بين الزوجين في الطريق: الزوج - ترى هل غبرت طريقي في الاتجاه الصحيح؟ تدير الزوجة الخريطة في عصبية وتقول:

- أنا لا أعرف عن يقين أين نحن الآن. ليس واضحاً ما إذا كان الرجال يقرأون الخرائط أفضل من النساء ولكنهم يتفوقون عليهن بالفعل عند التفكير في ثلاثة أبعاد.

وقد يرجع هذا كله للضغوط التي تعرض لها الرجل خلال أحقاب تطورية قديمة تتعلق بالصيد حين كان لزاماً عليه أن يعرف اتجاهه بعيداً وهو يتعقب الطريدة.

الجنسين ينشآن أصلاً عن نوعين متميزين من الكروموزومات. فالنساء يحملن جرعة مضاعفة من الكروموزوم X الضخم، بينما يحمل الرجال كروموزوماً واحداً من النوع X وكروموزوماً آخر من النوع Y القصير الحافل بالأجذال. وقد أفاد العلماء البريطانيون في تقريرهم في عام ١٩٩٠ أنهم استطاعوا تحديد مورثة «جينة» مفردة على الكروموزوم Y والمسئولة عن تحديد الذكورة. وقالوا إن هذه المورثة أو الجينة الرئيسية تتحول إلى عائل لجينات أخرى لها مهمة مركبة تتمثل في تحويل

مظاهر التداخل». هذا وإلا عجزت النساء تماماً عن قراءة الخرائط، ولكان الرجال أيسر على طول الخط. وأن هذا النوع من المرونة في صفوف الجنسين إنما يكشف عن مدى تعقد لغز الجنس في واقع الأمر، والذي يستلزم تضافر الدراسات البيولوجية والاجتماعية والثقافية.

ومن دواعي السخرية أن الباحثين ليسوا على يقين تام من الكيفية، والسبب، في أن البشر يتناسلون أولاً وقبل كل شيء في صورة جنسين. (لماذا لا يكونون جنساً واحداً أو حتى ثلاثة كما هو الحال في بعض الأنواع؟) إن ماهو واضح هو أن

يفرزون هورمون التستوستيرون يفقرون عادة إلى الشهوة الجنسية). ويظن الباحثون أن زيادة إفراز هورمون التستوستيرون قبل الولادة يساعد النصف الكروي الأيمن للمخ على الهيمنة على المخ مما يجعل صاحبه أيسر. وحيث إن مستوى التستوستيرون لدى الأولاد أعلى منه عند البنات، فإن هذا يفسر لنا لماذا تزيد نسبة الأيأسر في الصبية.

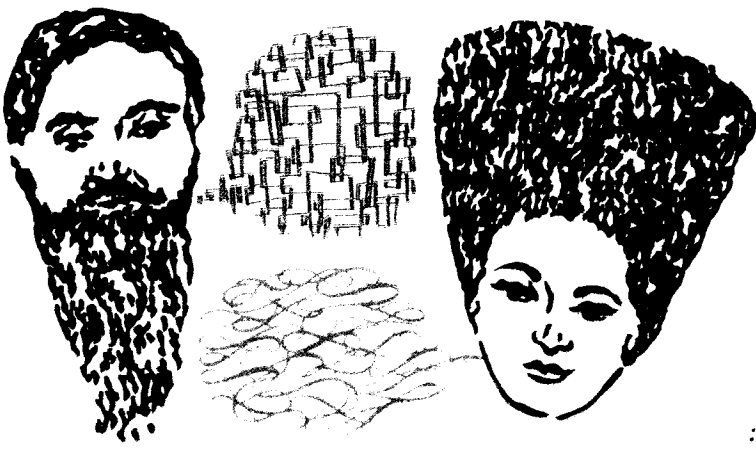
وهناك أفضليات مقترنة بنوع الجنس شديدة الدقة أمكن تسجيلها بعد الولادة بـ ٥٢ ساعة فقط. ففي دراسات عن ٧٢ رضيعا حديثي الولادة، أجرتها مارثا ماكلينتوك أستاذة علم النفس بجامعة شيكاغو وطلابها، تبين أن منعكس إثارة أصبع القدم اليسرى كان أقوى عند ٦٠ بالمائة من الذكور، بينما تؤثر لدى جميع الإناث القدم اليمنى، غير أنه وباستثناء هذه الأفعال المنعكسة لليدين والساقين والقدمين، لم يجد الفريق أي اختلافات أخرى في استجابات الأطفال للرضع.

ومن الأماكن التي تحظى باهتمام واضح لدراسة الفوارق بين الجنسين منطقة ما تحت المهاد أو الهايبوثالاموس، وهي عضو صغير يفيض حيوية ممتد فوق جذع المخ. وإذا ما استثير هذا العضو بقدر كاف يستولي على المرء شعور بالغضب أو العطش أو الجوع أو الشهوة. وتوجد لدى الحيوانات منطقة عند مقدم العضو تتحكم في الوظيفة الجنسية وهي عند ذكور الحيوانات أكبر قليلا منها عند الإناث، بيد أن حجمها

ليس ثابتا دائما بالضرورة. فثمة دراسات عن الأسماك في المياه الاستوائية أجراها عالم الأعصاب رسل فرنالد بجامعة ستانفورد، تكشف عن وجود خلايا معينة في هذه المنطقة الدقيقة من المخ، وأنها تتضخم بصورة واضحة عند الذكر إذا ما كانت له القيادة والهيمنة على سرب الأسماك وتبين أن هذا الباشا أو الوالي السمكي إذا ما ساء حظه وفقد سلطانه على حريمه ليتولى السلطة ذكر آخر فإن هذه الخلايا تنكمش.

ويظن باحثون كثيرون أن الأفضليات الجنسية تخضع عند البشر أيضا لسيطرة ما تحت المهاد أو الهايبوثالاموس. وقد أعلن في الصيف الماضي لوفاي من معهد سولك Salk للدراسات البيولوجية في سان دييجو، واستنادا إلى دراسات تشريحية عن ٤١ مخا بشريا، أنه اكتشف في منطقة ما تحت المهاد منطقة يكون حجمها في المتوسط لدى الرجال ذوي الجنسية الغيرية ضعف حجمها لدى النساء أو الرجال ذوي الجنسية المثلية. وتدعم اكتشافات لوفاي الفكرة القائلة إن تباين مستويات الهرمونات خلال فترة الحمل ربما تطبع بطريقة ثابتة لا تقبل التغيير مخ الجنين وهو في مرحلة نشوئه في هذا الاتجاه الشهواني أو ذاك.

وأن هذه التقلبات التي تسبق الولادة ربما تكون هي المسؤولة أيضا عن توجيه الصبية نحو سلوكيات أصعب مراسا من سلوكيات الفتيات. وها هو جوني راينيس مدير معهد كينزري «لبحوث الغريزة



اللغة:

تستخدم المرأة عقلها حتى عند اختيار الكلمات تتجمع مراكز اللغة الرئيسية في المخ عند الجنسين في النصف الكروي الأيسر من الدماغ. غير أن ثمة دراسات مبدئية تكشف عن أن النساء يستخدمن كلا الجانبين من المخ حتى عند أداء أبسط المهام اللفظية مثل تهجي الكلمات. ونتيجة لذلك فإن تقدير المرأة للحديث اليومي تدعمه، على ما يبدو، المدخلات من مناطق المخ المختلفة بما في ذلك تلك التي تسيطر على الأبصار والمشاعر. وأن ما تتحلى به المرأة من قدرة أكبر على الوصول إلى عمق المخ وتخيلاته ربما يفسر لنا لماذا تبدأ البنات غالباً الكلام قبل الأولاد، ويكن أقدر على التعبير وهن أطفال مع التمتع بحصيلة أكبر من الكلمات.

إذا كان جوني لا يستطيع القراءة فهل ذلك لأنه صبي؟ إذا زرت أحد فصول علاج أمراض القراءة في الولايات المتحدة ستجد أن عدد الأولاد أكبر من عدد البنات بنسبة ٣ إلى ١. وسوف تلاحظ أن عدد الأولاد الذين يعانون من داء الفاقة في الكلام أربعة أمثال البنات. ورأى باحثون كثيرون في هذه النسب غير المتكافئة وغيرها دليلاً على أن الذكور، في المتوسط، أقل طلاقة من الإناث في اللغة. غير أن التفاوت قد يعكس أيضاً الجهد الأقل من جانب المعلمين والآباء للكشف عن الفتيات اللاتي يعانين من عجز في القراءة. وأما كان الأمر فالملاحظ أن الأولاد الأمريكيين غالباً ما يلحقون بأقرانهم من الإناث في المدارس المتوسطة. والملاحظ أيضاً خلال السنوات القليلة الماضية أن الأولاد بدأوا يتفوقون على البنات في الجزء الخاص بالقدرات اللفظية في اختبار القدرات للالتحاق بالجامعة.

كانوا أكثر قتالية من الجميع. وثبت أن الأولاد الذين تأثروا بهذا الهرمون كانوا أكثر عدوانية بوضوح من اخوتهم الذين لم يتعرضوا لهذا التأثير، كما أن الفتيات اللاتي تعرضن للعقار كانوا أكثر مشاكسة من إخواتهن اللاتي لم يتعرضن لتأثير العقار. غير أن رابينش لم يستطع تحديد ما إذا كانت هذه العدوانية الطفولية سوف تتحول إلى طموح أو روح تنافسية أكبر في سن الرشد.

وإذا كانت غالبية الفوارق بين الجنسين التي تم الكشف عنها حتى الآن تدخل تحت سيطرة ما تحت المهاد في المخ إلا أن الباحثين بدأوا يلحظون كذلك

الجنسية والتمايز التشريحي الجنسي والتناسل» في جامعة إنديانا قد أجرى دراسة رائدة على تسعة أزواج من الإخوة الذكور و١٧ زوجاً من الأخوات تتراوح أعمارهم ما بين ٦ و١٨ عاماً. وكشفت دراسته عن التفاعل بين الهرمونات والسلوك العدواني. ولوحظ أن صغار الذكور في مجموعهم أبدوا استجابات تتصف بالنزوع إلى القتال أكثر مما فعلت الإناث خلال اختبار متعدد الخيارات يتعين عليهم فيه تخيل استجاباتهم لمواقف «مؤترة». ولكن الأشقاء الذين تعرضوا وهم في الأرحام لهورمونات اصطناعية ضد سقوط الجنين، والتي تشبه في تكوينها هورمون التستوستيرون، فقد

مظاهر التعارض في أجزاء أخرى من المخ. فقد ثار جدال على مدى السنوات التسع الأخيرة بين علماء الأعصاب لمعرفة ما إذا كان الجسم الجاسي Corpus Callosum (وهو حزمة كثيفة من الأعصاب تسمح للنصف الأيمن من المخ بالاتصال بالنصف الأيسر) أكبر لدى النساء منه عند الرجال. فإذا كان كذلك، وإذا كان الحجم يتوافق مع الوظيفة، إذن فكلما كان الممر الواصل بين النصفين الكرويين للدماغ أكبر كان هذا أدعى إلى تفسير الظواهر المألوفة التي يصعب تفسيرها، مثل الحدس عند النساء والذي يفترض أنه يهيئ له قدرة أكبر على تفسير الغوامض العاطفية.

ولكن كان عسيرا إثبات هذه التخمينات بشأن الجسم الجاسي نظرا لأن حجم بنيتي يتباين تبائنا كبيرا تبعا للعمر والصحة. والملاحظ أن الدراسات التشريحية للجثث لا تفيد كثيرا هنا، نظرا لأن نسيج المخ تعثره تغيرات كبيرة بعد الموت بساعات، لذا قرر كل من لورا ألين استاذه تشريح الأعصاب وروجر جورسكي أستاذ علم أعصاب الغدد الصماء أن يحاولوا التغلب على بعض هذه المشكلات عن طريق الحصول على صور أشعة مقطعية لأشخاص أحياء أصحاء. ودرسا ١٤٦ حالة، ونشرا دراستهما في أبريل/نيسان ١٩٩٢. وقد أكدا في هذه الدراسة أن أجزاء من الجسم الجاسي كانت أكثر اتساعا عند النساء منها عند الرجال بنسبة ٢٣٪. وقاسا أيضا روابط

أكثر سمكا تصل ما بين النصفين الكرويين للدماغ موجودة في أجزاء أخرى من مخ المرأة.

وتشجع باحثون كثيرون بسبب اكتشاف هذه الفوارق البنيوية، وبدأوا في البحث كذلك عن التقسيم الثنائي للوظيفة العصبية. ففي مدرسة يومان جراي الطبية في «ونستون - سالم» في شمال كارولينا حدد سيسيل تايلور أن الرجال والنساء يستخدمون أجزاء من أمخاخهم متباينة تماما عندما نسأل كلا منهم تهجي الكلمات. واكتشف عالم الأعصاب من خلال رصده للزيادة في دفق الدم أن النساء يستخدمن جانبي الرأس عند التهجي بينما يستخدم الرجال أساسا الجانب الأيسر من الدماغ، ونظرا لأن المساحة المنشّطة في الجانب الأيمن مستخدمة لفهم العواطف فإن النساء على ما يبدو يستخدمن نطاقا أوسع من الخبرة في أداء مهمتهن. ومن المسائل المثيرة للاهتمام أن هذه النتيجة حدثت فقط عند التهجي ولم تحدث خلال اختبار الذاكرة.

ويذهب ظن الباحثين إلى أن الزيادة الكبيرة في الاتصال بين جانبي الدماغ ربما تضعف أداء المرأة لبعض المهام البصرية - المكانية عالية التخصص. مثال ذلك أن القدرة على تحديد الاتجاهات فوق خريطة دون الحاجة عمليا إلى تدويرها في الذهن تبدو أقوى لدى الأفراد الذين تُقصر أمخاخهم هذه العملية في النصف الكروي الأيمن، والملاحظ على ما يبدو أن

النساء.

ولكن كيف حدث هذا؟ لا أحد حتى الآن من علماء دراسة الجنسين استطاع أن يحدد ما إذا كانت الطبيعة أم التنشئة

أي تداخل بين الجانبين يصرف المخ عن أداء وظيفته. ولقد أوضحت دراسات عديدة أن هذه المهارة في إدارة الموضوع داخل الذهن متمركزة على نحو مكثف في أمخاخ الرجال أكثر مما هي في أمخاخ

هل الجنس ضروري حقاً؟

وبدأ هذا الحل على الرغم من استمرار اعتماد البكتيريا على التكاثر اللاجنسي لزيادة أعدادها.

على أن الجنس عند الحيوانات كان ابتكاراً أحدث كثيراً. ويعتقد لين مارجوليس بجامعة ماساشوستس أن الجذور التطورية لخلبتي البويضة والحيوان المنوي يمكن تعقب تاريخها إلى مجموعة من الكائنات الحية المعروفة باسم البروتستنا Protist. وهي كائنات عضوية وحيدة الخلية أو لاخلوية شأن البكتيريا. وظهرت هذه المتعضيات لأول مرة منذ ١,٥ بليون سنة (ومن بين الأمثلة الحديثة لهذه المتعضيات البروتوزوا، ونبات عشب البحر العملاق، وطفيليات الملاريا). ويذهب مارجوليس في تخمينته إلى الظن بأنه حدث خلال فترات المجاعات أن اضطر أحد كائنات البروتستنا إلى التهام الآخر، وحدث أيضاً أن هذه الوجودية الوحشية لم يتم هضمها تماماً وتلاحمت نواة الفريسة مع نواة المفترس. وعن طريق اتحاد القوتين أضحى الخليقتان المتلاحمتان أقدر على البقاء في المحن. وتطرا لنجاحها في البقاء فإن نزعها إلى الاتحاد انتقل إلى نسلها واستمر معه.

ويمكن من هذه الزاوية النظر إلى النزوع الجنسي البشري على أنه أكثر من مجرد حدث عرضي رائع تولد عن نوع من الخطيئة الأصلية وقعت بين البروتوزوا، بيد أن غالبية علماء بيولوجيا السكان يعتقدون أن الجنس تدعم واستقر على مدى الزمان التطوري لأنه على نحو من الأنحاء عزز إمكانيات البقاء. ويقولون إن مزج جينات الأبوين وتلاؤمها مع بعضها البعض يؤدي إلى ظهور متعضيات لها مكنائزمات جديدة لتوليد نسل ذي تكوين جيني مختلف ومن ثم زيادة الميزات التي تمكن ذرياتها من

الطيور تمارسه. والنحل يمارسه. ولكن نبات «هنداء البرية» لا يمارسه. وإن الانتشار المذهل لهذه الأعشاب الساحرة يؤكد حقيقة بيولوجية لم تحظ بقدر كبير من الاهتمام. فالجنس، على نقيص الخبرة البشرية، ليس حيويًا للتكاثر. ويصرح جون تسوي أستاذ الأنتروبولوجيا بجامعة كاليفورنيا في سانتا باربارا مؤكداً «أن الأمر على العكس تماماً إذا ما نظرنا إليه نظرة المهندس، إذ يبدو التكاثر عن طريق الجنس نوعاً من الجنون. إنه هنا أشبه بمن يحاول تركيب سيارة عن طريق انتقاء جزأين بطريقة عشوائية من طرازين قديمين وتركيبهما معاً ليصنع طرازاً جديداً. وغالباً ما تفرز الكائنات اللاجنسية، في أثناء العملية، أجيالاً كثيرة من الكائنات الخلوية المتوالدة لاجنسياً وبذا تحقق تفوقاً واضحاً في لعبة الأعداد للتطور. وما هنا يكمن اللغز: إذا كان الجنس ليس بالوسيلة الفعالة إلى هذا الحد من أجل التكاثر.. إذن ماهو سبب انتشاره؟

نشأ الجنس في الغالب الأعم نشأته الأولى منذ حوالي ٣,٥ بليون سنة مضت في صورة آلية لإصلاح الحامض DNA في كائنات البكتيريا. إذ نظراً لأن الأرض قديماً كانت مكاناً عنيفاً مضطرباً، فإن جينات هذه الكائنات وحيدة الخلية كثيراً ما كانت تتعرض للدمار بسبب الحرارة الشديدة والأشعة فوق البنفسجية. وثبت بذلك أن التزاوج - وهو العملية الدقيقة التي يصعب خلالها الكائن البكتيري مادة مورثة «جينية» في الكائن البكتيري الآخر - هو الحل الإبداعي، وإن بدأ بطيئاً، لهذه المشكلة.

اتجاه بعض مظاهر التباين من خلال تعديل العوامل الطبيعية. إذ إن الروابط العصبية الموجودة في منطقة قرن آمون Hippo Campus وهي منطقة في المخ يقترن نشاطها بالعلاقات المكانية

هي الأخطر شأنًا في هذا الصدد. وفي هذا تقول جانيس جوراسكا أستاذة علم النفس الحيوي بجامعة إلينوي «لاشيء متعادل حتى في البداية». غير أن جوراسكا أوضحت أن بالإمكان عكس

الجنسية من جانب من يحب: إذ يكفي أن يتخيل شريكته في فراش مع رجل آخر حتى تزيد ضربات قلبه بمعدل خمس ضربات في الدقيقة. ويقول باص: «وبعادل هذا شرب ثلاثة فناجين قهوة دفعة واحدة. ولكن لماذا؟ يفسر لنا باص ذلك بقوله إخصاب البويضة البشرية يتم باطنيا وبذلك لا يكون الرجل على يقين من أن الوليد الذي وضعته شريكته من صلبه حقا. ومن ناحية أخرى فنظرا لأن النساء يقضين زمتا طويلا ويبدلن طاقة كبيرة في الحمل والرضاعة والرعاية فإن استجابتهن لخطر الخيانة العاطفية تكون أقوى وأشد. إن أخشى ما تخشاه المرأة هو أن تفقد العهد طويل الأمد والمساندة من شريك حياتها.

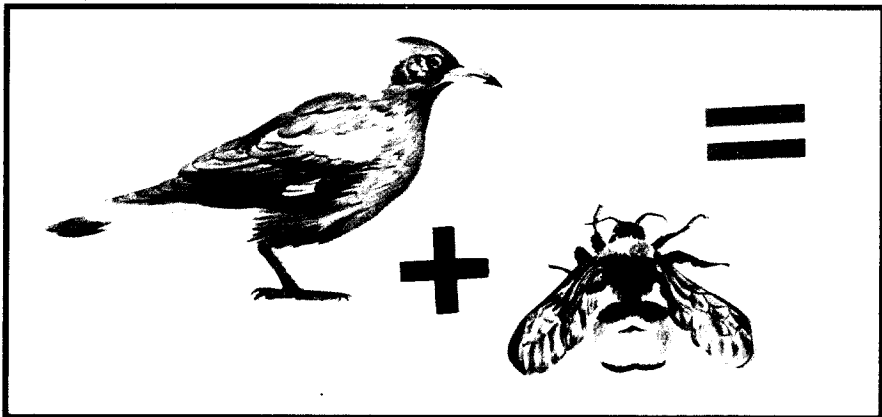
أو لنقل بعبارة أخرى إن الحرب المشهورة بين الجنسين ليست اختلافًا من نسج الخيال، بل هي نبت طبيعي للتاريخ التطوري للجنس — منذ تلك اللحظة السحرية التي وقعت منذ أزمان سحيقة جدا عندما تضايف أسلافنا من الكائنات وحيدة الخلية وتلاحموا في عناق أبدى.

مادلين ناش

الإفادة بالوسط الجديد الملائم في بيئة متغيرة دائما. وهكذا تكون لدى الذرية، وبفضل تباينها، فرصة أفضل للبقاء بعد هجمات البكتريا والجراثيم الدقيقة الأخرى التي سرعان ما تنشأ لديها حيل للمراوغة ضد دفاعات عوائلها.

وأيا كان مصدر ظهور الجنس فمن الواضح أنه المسؤول عن كثير من أبرز القسمات المميزة للعالم من حولنا ابتداء من الصور الإنشائية لإنثا البشر إلى زيول الطاووس الوضيئة الجذابة، وإلى عرف الأسد ذي المهابة. واستلزم ظهور الجنس تطور خصائص ثانوية متعددة هيأت لذكور وأنثا كل نوع إمكانية التعرف على بعضها البعض والاتصال فيما بينها.

ويتجاوز تأثير الجنس كثيرا حدود السمات العضوية. مثال ذلك تلك الحقيقة المؤكدة واللازمة وهي أن البويضات عند المرأة والحيوان المنوي عند الرجل حفزا نمو استراتيجيات تناسلية متميزة ومتصارعة في الغالب. فقد اكتشف عالم النفس دافيد باص بجامعة ميتشجان، أن الرجال والنساء يستجيبون بطرق مختلفة تماما عن بعضهم البعض إزاء مسائل الخيانة الزوجية. فالرجال أكثر انزعاجا وقلقا بسبب الخيانة



مرضاه مستخدما اختبارا تحريريا، وفي أثناء جراحة للأعصاب أجراها على أساس تخدير موضعي، سألهم أن يذكروا بصوت عال أسماء سلسلة من الأشياء يرونها في مسار ثابت ومطرّد من الصور الفوتوغرافية باللونين الأسود والأبيض. وكان بين الحين والآخر يمس أجزاء مختلفة من المخ بواسطة قطب كهربائي «إلكتروني» بحيث يعوق مؤقتا نشاط تلك المنطقة، (وهذه عملية لا تسبب ألما لأن المخ لا يحس بالألم). وأثبتت الجراح الأوقات التي يخطئ فيها المرضى، وبذا استطاع أن يحدد أي المواقع لازمة لذكر الأسماء.

وظهرت فوارق عديدة ومعقدة بين الجنسين، فالرجال ذوو معامل الذكاء الأدنى كانت مواقع مهاراتهم اللغوية موجودة غالبا ناحية مؤخر المخ. ووجد أن القدرة على تسمية الأشياء عند النساء، بغض النظر عن معامل ذكائهن مقصورة على الفص الجبهي. ولعل هذا التباين يساعد على معرفة السبب في أن داء السكتة الدماغية الذي يصيب مؤخر المخ يعاني منه الرجال أكثر كثيرا من النساء.

ومن الأمور المثيرة للاهتمام أن الفوارق بين الجنسين أقل أهمية بدرجة كبيرة لدى ذوي معامل الذكاء اللفظي المرتفع. ذلك أن مهاراتهم اللغوية نمت وتطورت في جزء أقرب إلى الوسط في المخ. ولكن لم يحدث أن تطابق نموذجان أبدا، وفي هذا يقول أوجمان: «وكان هذا هو أهم شيء عندي. إذ بدلا من أن نجد

والذاكرة هي أقل عند إناث الفئران منها عند الذكور. ولكن جوراسكا لاحظت عندما «أغنت» أقفاص الإناث بعدد من صغار الحيوانات المثيرة لنشاط الهورمونات أن هذه الروابط العصبية زادت عند الإناث. وتقول الباحثة «يقينا أن الهورمونات تؤثر على الأشياء، فإن من الجنون إنكار ذلك. ولكننا لم نجد ما يكشف لنا الطريق الذي قد تأخذه الفوارق الجنسية إذا ما غيرنا البيئة تغييرا كاملا» وتضيف جوراسكا قائلة: «لكن بالنسبة للبشر فإن الإثراء التعليمي قد يدعم قدرة المرأة على العمل في أبعاد ثلاثة وقدرة الرجل على تفسير العواطف. إن لا شيء جامد بالنسبة لمخ الإنسان بحيث نقول إن اختلاف طريقة أداء الأشياء لا يمكن أن تسبب له تغييرا كبيرا.

إننا لا نجد ذلك التفاعل المركب بين الطبيعة والتنشئة أكثر وضوحا في أي مكان مما هو في القدرات الإنسانية الفريدة على الكلام والقراءة. إن لا أحد يولد عارفا الفرنسية على سبيل المثال، وإنما يجب تعلمها، مما يعني أن المخ في حالة تغير دائم. ومع هذا فإن مهارات اللغة مرتبطة بمراكز محددة في النصفين الكرويين للمخ. وقد أجرى جراح الأعصاب جورج أوجمان بجامعة واشنطن سلسلة من التجارب المهمة أسفرت عن مجموعة من الخرائط التفصيلية لمراكز اللغة المستقلة في مخ الإنسان.

أولا، اختبر أوجمان الذكاء اللفظي عند

كيف تفعلها الأنواع الأخرى

يظن البشر أن لا شيء طبيعي أكثر من السعي المتبادل من جانب الذكور والإناث وراء دافع الخصوبة والتكاثر. غير أن الطبيعة لها أكثر من سبيل. مثال ذلك أن ليس جميع أنواع الكائنات تنقسم إلى جنسين، بل وإذا انقسمت إلى جنسين فليس بالضرورة أن يتسق سلوكها ونشاطها مع مفاهيم البشر عن آداب المجتمع. وفيما يلي بعض حالات غريبة في هذا الصدد:

السلحفاة

الذكور في الجزء الأكبر من الزواحف تتكون واقعيًا في مناطق الظل. مثال ذلك أن جنس السلحفاة لا تحدده كروموزومات الجنس بل تحدده درجة الحرارة التي يتم فيها احتضان البيض. إذ يلاحظ أن البيض الذي يفرخ إناثًا هو ماتم احتضانه في أعشاش موجودة في مناطق مشمسة دافئة وساخنة، أما البيض الذي يجري احتضانه في أماكن ظليلة قد تصل إلى ٥ درجات مئوية أو أبرد من ذلك فإنه يفرخ ذكورا.



السحالي

لا يوجد شيء اسمه معركة الجنسين بين بعض أنواع هذه السحالي. فجميعها إناث وتتكاثر من خلال عملية تعرف باسم التوالد العذري حيث تنتج بيضا يفرخ دون حتى إخصاب. ولكن لأنها تطورت عن سحالي نتجت عن جنسين فإن أزواج هذه الكائنات أحادية الجنس سوف تلتف حول نفسها في دورات تحاكي الذكور، ويعتلي أحدها الآخر. ويبدو أن هذا الأسلوب يحفز على إنتاج عدد أكبر من البيض.



طيور اليقنة

تسيطر الإناث عادة على الوكر المقام عند الشاطئ وفي المستنقعات وفي حقول الأرز حيث يكثر هذا النوع من الطيور ذات الأرجل الطويلة والتي تحجل على الأرض. والإناث بوجه عام أكبر حجما من الذكور التي تنوء بعبء بناء العش واحتضان البيض وتربية الفراخ. وواقع الحال بالنسبة لبعض أنواع هذه الطيور أن الأنثى، ذات الأزواج العديدين، تنبذ عادة ذكورها المعنيين بشئون البيت وتبحث عن ذكور آخرين من حولها لعلاقة جنسية.



السماك البلطي

ينقسم هذا النوع من السمك إلى ثلاثة أجناس: ذكور ناصعة اللون النابض بالذكورة وإناث باهتة اللون، وذكور متوسطة اللون وتشبه الأنثى شكلا وسلوكا. ولا يضم سرب السمك غير عدد قليل جدا من الذكور النشطة جنسيا. ولكن في اللحظة التي يموت فيها الذكر قائد السرب تكون الفرصة سنحت ليطهر أحد الذكور الطموحة ذات اللون المتوسط ويلاحظ هنا أن مخه يفرز في هذه الحالة هرمونات جنسية تؤدي إلى نضوج لون حراشفه ويغدو مشاكسا. ولكنه يترد إلى حالة الشحوب والعنة إذا ما تحداه ذكر آخر يحمل صفات ذكورة أكثر منه.



٣٠٠ في علم الفوارق بين الجنسين

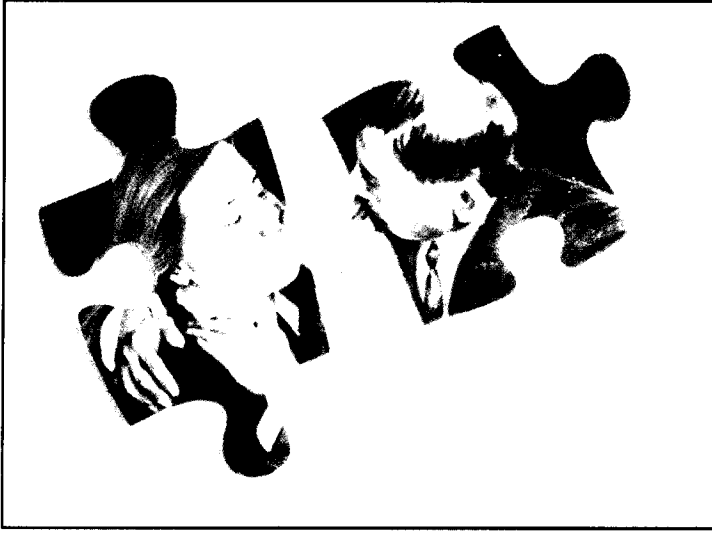
المتعلق بالفوارق بين الجنسين إنما طرحه للنقاش ذلك الابتكار البشري الفريد: ألا وهو التكنولوجيا. فلم تعد الشجاعة الفائقة في المجال العسكري رهنا بالتفوق العضلي أو تفجر إفرات هورمونية تهيب الجسم للنزال والتلاحم البدني. أما عن الاستكشافات، فلعل النساء - نظرا لنقص وزن أجسامهن وقلّة استهلاكهن للأوكسجين - أفضل رواد فضاء طبيعيين.

ولكن لنفترض أن أسوأ السيناريوهات من وجهة النظر النسائية بات صحيحا، وأن الذكور هم الأفضل حقيقة، من حيث متوسط النجاح في أداء مهام معينة في الرياضيات. إذا وجدت في هذا مايغريك بدفع القنات بعيدا إلى ساحة الاقتصاد المنزلي فإنك قد تضطر إلى تصحيح إحصائياتك عن «المتوسطات». فمثلما أن بعض النساء أطول وأقوى من بعض الرجال، فإن بعضهن أيضا أسرع من الرجال في علم الجبر النظري. والجدير بالذكر أن كثيرين من الرواد في مجال دراسة البلوريات بأشعة أكس - وهي دراسة تشتمل على رؤية بصرية ثلاثية الأبعاد مع جرعات رياضية مكثفة - هم من النساء. ونذكر من هؤلاء روزالين فرانكلين، وقد كانت دراستها أساسية ولا غنى عنها لاكتشاف البنية الحلزونية للحامض النووي DNA.

وهناك المشكلة التي تلازم جميع الدراسات عن الفوارق «الفطرية» بين الجنسين: إمكانية أن تكون الفوارق الملحوظة في الحقيقة نتاج عوامل ثقافية أفضت إلى تباطؤ الإيقاع مثال ذلك أن التحصيل الأكاديمي للبنات، وكذا استعدادهن الظاهري ومشاعر اعتبار الذات كل هذا ينخفض فجأة عند سن البلوغ. وثمة شيء خاطيء تماما يحدث في الغالب في المدرسة المتوسطة لولا أن الطبيعة اختارت مايعوض الفتاة الذكية والمرأة الصامتة. ولعل جزءا من المشكلة يكمن في أن الذكور

لن تجد بين مجالات البحث العلمي المختلفة مجالا مثقلا بالهراء الفكري مثلما هي الحال في مجال دراسة الفوارق العقلية الفطرية بين الجنسين، فقد ذهب علماء البيولوجيا في القرن ١٩ إلى أن مخ المرأة صغير الحجم جدا بحيث لايتسع لعقل، وكبير الحجم ليفي بشئون المنزل الروتينية. وبعد أن تهاوت نظرية المخ الصغير (مع العلم بأن حجم مخ الفيل أكبر من مخ الإنسان) بدأ العلماء محاولة جديدة طويلة وغير مجدية لتحديد الأساس البيولوجي للتفوق الذكري في مختلف فحوص المخ والكروموزومات. وظل علماء البيولوجيا الاجتماعية إلى ما قبل الستينيات. يؤكدون أن الانتخاب الطبيعي الذي ظل فعالا على مدى حقبة ما قبل التاريخ البشري، التي عمل خلالها الإنسان بالصيد والتقاط الثمار، قد هيا الذكور باستعدادات للزعامة والاستكشاف. مثلما هيا الإناث لكي يربضن حول النار بصحبة أطفالهن.

بيد أن دراسات حديثة تفيد بأن هناك حقا بعض الفوارق. ولم لا؟ فالهورمونات عندنا مختلفة، وكذلك بعض أجزاء الجسم. ومن ثم يكون غريبا لو كانت أمخاخنا صورة لواحدية الجنس مائة في المائة. والسؤال الذي يطرح نفسه دائما هو: ما الذي تدل عليه هذه الفوارق بالنسبة لدوارنا الاجتماعية خاصة مايتعلق بتوزيع السلطة وتقسيم الفرص بين الجنسين؟ لا ننظر إلى حياة ما قبل التاريخ بحثا عن الإجابة. ولكن بعد أن قطع البشر أول ١٠٠ ألف سنة أو مايقرب من ذلك، ها نحن نجد القليلين منا اليوم يبحثون عن الرزق عن طريق اقتفاء آثار الحيوانات الضخمة أو استخراج جذور النباتات المستساعة من باطن الأرض. وأن القدر الأكبر من تراثنا الوراثي «الجيني»



نفعل إزاءها؟ ان تميز الأنثى في قراءة الانفعالات يمكن تفسيره بأنه يعني ان الملازم ابتعاد الذكور عن العمل في مجال الطب النفسي - او أنهم يحتاجون إلى تدريب أكثر من الإناث. وتميز الصبي في الرياضيات قد يستغله البعض لكي يقتصر عمل الإناث في مجال الأدب والشعر. او اتخاذ قرار بتعويض الفتيات عن طريق بذل جهد أكبر لتعليمهن الرياضيات. والواقع أن الأميركيين بالفعل يعوضون الصبية عن قصورهم الظاهري في المهارات اللغوية، وذلك عن طريق جعل المطالعة محور التعليم في المدرسة الابتدائية.

نحن حيوانات ثقافية، وهذه جميعها في نهاية الأمر قرارات ثقافية، وواقع الحال أن كل المناقشة بشأن الفوارق الفطرية بين الجنسين إنما حددت صيغتها وصورتها في الأساس عوامل ثقافية. وأيا كان تعريف العالم، في نهاية المطاف، لتلك الفوارق، إلا أن التنظيمات الثقافية البشرية هي التي تضخمها أو تقلل من حجمها؛ فلاختيار مسؤوليتنا وليس مسؤولية الجينات أو المورثات.

باربارا أهرنريش

وقد كانوا الجنس المهيمن لبضعة آلاف من السنين، لايزالون ينزعون إلى تفضيل الإناث اللاتي يمنحهم شعورا بالقوة والذكاء. حتى أن أي فتاة تجد في نفسها الذكاء والقدرة لحل معادلة من الدرجة الثانية فإن فطنتها تدفعها إلى الغضب من طرفها والتظاهر بأنها عاجزة عن الحل.

ويقوم المعلمون كذلك بدور ربما يفوق دور الطبيعة في التفرقة بين الجنسين، إذ توضح الدراسات أنهم ينزعون إلى إثارة الصبية عن طريق الإكثار من توجيه الأسئلة إليهم وتكليفهم بالواجبات، وقد اكتشف كل من ميرا ودافين سادكر استساذي التربية بالجامعة الأميركية أن البنات يكن أفضل أداء عندما يكون المعلمون أكثر حساسية تجاه الانحياز الجنسي، ويجمعون عن استخدام اللغة الدالة على عنصرية جنسية مثل استخدام كلمة «رجل» في الإشارة إلى الجنسين معا، كذلك فإن الصفوف الدراسية التي تضم بنين أو بنات فقط تعزز الأداء الأنثوي عن طريق القضاء على المحاباة واستنكار الذكور لتحصيل الإناث.

وإن نجاح مثل هذه الإصلاحات التربوية البسيطة إنما يؤكد القضية الاجتماعية الأساسية إذ مع افتراض وجود فوارق ذهنية فطرية بين الجنسين ماذا عسانا أن

هذه المواقع موجودة في مراكز متماثلة إلى حد مالدی الجميع إذا بها موجودة في مواقع مختلفة عن بعضها البعض اختلافا دقيقا.

ويذهب إلى افتراض أن مراكز اللغة متناثرة على نحو عشوائي في طول وعرض مراكز النصفين الكرويين للمخ، نظرا لأن المهارات نشأت وتطورت كذلك خلال الفترة الحديثة. وما لا يعرفه أحد على وجه اليقين هو مدى دقة ومرونة التوصيل بين مراكز المخ. فإلى أي حد وإلى أي مرحلة يمكن دفع تلك المرونة الفريدة التي يتميز بها المخ؟ وتفيد دراسات عديدة أن السنوات الأولى للمراهقة هي مفتاح اللغز، إذ الملاحظ أن الفتيات لهن نفس قدرات الصبية في مجال الرياضيات حتى سن الثانية عشرة، ثم تبدأ تظهر تدريجيا لدى الفتيات معالم الخوف من الرياضيات Math phobia وهذه هي السن التي يبدأ عندها الأولاد في التآلق واللاحاق بالبنات في مجال القراءة.

وتفيد أحد التقارير أن الفجوة بين الرجال والنساء بدأت تنكمش عمليا على الأقل بالنسبة لبعض المهارات الذهنية. وتقول جانيت هايد أستاذة علم النفس والدراسات الإنسانية بجامعة ويسكونسن في ماديسون إن متابعة المعلومات القيمة المستخلصة من اختبارات أكاديمية على مدى ٢٥ عاما كشفت أن مجمل الفوارق الجنسية فيما يتعلق بالمهارات اللفظية والرياضيات تناقصت بصورة ملحوظة بعد عام ١٩٧٤. وتقول هايد في هذا الصدد إن

أحد التفسيرات الممكنة هنا هي أن الأميركيين قد غيروا أنماط تنشئتهم الاجتماعية وتعليمهم على مدى العقود القليلة الماضية. وإنهم أصبحوا يعاملون الذكور والإناث معاملة متماثلة بصورة متزايدة.

وعلى الرغم من هذا لم تواكب النساء - بعد - الرجال في اختبار التدوير الذهني Mental rotation test وقد أثار إثبات هذه الفجوة انتباه عالمي النفس ايروين سيلفرمان وماريون إيلز بجامعة يورك في أونتاريو. وتساءلا عما إذا كانت هناك أي مهام مكانية تفوقت فيها النساء على الرجال. واستنتج العالمان - وقد نظرا إلى الأمر من زاوية تطور الإنسان - أنه في الوقت الذي نشأت وتطورت فيه لدى الرجال مهارات مكانية استجابة للضغوط التطورية للنجاح كصيادين، فربما كانت النساء بحاجة إلى أنماط أخرى من المهارات البصرية للتفوق باعتبارهن جامعات للطعام وباحثات عن الغذاء.

ولهذا وضع عالما النفس تصميمًا لاختبار نفسي يركز على قياس قدرة المرء على تمييز موضع الأشياء ثم تذكرها بعد ذلك في نمط عشوائي مركب. وفي سلسلة من الاختبارات أعطيا الطلاب المتطوعين مذكرة لدراسة رسم يحتوي على موضوعات لا رابط بينها، مثل فيل وجيتار وقط، بعد ذلك قدم سيلفرمان وإيلز للمفحوصين رسما آخر يشتمل على موضوعات إضافية وطلبا منهم شطب الموضوعات التي أضيفت ووضع دائرة حول الموضوعات التي تحركت من

موضعها. وبدا واضحا تماما تفوق النساء في تقديم إجابات صحيحة.

ولكن ما أثار العالمين النفسيين وجعلهما يسجلان ملاحظاتهما هو أن النساء حققن درجات أفضل كثيرا في اختبار التدوير الذهني وقتما كن خلال فترة الطمث. ويمكن القول تحديدا إنهن كن يحرنن تفوقا كبيرا ما بين ٥٠ بالمائة و١٠٠ بالمائة كلما كان هورمون الاستروجين في دمائهن عند أدنى مستوياته. وليس واضحا بعد سبب ذلك. على أن سيلفرمان وإيلز يحاولان استكشاف ما إذا كان يحدث لدى النساء أثر هورموني مماثل عند أدائهن لأي مهام بصرية أخرى أم لا.

والغريب حقا أن الرجال قد تكون لديهم استجابة هورمونية مماثلة حسبما يفيد بحث جديد ضمنته في تقريرها خلال شهر نوفمبر الماضي دورين كيمورا أستاذة علم النفس بجامعة ويسترن أونتاريو. إذ وجدت كيمورا في دراستها، التي شملت ١٢٨ شخصا بالغا، أن أداء الذكور لاختبارات تدوير الذهن يكون أفضل خلال فترة الربيع، وهو وقت انخفاض مستوى هورمون التستوستيرون لديهم، على عكس الحال في الخريف وقتما يكون المستوى عاليا. ويتعرض الرجال كذلك لدورة يومية عندما يكون هورمون التستوستيرون عند أدنى مستوياته حوالي الساعة الثامنة مساء ويصل إلى أعلى مستوى له حوالي الساعة الرابعة صباحا. وفي هذا الصدد

تقول جين راينيش من معهد كينزي: «إذا ما قال الناس إنه ليس بالإمكان الثقة بالنساء بسبب دورة الطمث الشهري، فإن ردي عليهم أن الرجال لهم دورة يومية، ولذلك أحرى بنا ألا نسمح لهم بالتفاوض لعقد معاهدات سلام إلا عند المساء فقط

وبعيدا عن دعم الأنماط الثابتة للتمييز بين الرجال والنساء أو لتحديد نوعية سلوك كل منهم نجد البحث في مجال الفوارق الجنسية الفطرية يركز فقط على قدرة الإنسان الرهيبة على التكيف. تقول راينيش: «التمايز الجنسي بين الذكر والأنثى هو في حقيقته عمل معقد. ولا ريب في أن الهورمونات لها تأثيرها ولكن ما علاقة هذا بواقع أنني أحب ارتداء شرائط قرمزية وأنت تحب ارتداء قفازات كرة البيسبول؟ قد يكون ثمة شيء، ما ولكننا لم نعرفه بعد»

وأكثر من هذا أن المفهوم الذي يمثله الفارق الفطري بات عرضة للتغيير. فالفوارق العضوية والكيميائية بين أمخاخ الجنسين قد تكون مطاوعة مرنة وعرضة للتغيير بسبب الخبرة. إذ من المؤكد أن حدثا ما أو عملا من أعمال التعلم يمكن أن يؤثر بصورة مباشرة على الكيمياء الحيوية وعلى الوظائف العضوية للمخ. وهكذا نجد في التحليل الأخير، أنه قد يكون من المستحيل علينا أن نقول أين تنتهي الطبيعة وأين تبدأ التنشئة بسبب التداخل الوثيق بينهما.

ماذا تصنع بترسانة نووية؟

كريستوف بلات

خالد الجبيلي

انتهت الحرب الباردة، وأصبح الاتحاد
السوفيتي السابق يعيش حالة من الفوضى.
وماثير قلق الغرب الآن هو مصير الأسلحة
النوية التي يمتلكها عدوه القديم.

عندما توصل جورج بوش وبوريس يلتسين إلى اتفاق في
واشنطن خلال الشهر الماضي يقضي بالتخلص من الصواريخ
المتعددة الرؤوس النووية الموجودة على أراضيها بحلول عام
٢٠٠٣، ظهرت بوضوح المسافة الكبيرة التي قطعتها القوتان
العظميان من حالة الصراع إلى التعاون. لقد أسفر انتهاء الحرب
الباردة عن تخفيض القوات التقليدية والنوية. إلا أنه في
الوقت الذي انحصر فيه الخوف من نشوب صراع بين الشرق
والغرب، أثار تفكك الاتحاد السوفيتي السابق من الناحية
السياسية والاجتماعية مخاوف جادة في الغرب، حول مصير
الأسلحة النووية المتبقية والبالغ عددها ٢٧ ألف سلاح نووي.

العنوان الأصلي للمقال: What do you do with a nuclear arsenal? New Scientist, 18 July 1992.



والتي كانت القوات المسلحة السوفيتية قد
دأبت على تكديسها طوال العقود الأربعة
من الحرب الباردة.

وثمة مصادر أربعة رئيسية تثير قلق
المحللين الإستراتيجيين الغربيين هي:
إمكانية حصول العديد من الدول
المستقلة حديثاً على أسلحة نووية، وعدم
تخزين الأسلحة النووية بشكل مأمون،
وإمكانية بيع الخبرات النووية
وتكنولوجيا الصواريخ والأسلحة التي
تعمل باليورانيوم أو البلوتونيوم إلى بلدان
خارج الاتحاد السوفيتي السابق، فضلاً
عن المخاطر البيئية التي تشكلها الصناعة
النووية العسكرية منها والمدنية.

وتقسم الأسلحة النووية عادة إلى
فئتين: إستراتيجية وتكتيكية. إذ يمكن
إطلاق الأسلحة الإستراتيجية عبر
مسافات طويلة «من وسط آسيا إلى
أميركا الشمالية أو بالعكس على سبيل
المثال». أما الأسلحة التكتيكية التي تدعى
أيضاً الأسلحة النووية التعبوية، فهي
ذات مدى أقصر، وتستخدم بصورة
أساسية في المعارك التي تخاض مع قوات
غير نووية.

وتتمركز الأسلحة الإستراتيجية
النووية في كل من روسيا وبيلو روسيا،
وأوكرانيا، وكازاخستان، بالإضافة إلى
١٠٤٢ صاروخاً باليستياً عابراً للقارات
يطلق من قواعد أرضية. ومن بين هذه
الصواريخ يوجد ١٧٦ صاروخاً في
أوكرانيا، و١٠٤ صواريخ في كازاخستان،
و٥٤ صاروخاً في روسيا البيضاء،

وبالباقي في روسيا. كما تسيطر روسيا
على أسطول من الغواصات الحاملة
للصواريخ العابرة للقارات التي تطلق من
البحر. كما تتمركز أعداد كبيرة من
الأسلحة النووية التكتيكية في أرجاء

مختلفة من الاتحاد السوفيتي السابق، ولا سيما في روسيا وأوكرانيا وكازاخستان، بيد أنه تم نقلها الآن إلى روسيا.

وقد اكتنف الغموض استجابة الدول المستقلة حديثاً لتراثها العسكري، فعندما وقعت اتفاقية منسك المتعلقة بـ «إنشاء رابطة الدول المستقلة» في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١، أعلنت بيلو روسيا وأوكرانيا وكازاخستان أنها ترغب في أن تكون منزوعة من الأسلحة النووية. وكجزء من عملية تأكيد استقلالها، قررت أوكرانيا وكازاخستان كذلك أنهما ستتوليان قيادة القوات العسكرية السوفيتية الموجودة على أراضيها - دون الإشارة فيما إذا كان ذلك سيشمل الأسلحة النووية.

وبناء على ذلك، أبرمت في منسك ثانية اتفاقية منفصلة حول القوات الإستراتيجية بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على الاتفاقية الأولى، حيث وافقت أوكرانيا وبيلو روسيا على نقل قواتهما النووية الإستراتيجية إلى روسيا بحلول ١٩٩٤؛ إذ تنوي روسيا أن تظل قوة نووية إستراتيجية خلال المستقبل المنظور، غير أن كازاخستان رفضت أن تحذو حذوها. وذلك لأنها تجد فوائد سياسية في الاحتفاظ بالأسلحة النووية على أراضيها، سواء تحت قيادة رابطة الدول المستقلة، أو بموجب تدابير ثنائية تتخذ مع روسيا، حتى تقوم الولايات المتحدة والصين وروسيا بتدمير أسلحتها الإستراتيجية.

عاجزة عملياً

نصت الاتفاقية الأخيرة على أنه لا يحق إلا للرئيس الروسي، وبالاتفاق مع زعماء بيلو روسيا وكازاخستان وأوكرانيا، وبعد التشاور مع زعماء الدول المستقلة الأخرى، اتخاذ أي قرار يقضي باستخدام الأسلحة النووية الإستراتيجية الموجودة فيها. ولكن بالرغم من حق النقض «الفيتو» السياسي هذا، فإن زعماء بيلو روسيا وأوكرانيا وكازاخستان لا يملكون تماماً منع إطلاق الأسلحة النووية. إذ إن التحكم العملياتي يقع بيد الرئيس الروسي والمارشال يوجيني شابوشينكوف، قائد قوات رابطة الدول المستقلة، الذي احتفظ بالبنية العسكرية المركزية للاتحاد السوفيتي السابق التي يقع مقرها في موسكو. ويوجد لدى كل من شابوشينكوف ويلاتسين حقية تحتوي على شفرة إطلاق الأسلحة النووية.

كما يقود شابوشينكوف القوات غير النووية التابعة للاتحاد السوفيتي السابق، والتي أصبحت تعرف الآن بـ «القوات الإستراتيجية لرابطة الدول المستقلة». غير أنه لا يملك سلطة على الجيوش الوطنية، والبنى القيادية التي تقوم بعض الدول المستقلة بإنشائها.

وعادت الدول المستقلة إلى منسك في شباط/فبراير لتسوية خلافاتها، غير أن القمة أظهرت وجود خلافات مستمرة حول مستقبل القوات المسلحة في رابطة الدول المستقلة. ففي حين وافقت الدول على وجوب بقاء

القلق بشأن العواقب المتمثلة في اضطلاع أشخاص تعوزهم الخبرة بقيادة بنية تحتية عسكرية معقدة. غير أن هذه الآراء ليست عامة، إذ يشعر بعض الإستراتيجيين الغربيين أن وجود أسلحة نووية يمكن أن يكون لها تأثير على استقرار العلاقات بين الجمهوريات السوفيتية السابقة — ولا سيما روسيا وأوكرانيا — وتحول دون حدوث صراعات سياسية يمكن أن تتطور فيما بعد إلى حرب.

مخاوف لا مسوغ لها

لقد بولغ في الأخطار التي تكتنف انتشار الأسلحة النووية بين دول الاتحاد السوفيتي السابق. وعلى الرغم من أن أوكرانيا كانت تتوقف من حين لآخر عن نقل الأسلحة النووية التكتيكية إلى الأراضي الروسية، على خلاف اتفاقية منسك، فقد أعلنت روسيا في أيار/مايو من هذه السنة أن جميع الأسلحة النووية التكتيكية التي كانت بحوزة الاتحاد السوفيتي السابق قد أصبحت الآن على أراضيها. وقد صادقت وزارة الدفاع الأميركية على هذا الإعلان.

وعلى نحو مشابه،

القوات الإستراتيجية للرابطة النووية أو غير النووية، تحت قيادة شابوشينكوف إلا أن بيلو روسيا وأوكرانيا قالتا إنهما لن توافقا على ذلك إلا في عام ١٩٩٤، عندما يحين موعد إزالة القوات النووية الإستراتيجية من أراضيها. وخلال الاجتماع، استمر الخلاف بين روسيا وأوكرانيا حول ما إذا كانت القوات الجوية أو البحرية تعتبر جزءاً من القوات الإستراتيجية المركزية. وهو ما يعكس الصراع على ملكية البحر الأسود، وأجزاء أخرى من القوات غير النووية المتمركزة في أوكرانيا.

ويرى الغرب أنه يجب أن تبقى جميع الأسلحة النووية المتبقية في الاتحاد السوفيتي السابق محصورة في واحدة من الدول التي خلفت الاتحاد السوفيتي، وتفضل روسيا التي توجد فيها معظم الأسلحة والخبرات. ورغم أن ذلك كان هدف محادثات منسك، إلا أنه يمكن أن تحذو أوكرانيا وبيلوروسيا حذو كازاخستان بالاحتفاظ بالأسلحة المخزنة على أراضيها.

كذلك ينظر الغرب إلى انتشار الأسلحة النووية، وعدم الاستقرار السياسي، وينتابه



فإنه لا مسوغ للمخاوف بشأن الأسلحة النووية الإستراتيجية. إذ لا يمكن أن تحتفظ الدول المستقلة حديثاً، فيما عدا روسيا، بترسانات الأسلحة النووية الإستراتيجية بمفردها. إذ تعوزها القدرة على بناء وصيانة الرؤوس النووية، التي توجد جميع مرافقها الرئيسية في روسيا. كما تحتاج إلى تخصيص جزء رئيسي من الموارد الصناعية لتطوير مجمع لإنتاج الأسلحة النووية. وحتى لو افترضنا أنه بوسع هذه الدول أن تسخر بعض الخبرات من الاتحاد السوفيتي السابق، فإنه ليس من المحتمل أن تكون قادرة أو راغبة في توظيف الموارد اللازمة. وفضلاً عن ذلك لم تعد توجد حالياً مواقع لإجراء الاختبارات، إذا أغلق موقع نوفييا زمليا في روسيا، وموقع سمبيالاتينسك في كازاخستان، وستثير إعادة فتحهما معارضة محلية واسعة النطاق.

وحتى لو احتفظت أوكرانيا وروسيا البيضاء وكازاخستان بالأسلحة النووية التي لا تزال موجودة على أراضيها، فإنها ستواجه مشكلات عويصة بسبب تآكل واهتراء المكونات. فـ «التريتيوم - tritium» الموجود في الرؤوس النووية الحرارية، والذي يزيد من القوة التدميرية للأسلحة له على سبيل المثال أمد انتصاف* يبلغ ١٢,٥ سنة فقط. ومن أجل إبقاء الأسلحة صالحة للاستعمال، يجب تجديد هذه المادة. وحسب المعلومات المتاحة فإن المفاعلات المائية الثقيلة التي

يمكن أن تكون مصدراً للتريتيوم لا توجد إلا في روسيا.

كما تتطلب مكونات الرؤوس النووية الأخرى الاهتمام والعناية. إذ يتألف البلوتونيوم الحربي مما لا يقل عن ٩٣ بالمائة من بلوتونيوم - ٢٣٩، بالإضافة إلى نظائر مشعة أخرى من قبيل البلوتونيوم ٢٤٠، وبلوتونيوم - ٢٤١، وبلوتونيوم ٢٤٢. ويصاب البلوتونيوم - ٢٤١ بالتلف ويتحول إلى أمريسيوم الذي يستحوذ على النيوترونات، ويمنع عملية الانشطار إذا ما تراكم. وتعالج روسيا هذه المشكلة عن طريق ترقيق البلوتونيوم الأخذ في التلف في الرؤوس النووية ببلوتونيوم حربي جديد. وهذا هو السبب الذي تقدمه روسيا لشرح سبب احتياجها للاستمرار في إنتاج بلوتونيوم حربي للمحافظة على الرؤوس النووية الموجودة، وليس لصنع صواريخ جديدة.

كما تحتاج القوة النووية الإستراتيجية الفاعلة إلى ناقلات حاملة (قاذفات أو صواريخ إستراتيجية)، وأنظمة إنذار مبكر (توابع اصطناعية، ورادارات واسعة النطاق)، ومرافق قيادة وتحكم. ولا يحتمل أن تكون جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق راغبة في تخصيص موارد لتطوير مثل هذه البنية العسكرية المتطورة والمتكاملة. وحتى لو ورثت بعض المعـــدات والأدوات اللازمة لذلك من الاتحاد السوفيتي، فإن قدراً كبيراً يتعين إنشاؤه وتركيبه.

* أمد الانتصاف «أو عمر النصف» Half-Life هو الفترة اللازمة لتفك ذرات المادة المشعة.

وقد أكد يلتسين في حديث تلفزيوني لشبكة «ABC» في كانون الثاني/يناير

من هذه السنة، على المدى الذي ستعتمد عليه القوات النووية التابعة لرابطة الدول المستقلة على الخبرة الروسية بقوله : إن الصواريخ عابرة القارات التي تمتلكها الرابطة لم تعد موجهة إلى الولايات المتحدة. ورغم أن هذا البيان كان يهدف بشكل واضح إلى التأكيد على أنه لم تعد الولايات المتحدة وروسيا عدوين، فإنه يشير كذلك إلى الحاجة إلى مساعدة متخصصة لجعل الأسلحة فعالة مرة أخرى.

وفي مقابلة تلفزيونية لاحقة أجريت في روسيا، قال شابوشينكوف: إن الصواريخ قد وضعت في وضعية «مهمة صفر» أي أنه لم تتم برمجة الأسلحة بأية معطيات تتعلق بأية أهداف. فمن أجل توجيه الصواريخ عابرة القارات نحو أهداف معينة، يجب برمجتها ببيانات تتعلق بالإحداثيات الجيودسية للأهداف، وخرائط الجاذبية الأرضية التي يتم الحصول عليها من التتابع الاصطناعية. فإذا ما افترضنا أن شابوشينكوف صادق في قوله، فإن هذا يعني أنه حتى لو حازت

الدول المستقلة على الصواريخ على أراضيها من أجل استخدامها لأغراضها الخاصة بها، فسيكون من المتعذر عليها تماماً إعادتها إلى وضعية التشغيل بدون مساعدة روسيا.

كما تشكل صيانة الصواريخ مشكلة أخرى. ففي شهر آذار/مارس من هذا العام، ذكر شابوشينكوف أنه لم يعد بوسع قوات الصواريخ الإستراتيجية، وهي فرع من القوات المسلحة التابعة لرابطة الدول المستقلة مسئول عن الأسلحة النووية الإستراتيجية، الإبقاء على انتشار الصواريخ في روسيا. ورفضت أوكرانيا تزويد القطع التبديلية للصواريخ التي صنعتها، والمخزنة حالياً في روسيا. ويخشى الإستراتيجيون الغربيون أن يتسرب الوقود السائل في صواريخ «SS-18» التي صنعت في مصنع ضخيم لإنتاج الصواريخ في Den-propetrovsk بأوكرانيا.

والوقود هو هبتيل، وهو شكل من أشكال وقود الصواريخ الذي يدعى هيدرازين، والذي يجب أن يبقى بارداً ومضغوطاً في حاويات محكمة الإغلاق.



المحلية المتزايد عن الاشتراك بمواردها المحدودة لإيواء العسكريين بشكل كاف. إذ يقدم للقوات المسلحة طعام رديء النوعية، كما يتعين حتى على الضباط النوم في خيام فضلاً عن ارتفاع نسبة الهروب من الخدمة العسكرية.

المخزونات في خطر

بالنسبة للغرب، فقد صمدت قيادة الأسلحة النووية والتحكم بها في وجه الاضطرابات السياسية، إلا أن ذلك لا يمكن أن يكون مأموناً بصورة تامة. إذ يمكن أن تقوم القوات المحلية بمهاجمة أحد مواقع التخزين والتغلب على القوات الخاصة، التي تقوم بحراسة الأسلحة النووية. وهذه القوات تكاد تتكون بشكل تام من الروس العرقيين الموالين لشابوشينكوف ويأتمرون به. وقد حصل مثل هذا الهجوم في أذربيجان في أثناء القلاقل التي حدثت في باكو خلال كانون الثاني/يناير ١٩٩٠، عندما اقتحم ثوار ازاريون مسلحون قاعدة تضم أسلحة تكتيكية؛ وتمكنوا من الوصول إلى أحد الرؤوس النووية، إلا أن القوات الروسية تمكنت من صدهم قبل أن يتمكنوا من العبث به أو سرقة.

وتشكل الأسلحة النووية التكتيكية أكثر الأمور خطورة نظراً لعدم وجود حراسة كبيرة عليها من قبيل الشفرات الإلكترونية، التي تعرف بالروابط العملية المسموح بها، التي يمكنها أن تؤخر عملية تدمير أسلحة غير مرخص بها. كما أنها مخزنة بطريقة غير مأمونة - ففي بعض

وإذا لم تستأنف الصيانة فإن المواد الكيميائية السامة ستأخذ في التسرب من الصواريخ، مما يجعل قواعدها تحت الأرضية غير مأمونة.

وعلى نحو متواز، فإن قدرة روسيا على الاحتفاظ بقدرة نووية إستراتيجية فعالة أمر مشكوك فيه. لذلك ثمة أمل بأن تلتزم الدول باتفاقية منسك، عندما تستنفذ كل من أوكرانيا وكازاخستان الفوائد السياسية التي تستمدانها من وجود الأسلحة النووية على أراضيها. ومهما كانت نتائج التنافسات بين الدول، فإن توقع ظهور قوات مسلحة نووية مستقلة يبدو أمراً بعيد المنال.

ويعتبر أمن الأسلحة النووية نفسها من الأمور التي تثير فزع الغرب بصورة كبيرة. ففي الأيام التي سبقت عهد غورباتشوف، كان كل جانب من جوانب المجمعات الصناعية العسكرية محكماً بدقة متناهية. إلا أن السنوات الأخيرة من فترة غورباتشوف اتسمت بالتدهور الاقتصادي والتفكك الاجتماعي، الأمر الذي أثر على المؤسسة العسكرية.

وبحلول ١٩٩٠، كان من الواضح أن تماسك القوات المسلحة قد أخذ يتدهور بسرعة، ولم يطرأ أي تحسن منذ ذلك الحين. فازدادت الجريمة التي شملت سرقة الأسلحة والذخائر على نطاق واسع، والتي استخدم بعضها في جورجيا وأرمينيا وأذربيجان. وتفاقت مشكلة عدم توافر السكن نتيجة انسحاب القوات من أوروبا الشرقية، وإحجام السلطات

٤٠٠ مليون دولار أميركي لاتخاذ التدابير اللازمة لزيادة درجة أمان الأسلحة النووية في الاتحاد السوفيتي السابق. ويتعين تقسيم المبلغ بين الدول التي تتمركز فيها الأسلحة النووية، إلا أن طريقة استخدام هذه الأموال ليست واضحة تماماً. وقد اقترنت بهذا العطاء شروط عديدة.

يتعين على رابطة الدول المستقلة أن تتمثل لاتفاقيات الحد من الأسلحة الحالية، ولا سيما معاهدة تخفيض الأسلحة الإستراتيجية «ستارت»، ومعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، وسيتعين على روسيا بوصفها مستودعاً متنامياً للترسانة النووية أن توظف موارد كبيرة من أجل تفكيك الأسلحة. ويجب على جميع الدول النووية أن توافق على عدم إعادة استخدام المواد الانشطارية في الأسلحة، وحصر برامجها العسكرية بمتطلبات الدفاع المشروعة «التي لم تحدد بوضوح» والسماح بالتحقق من تدمير الأسلحة.

موارد محدودة

قبلت روسيا وبلو روسيا وأوكرانيا الشروط غير أن كازاخستان رفضت التعهد بالتخلي عن جميع الأسلحة النووية والانضمام إلى معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية بصفة دولة لا تمتلك أسلحة نووية، إلا أن المشكلات لا تتوقف عند هذا الحد.

إذا ما طبق تفكيك الرؤوس النووية على كامل قدرة إنتاج الأسلحة في دول

المواقع توضع الرؤوس النووية على الأرض - وثمة الكثير من الرؤوس النووية التي يتعذر معرفة مواقعها. إن نقل الأسلحة التكتيكية إلى روسيا يسهل حل المشكلات إلا أنه لا يزيلها إذا ما علمنا أن روسيا نفسها غير مستقرة سياسياً.

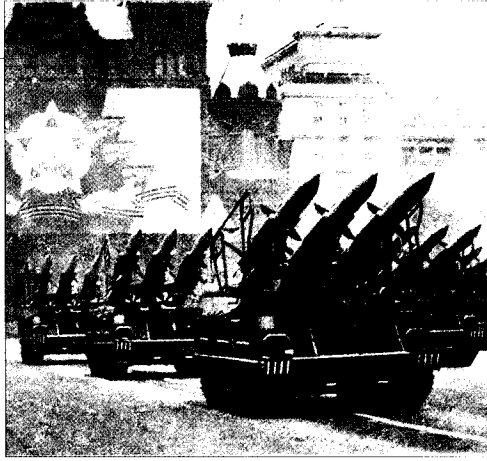
يعتبر الخبراء الغربيون أن الإطلاق غير المصرح به للصواريخ الإستراتيجية يكاد يكون من الأمور المستحيلة، ما لم يحاول القيام بذلك المرتدون داخل القيادة العسكرية العليا. إلا أنه إذا ما أرادت المؤسسة العسكرية أن تتسلم زمام السلطة في روسيا، فإنها لن تحتاج إلى الأسلحة النووية الموجودة تحت سيطرتها. أما إذا تم اقتحام مخازن الصواريخ وسرقة الأسلحة، فإنه من المحتمل أن تستخدم في عمليات الابتزاز، أو أن تباع لجهات أخرى.

ثمة طرق عديدة للتقليل من حدة هذه المخاطر. إذ يمكن معاملة الجنود الذين يقومون بحراسة هذه الأسلحة على نحو أفضل. ويمكن إبطال مفعول الأسلحة عن طريق إتلاف آلية الانصهار أو عن طريق إزالة التريتيوم. وينصح بالقيام بالطريقة الثانية نتيجة تدني تكاليفها، وهو تدبير مؤقت اقترحه ستيفن ميللر، محرر المجلة الأميركية «الأمّن الدولي»، وأحد مؤلفي التقرير المهم «الانشطار النووي السوفيتي» الذي نشرته جامعة هارفارد في نوفمبر الماضي.

وبعد أقل من شهر من نشر تقرير ميللر، خصص الكونجرس مبلغاً قدره

أين تخزن الصواريخ؟

يوجد في
روسيا وبيلو
روسيا وأوكرانيا
وказاخستان
١٠٤٢ صاروخاً



تدمرية. ويرى
الإستراتيجيون
العسكريون
الغربيون أن
هذا الصاروخ
هو القوة
الضاربة
الرئيسية
للاتحاد

السوفيتي ،
وهو الصاروخ

الذي سيستخدم في بداية حرب نووية
لتدمير الصواريخ العابرة للقارات
الأمريكية، وهي لا تزال في قواعدها.

وفي بيلو روسيا يوجد ٥٤ رأساً
نووياً منفرداً تحمل على شاحنات كبيرة.
وكانت هذه الصواريخ الحديثة والمتنقلة
هي التي أثارت موضوع الاتهام بأن
الاتحاد السوفيتي يغش في عملية الحد
من الأسلحة.

أما ما تبقى من القذائف العابرة
للقارات فهي موجودة في روسيا.
وبموجب معاهدة تخفيض الأسلحة
الإستراتيجية والتصريحات من جانب
واحد بشأن تخفيضات القوات
الإستراتيجية، فقد قررت روسيا
الاحتفاظ بصواريخ SS-25 و SS-18
باعتبارها الصواريخ الرئيسية في قوتها
من الصواريخ العابرة للقارات، وأعلنت
روسيا خطة تحديث مدتها عشر سنوات
لصواريخ SS-18. غير أن اتفاقية
بوش و يلتسين الشهر الماضي قضت
بالتخلص من جميع صواريخ SS-18.

وقد يكون هذا التراجع في التخطيط
للقوات الإستراتيجية ناجماً عن صعوبة
العلاقات مع أوكرانيا، مما لا يترك
لروسيا إلا صواريخ SS-25 ذات
الرؤوس النووية الفردية في مجموع
قوتها من الصواريخ العابرة للقارات في
المستقبل.

عابراً للقارات تطلق من قواعد أرضية.
وتمتلك أوكرانيا ٤٦ صاروخاً حديثاً من
طراز SS-24، وهي النسخة الرئيسية من
صاروخ MX الأمريكي، وأول قذيفة
صاروخية عابرة للقارات تعمل بالوقود
الصلب في الاتحاد السوفيتي. ويوجد لكل
صاروخ SS-24 عشرة رؤوس نووية
توجه بشكل مستقل. كما يوجد على
الأراضي الأوكرانية ١٣٠ صاروخاً SS-
19 القديم يحمل كل منها ٦ رؤوس نووية.
وقد اختار الاتحاد السوفيتي صواريخ
SS-19 لتدميرها خلال سبع سنوات
بموجب بنود معاهدة تخفيض الأسلحة
الإستراتيجية «ستارت» التي وقعها كل
من جورج بوش وميخائيل غورباتشوف
عام ١٩٩١.

وتضم ميادين كازاخستان في
ديرشافينسك وجانكيزتوب ١٠٤
صواريخ من طراز SS-18. ورغم أنها
أقدم من صواريخ SS-24 فقد اعتبرت
الولايات المتحدة أن صواريخ SS-18
رمزاً للعدوان السوفيتي، وأطلق عليها
اسم «الشيطان». وشأن SS-24 يحمل كل
صاروخ من طراز SS-18 عشرة رؤوس
نووية يمكن توجيهها بشكل
مستقل. وتصنف صواريخ SS-18 ذات
الوقود السائل بأنها الصواريخ العابرة
للقارات «الثقيلة» الوحيدة لأنها تحمل
أضخم رؤوس نووية. وتتمتع بأكبر قوة

الروسية التي يطلق عليها المدن السرية من قبيل Chelyabinsk-40 قرب Kyshtym في جبال أورال وArzamas-16 قرب غوركي، وTomsk-7 في سيبيريا. ففي مقابل عزلتهم الإجبارية في مصانع إنتاج الأسلحة النووية هذه، كانوا يتمتعون بفوائد ومزايا مادية خاصة.

وفي فبراير من هذا العام، منحت الولايات المتحدة مبلغ ٢٥ مليون دولار أميركي لإقامة «مركز عمل» للعلماء النوويين تحت رعاية دولية. ووعدت الجماعة الأوروبية بدعم هذه المبادرة من أصل ٢٥,٦ مليون جنيه استرليني، خصصت للكون الفنى للأمان النووي في الاتحاد السوفيتي السابق. وثمة اهتمام كبير في الولايات المتحدة بشأن تمويل البحوث في المؤسسات العلمية والصناعية — الدفاعية في رابطة الدول المستقلة باستخدام موارد تمويل عامة وخاصة من أجل استغلال الخبرات، ومرافق البحوث في مجالات على نحو فيزياء البلازما، وفيزياء الطاقة العالية، وكشف الطيف الشمسي. وحسب المعايير الأميركية، فإن هذا يمثل استثماراً قليل التكلفة.

أما المشكلة الأخرى فتتمثل في المخزون الكبير من اليورانيوم عالي التخصيب، والبلوتونيوم الحربي، مشتملاً ذلك على البلوتونيوم الذي تحتويه الأسلحة. واستناداً إلى وليم ووكر، الخبير في وحدة بحوث السياسة العلمية في جامعة

الاتحاد السوفيتي السابق، فإنه سيكون بمقدرتها تفكيك ٢٠٠٠ رأس نووي كحد أعلى. وفي محادثات غير رسمية مع الخبراء الغربيين، أشار الاختصاصيون الروس إلى أنه خلال السنوات القليلة المقبلة على الأقل لن تتم إزالة المواد الانشطارية من الرؤوس النووية، بل سيتم تفكيك الأسلحة إلى مكوناتها فقط، وتخزينها. إذ إن عملية فك الرؤوس النووية ستحتاج إلى وقت طويل سيمتد حتى القرن التالي.

وقد أثر انهيار الاقتصاد السوفيتي على أكاديمية العلوم، حيث أصبح الكثير من الفيزيائيين الآن بدون عمل، ولم تعد تتوافر الموارد الكفيلة بمواصلة أبحاثهم. فقد كان برنامج الأسلحة النووية السوفيتي قد وظف ما يقرب من ١٠٠ ألف عالم يعرف ٢٠٠٠ عالم منهم كيفية بناء الرؤوس النووية. وثمة هجرة عقول كبيرة إلى الغرب، وقد حاولت ليبيا وإيران استخدام الاختصاصيين النوويين السوفيت. وتبعاً لمعهد خروتشوف للطاقة الذرية في موسكو، وهي أكثر مؤسسات البحوث النووية شأناً في الاتحاد السوفيتي السابق، فإن ليبيا اتصلت بالعديد من الاختصاصيين النوويين السوفيت وقدمت لهم رواتب في حدود ٢٠٠٠ دولار أميركي شهرياً، وهو مبلغ يساوي عشرة أضعاف ما يتقاضونه. وحتى الآن لا توجد تقارير مؤكدة عن قبول مثل هذه العروض.

ويعاني العديد من الاختصاصيين النوويين ظروفاً حياتية قاسية في المدن

ساسكس، فقد أنتج الاتحاد السوفيتي زهاء ١٢٠ طناً من البلوتونيوم، و ٧٠٠ طن من اليورانيوم خلال السنوات الأربعين من الحرب الباردة. وإن مراقبة مثل هذه المخزونات أمر صعب.

ويمثل تفكيك الأسلحة النووية مشكلة أخرى. فقد كتب بوريس غورباتشوف، وهو عالم نووي روسي، في مجلة كومسومولسكايا برافدا في فبراير ١٩٩٢، يحذر من الحالة الخطرة التي تكتنف الترسانة النووية في رابطة الدول المستقلة. وقد أكد على مخاطر الحوادث من نوع تشرنوبيل، والتي يمكن أن تحدث عند نزع التسليح، وفك الأسلحة النووية التكتيكية. إن السرية التي اكتنفت الصناعة النووية في الاتحاد السوفيتي حجبت الأضرار البيئية التي كانت تحدثها. ورغم أن زورس ميدفيديف - وهو عالم مهاجر - كان قد كشف في مجلة «نيوساينتسيست» في عام ١٩٧٦، أنه حدث ما لا يقل عن حادث نووي رئيسي في الخمسينيات، فإن حادثة تشرنوبيل عام ١٩٨٦ هي التي جلبت الانتباه إلى هذا النوع من الحوادث؛ وفي آذار من هذا العام، أكد تسرب إشعاعي من محطة سوسنوفي بور لتوليد الطاقة التي تبعد ٦٠ ميلاً غربي سانت بطرسبرغ، المخاوف في الغرب حول حالة صناعة الطاقة النووية في رابطة الدول المستقلة.

وتقوم وزارة الطاقة الذرية والصناعة في موسكو، بإدارة أعمال الصيانة والأجهزة الداعمة لمحطات الطاقة النووية، التي تطالب بالدفع بالعملية الصعبة نظير

الخدمات المقدمة من الدول الأخرى. وتقول الوزارة: إن البرنامج النووي العسكري للاتحاد السوفيتي أحدث تلوثاً بيئياً سيكلف تنظيفه عدة مئات البلايين من الدولارات بالعملية الصعبة، هذا إذا أمكن تنظيفه.

وعقب ماكشفه ميدفيديف، كشفت التحقيقات التي أجراها علماء غربيون أن انفجاراً في موقع لتخزين النفايات في Chelyabinsk-40C في ١٩٥٧ بالأورال، حيث توجد المرافق الرئيسية لإنتاج الرؤوس النووية، أدى إلى نشر ٢٠ مليون وحدة «كوري» من الأشعة ولوث أكثر من ٢٠ ألف كيلومتر مربع. وبعد عشر سنوات هب غبار إشعاعي عبر منطقة Chelyabinsk، وعرض مايقدر بـ ٤٢ ألف شخص لجرعات زائدة من سترونتيوم - ٩٠. ولم تصدر أرقام رسمية عن الوفيات في كلا الحادثين، رغم أن الوزارة ألحت بغموض إلى «المقابر الموجودة حول مرافقنا» كمؤشر عن التكاليف البشرية لإنتاج الأسلحة النووية. وحتى الآن، فإن أحد الخزانات يحتوي على نفايات نووية ملوثة إلى درجة أن أي شخص يقف على شاطئها دون وقاية سيتلقي جرعة مميتة من الإشعاع في خلال ساعة من الزمن.

إن المخاطر التي يشكلها التفكك الاجتماعي لدولة عظمى ذات ترسانة نووية قوية أمر حقيقي ويحتاج إلى عمل جدي الآن. وإن التعامل مع تراث سباق التسلح سيستغرق ما لا يقل عن جيل.

حوار مع

الكاتب الأميركي

فيليب روث



جوسيان سافينيو

د. فوزي أيوب

« مرات عديدة تساءلت عن ذلك الشاب الأميركي الذي كنته، ذلك الشاب المراهق الذي أمضى عدة سنوات في أوروبا، ما معني أن يكون المرء أميركياً بنظرك هذه الأيام؟ »

— هذا سؤال يمكن أن نكرس له المقابلة بكاملها. ولكن لنأخذ الكلمتين اللتين استخدمتهما، وهما المراهقة، وعودتي من الخارج قبل سنوات. مع هذه العودة

الكاتب الأميركي فيليب روث من مواليد نيوجرسي في ١٩ مارس ١٩٣٣، وقد بدأ الكتابة في الخمسينيات. وحازت مجموعته القصصية «وداعاً لكولومبس» على الجائزة القومية للكتاب سنة ١٩٥٩. وترافق تألق فيليب مع اتهامات يهودية أميركية له بأنه «يهودي معارٍ للسامية». وقد صدر له منذ ذلك الحين عشرون مؤلفاً، وأصبح البعض ينظر إليه كواحد من أكبر الروائيين الأحياء في أميركا، بينما ينظر إليه المحافظون من كل المشارب باعتباره رجلاً مستديم الإزعاج. وقد أجري هذا الحوار معه في نيويورك عشية الانتخابات الأميركية الرئاسية.

*** ميزت الشهور الماضية بحملة الانتخابات الرئاسية الأميركية. لقد سبق لك أن ألفت كتاباً ضد نيكسون بعنوان «الغشاش ورفاقه». أين تقف في انتخابات اليوم؟**

— مثل معظم أبناء بيتي دأبت على التصويت للحزب الديمقراطي بالطبع. ولكن ما يجري حالياً يدعو صراحة للاكتئاب.

«كيف يتخون المرء امريكيا حقيقيا عندما لا يكون لا عاطفيا ولا تطهرياً، ويزيد على ذلك كما في حالتيك، ميله الطاغى للسخرية؟»

— بل يوجد كتاب أميركيون ساخرون! في آخر إحصاء كان عددهم ستة.. وربما كان ينبغي لنا أن نضيف إليهم واحداً أو اثنين. عندما نتكلم عن شخصيات «عاطفية»، أعتقد أن ذلك لا يعني «من لهم عواطف»، بل من عندهم نزعة وجدانية. الأميركيون لديهم القابلية لأن ينخدعوا سياسياً من خلال العاطفة، وهذا لا يعني أن عندهم نزعة وجدانية. والحقيقة هي أن العاطفة لاتظهر في العلاقات المهنية والشخصية للأميركيين، وخير مثال على ذلك واقع الصراعات العائلية عندهم.

أما بالنسبة للنزعة التطهرية، فهي ليست سوى مظهر خادع. يكفي أن ندير مفتاح التليفزيون، أو نذهب إلى السينما، أو إلى بار، أو مدينة جامعية أميركية لنقتنع بالأمر. التطهرية قيمة أخلاقية يستخدمها السياسيون المحترفون مثل

شعرت شعوراً حاداً بأنني أميركي. سنة ١٩٤٥ كان عمري ١٢ عاماً، وكانت أميركا هي تلك القوة الظافرة. كانت أميركا قلعة وجنة. ولنصف إلى كل هذا كوني يهودياً. في تلك الفترة كان لدينا - نحن الأولاد اليهود في أميركا - شعور بأن شيئاً ما هائلاً قد حصل دون أن نعرف بالضبط طبيعة الحدث «قيام دولة إسرائيل» (١). مع ذلك لم أكن قومياً متعصباً، وعندما بلغت الخامسة عشرة كنت ذا نزعة نقدية قبل أي شيء آخر.

بعد ذلك لم تتح لي الفرصة لأشعر بانتمائي الأميركي، كنت أعيش هنا، ولكن عام ١٩٧٧، أقمت في بريطانيا، وكنت أقضي سبعة أشهر من السنة في الخارج. دامت هذه الحال أحد عشر عاماً. وبعد بهجة اكتشاف ما هو جديد والتي غمرتني في السنتين أو السنوات الثلاث الأولى شعرت بعزلة شديدة. كان شيء ما ينقصني، وأشتاق إليه، شيء يشبه الحيوية التي بدا لي أن بريطانيا تفقدتها تماماً. شعرت برغبة للعودة إلى أميركا، وهذا ما فعلته قبل ٤ سنوات. عند عودتي كان الحُبور يسيطر عليّ، ليس لأنني رجعت لأميركا، بل لأنني كنت أشعر وكأنني خارج من سجن. أعدت اكتشاف نيويورك، وشرعت في التدريس. أصبحت معتاداً على إحساس «العودة الدائمة».

يمكنني أن ألاحظ - مجدداً - ما هو كربه هنا. ولقد وجدت الكثير من هذا في الشهور القليلة الماضية.

بوش أو كويل. إنهم يتوجهون بهذا الخطاب للجدات ويتحدثون عن أشياء عاتية منذ ستين سنة. وبالمقابل فإن مادونا من جانبها شيء فعلي. الأفلام التي تصور مشاهد الانحرافات الجنسية هي أفلام واقعية جداً. أنا لا تهمني هذه الأشياء، ولكن معظم الناس معتادون عليها. لذلك لا أعتقد أنه يمكن وصف حياة الأميركيين بأنها تطهرية.

وإذا كان بعض السياسيين يستخدمون هذا القناع لتمرير أفكار بالية يتجاوب معها جزء من الجمهور الأميركي، فإن ذلك لا يغير في رأيي من واقع الحال في البلاد. إن وجه الخطورة هنا يأتي من النظر إلى التطهيرية الأميركية نظرة إجمالية من الخارج فقط، من خلال الصورة التي تقدمها الصحافة مع السعي إلى تفسير شامل كما يفعل الأوروبيون. أميركا لا تتحرك هكذا، أستطيع أن أتكلّم معكم عن الشوارع أو الطرق، أو المكان الذي أقيم فيه هنا، في كونيتكت، كل هذا عالم مجهول، وفيه تعيش جماعات سكانية وجغرافيات عديدة مختلفة، فضلاً عن تجارب وميول عُصابية كثيرة.. حتى بات من المستحيل إدخال النظام إلى هذا المكان. ولذلك فإن هذا المجتمع، وخلافاً للشعارات الجامدة التي يطلقها اليسار الأوروبي، ليس مجتمعاً لا أخلاقياً، كما أنه ليس مجتمعاً بوليسياً. كل تعميم هنا هو شيء خاطيء.

*** ما رأيك في حركة «الاستقامة السياسية» التي يمكن النظر إليها**

كحركة أخلاقية حتى أنها مثلاً تسفّه إنتاج فنّان لأنها ترى أنه يخدش حياء المرأة أو تحرم دراسة بعض المفكرين والفلاسفة لأسباب مشابهة؟

- هذا شيء لا يمسنني. ولذلك لا أشعر بأنني منزّع كما لو كنت معنياً بالأمر. عندما كنت أقوم بالتدريس في الجامعة أتيت لي الفرصة لمشاهدة بعض التصرفات المشينة، ولكن ذلك لم يحصل أبداً في أثناء محاضراتي.

بالنسبة لي، أجد أن سؤالك يشبه السؤال عما إذا كان شيء أحمق.. أحمق بالفعل؟! والجواب هو: «نعم». هذا سلوك بليد، ثقيل، ومضاد للفكر، بحيث يفسد الوضع. ولكن ذلك يبقى محصوراً بالجامعة ولا يخترق المجتمع فعلاً، وفوق ذلك فهو يتركز في الجامعات «الراقية» ويعبر في جزء عريض منه عن مرض النخبة. صحيح أن بعض المؤلفات لم تعد تقرأ للأسباب التي ذكرتها، ولكن بصراحة أنا لا أشعر أنني معني بذلك.

*** ولا تشعر حتى بالانزعاج؟**

- لا. أنا لا أجد في ذلك انتهاكاً لحرية التعبير يستدعي مني أن ألتزم بمحاربته، «وفوق ذلك لا أجد ما سيكون تأثير التزامي هذا». ليس هذا أبداً امتداداً للمكارثية، كما يظن البعض في أوروبا، بل هو تنازع جامعي يقلق الذين يمسهم - كما أرى - ولكنه لا يمس سوى جزء صغير من المجتمع.

من البديهي أن نكون
آخر الروائيين، على
الأقل في أميركا.

* هل في هذا نهاية
للحضارة ؟ مرحلة
انحطاط شبيهة
بمرحلة نهاية
الإمبراطورية
الرومانية؟

— بل هذه نهاية
نمط من الحياة
الحضارية المرتبطة
بالكلام والخطاب،
محاسن الكلمة
ولطائفها!.. كل هذا
سيصبح شيئاً نادراً
أكثر فأكثر. في هذه
البلاد لم يعد يوجد

سوى حفنة من الناس الذين يشاركون في
الحصول على هذه المتع الفكرية. إنهم نوع
من الأرستقراطية. يجب أن يولد المرء في
أسرة احتفظت بهذا النوع من الثقافة حتى
يمكنه الوصول إلى هذا المستوى. عندما
ينتمي الفرد، مثلما هي حالتي، إلى أسرة
«عادية» فسيكون أصعب عليه اليوم أن
يقطع الطريق الذي قطعتة أنا، وهو طريق
مليء بالمكتبات والكتب. الشاب الذي يريد
أن ينهج هذا النهج يجب أن تكون لديه
دافعية عالية المستوى والتركيز، بحيث
يتمكن من أن يتجاوز كل العقبات التي
تقف مانعاً بينه، وبين الوصول إلى



* تردد كثيراً
أنه لم يعد يوجد في
الولايات المتحدة
أكثر من ١٥ ألف
قارئ «لن يبقى
منهم سوى ٧٥٠٠
قارئ عما قريب ،
ثم ألفين، ثم حفنة
في سراديب الموتى..
حتى يأتي يوم
يصبح فيه عدد
الكتاب أكثر من
عدد القراء!». هل
هذا أمر لا مفر منه؟

— دون أي شك.

أنا أوردت عدد ١٥
ألف قارئ منذ
بعض الوقت، وهذا

يعني أنه لابد أن نكون قد فقدنا عدداً
منهم منذ ذلك الحين. إن أولاد أصدقائي
الذين يأتون من أوساط ذات امتيازات
فكرية هم اليوم أميركيون منعزلون جداً،
مع أن بعضهم بلغ الثلاثين من العمر. أنا
لا أقول إنهم سيتعرضون للاضطهاد
بصورة أو بأخرى. بل إنهم قد يشغلون
مراكز مهمة في المؤسسات أو في الحكومة،
ولكنهم مع ذلك يعيشون داخل مايشبه
«الغيتو الفكري»، القرار يتم إنتاجه في
المجتمع بدونهم، وبدون الناس المثقفين
عموماً. أنا متيقن من أنه لا يمكن فعل شيء
لوقف هذا التحول. وهكذا فإنه يبدو لي

الثقافة، وبحيث يتغلب على القوة الكبرى التي تشده للسكون والكسل.

*** إذن كيف يمكن للإنسان أن يكون كاتباً في مجتمع كهذا؟**

- لم أزل أشعر بالارتباط بالمجتمع الذي ولدت فيه. هكذا بدأت أصبح رجلاً عجوزاً ينتمي إلى عصر مضى. إنني أكتب اليوم ما كنت أرغب في أن أكتبه سنة ١٩٥٥، عندما كان عمري ٢٢ عاماً.

*** مع ذلك تقول إنك تفضل هذا الوضع على وضع أدباء أوروبا الذين يحظون من جانبهم بـ «احترام» أكبر؟**

هذا صحيح .. لسبب بسيط: هو أن هذا الاحترام ليس له أي معنى. وفوق ذلك فأنا أعتقد أنه لم يعد له وجود حتى في أوروبا. هذا الفهم للواقع هو مدعاة للطمأنينة بصورة من الصور. إن احترام الأدباء والمفكرين في المجتمع اليوم يكاد يشبه إبداء مشاعر الورع، وليس أكثر، لأننا نعرف أن تأثير الكتب في الجمهور لا وجود له، وأن القدرة على استخلاص ما هو رومانسي من الواقع بعيدة كل البعد عن العقلية الأميركية. يجب ألا تستنتجوا من هذا أننا موضع احتقار. توجد فقط لا مبالاة واسعة، إلا إذا أظهرت إحدى كتاباتنا إثارة ملحوظة. ما يهم الجمهور ليس ما هو مكتوب، بل تهمه الإثارة.

*** مع ذلك فرواياتك مقروءة في أميركا وخارجها، وتظهر في الصحف تعليقات كثيرة بشأنها؟**

الصحافة؟ .. لكن واقعيين. من أصل كل ثلاثين مقال نقد أدبي، هناك ٢٥ لا صلة لها بالنقد بأي شكل من الأشكال، والخمسة الباقية هي بمستوى مقبول، سواء قالت أشياء إيجابية أم سلبية عن الكتاب المعني. أعتقد أن كل النقد في كل الأرجاء يمكن أن يكون لهم نفس التحليل، وأن للنقد نفس الوظيفة في كل مكان. إن تاريخ النقد من خلال الصحف ليس تاريخاً باهراً بالمرّة، وذلك ما نجده في كل مكان. أليس كذلك؟ المسألة الأساسية بالنسبة لأي كاتب هي: هل يوجد «رجع صدى»؟ هل يوجد صدى فعلي لما ننشره؟.. أنا أعرض النسخة الأولية التي أكتبها على بضعة أشخاص لايزيدون على عشرة قبل أن أسلمها للناس. رأي هؤلاء هو الذي يهمني. إنهم هم الذين يعطونني لذة الشعور بأنني مقروء. هذا هو النشر الحقيقي بالنسبة لي. بعد ذلك أعطي النسخة للناس، وأحاول أن أنساها، وألا أكرث بما سيحصل، غير أنني لا أحقق هذا النسيان دائماً. الكتاب يتجه نحو عدة ألوف من الأشخاص الذين لا يزالون يقرأون على كل حال. ولكنني أتساءل: مع من يتحدثون عما قرأوه؟ هنا لا يوجد أشخاص تتكلم إليهم. من الصعب جداً أن تعثر على شخص تقيم معه محادثة محددة لساعة من الوقت حول كتاب معين. لا أعرف ما إذا كان هذا ينطبق على بقية العالم، ولكنني أستطيع أن أشهد بأنه كذلك في أميركا، وفي نيويورك نفسها. لهذا السبب كنت أحب أن أمارس

التدريس، خلال ثلاث ساعات يمكن أن نتحدث عن كتاب قرأه الجميع. صحيح أن القراءة كانت دائماً عملاً يتسم بالخصوصية، ولكن هذا لا يعني العزلة. هذه الأيام القارئ أصبح شخصاً منعزلاً.

*** المؤلفون حتى عندما نقرأهم يشعرون غالباً بأن قراءة ما يكتبونه تتم لأسباب سلبية، ويشعرون بأنه يُساء فهمهم كما تشدد على ذلك في كتابك «الوقائع». ما هو شعورك تجاه سوء الفهم هذا؟**

— أجد أنه سوء فهم مرغوب فيه لدرجة عالية. بل إنني أحب هذا كما هي حال كل المؤلفين. يجب أن نتعلم أن نحب هذا، لا أريد أن أبدو متسامحاً، ورخواً بعض الشيء، ومع ذلك فهذه هي الصورة التي ترسم لي في الأذهان، لأنني سأحتفل عما قريب ببلوغي الستين. ولكن أصبح من الممل صراحة محاربة أناس يرفضون أن يفهموا معنى ما

نكتبه. إننا نسأم في النهاية، ولا نعود نبالي.

لقد أنهيت لتوي آخر كتاب لي، وبالتالي فهذه المحادثة جاءت في وقتها. هذا الكتاب هو آخر جزء في سيرتي الذاتية، وهو ثمرة سنتين ونصف السنة من الجهد. في أثناء الكتابة لا أستطيع أن أهتم بمعرفة ما إذا كان الناس سوف يفهمون ما أقول، أو سوف يقرأونني بصورة صحيحة. عندي مشكلة تحتاج إلى حل كل يوم. هذه هي بالنسبة لي المغامرة اليومية، وهي المغامرة الكبرى. الباقي يتوجه إلى الولد الكائن في نفسي، أو إلى المراهق الكائن فيها، أي إلى ما يبقى مراهقاً فينا نحن المؤلفين. المراهق مقاوم شديد الحساسية، وسريع الشعور بالإحباط. إنه يبكي ويشتكى ويصرخ. وهذا ما يجعل المراهق الكائن فينا يستيقظ ما إن يتم نشر الكتاب الجديد. لكن في أثناء فترة الكتابة ينخرط المرء بكل زخمة وبشموليته في العمل، هذه هي المغامرة الحياتية للكاتب، تلك التجربة المليئة بفيض الوجدان.

جون هنري تواكتمان

ذلك الهدير الناعم

شاهر حسن عبيد

ألفرد كورن

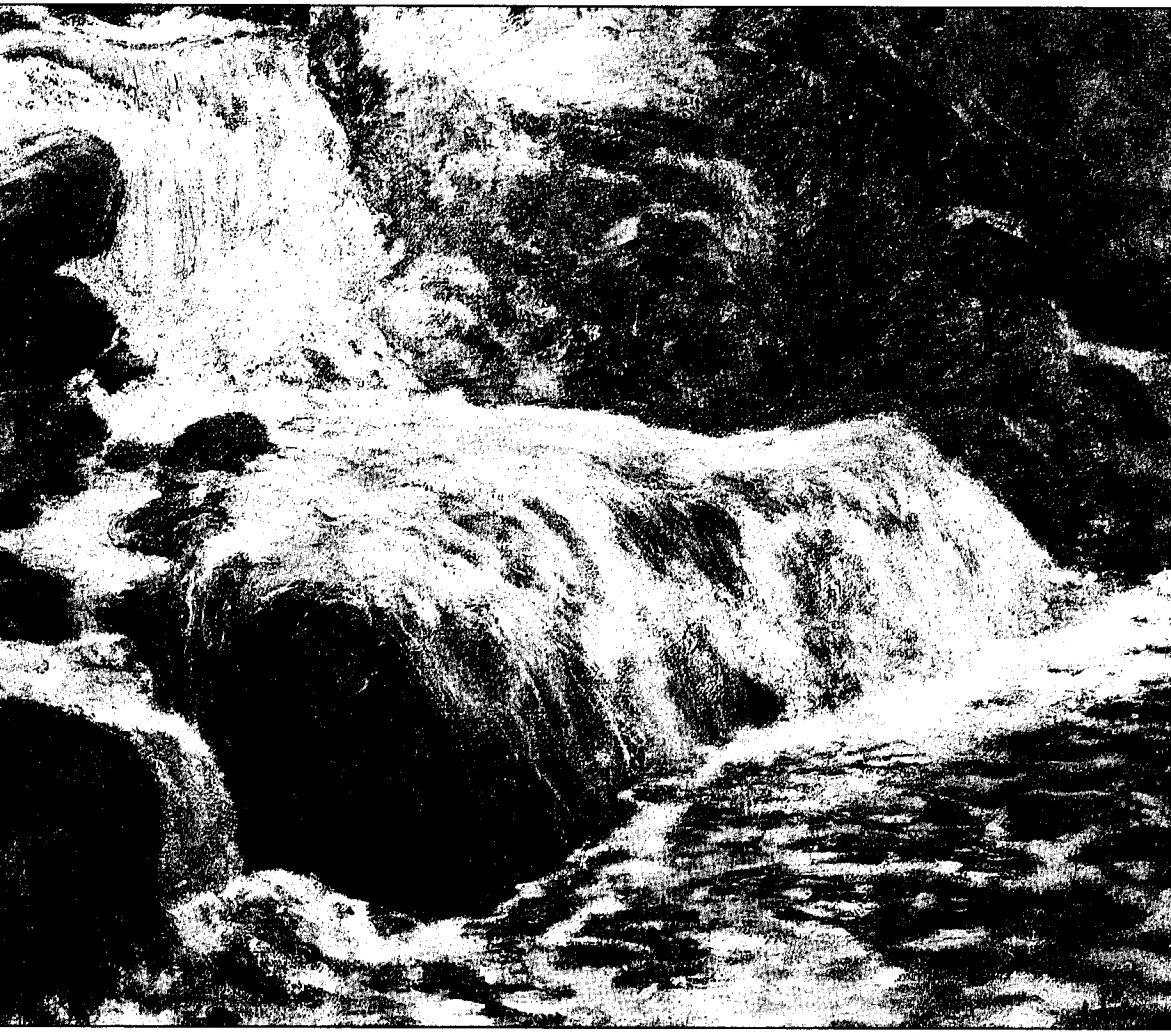
يعترف مؤرخو الفن بأن المدرسة التعبيرية تضم ثلاثة فنانين كبار من أميركا، هم: وليام ميريت تشيز، وتشايلد هسام، وجون هنري تواكتمان. ويعتبر تواكتمان أقل الثلاثة شهرة، وذلك يعود من ناحية إلى أن عدداً كبيراً من أعماله لا يزال متداولاً على نطاق شخصي، ولأنه من ناحية أخرى، ليس فناناً تعبيرياً على وجه الدقة. فقد انطلق تواكتمان من محيط الأشياء ليصل إلى الرفة الشخصية متأخراً.

ولد تواكتمان في سنسناتي عام ١٨٥٣، وكان من مجتمع مدينته المزدهر ذي الجنسية الألمانية الأمريكية. وكخطوة طبيعية اقترن تواكتمان بـ «فرانك دوفنيك»، زعيم مدرسة الفنانين المحليين. وفي عام ١٨٧٥، وهو في الثانية والعشرين، سافر تواكتمان إلى ميونيخ لدراسة الفن، ثم عاد بعد سبع سنوات يحمل معه مجموعة أعماله التي تمثل اتجاهات مقدمة ألمانية. وكانت رسوماته عارمة، كما كانت ألوانه قاتمة.

تواكتمان كما يظهر هنا في لوحة رسمها جوليان ألدن وير، ذو مزاج حالم وصوفي شمالي.

وقد استقر تواكتمان في ضاحية «أفونديل» بسنسناتي لمدة سنة، ثم بدأ - نتيجة تأثيرات ما - بالعمل في مجال الرسم الأرهف وانتهاج طريقة أكثر انعكاساً للتأليف.

في عام ١٨٨٣، رحل تواكتمان إلى فرنسا، وبقي فيها سنتين، متبنياً هناك أسلوباً أكثر رشاقة بتأثير من «ويسلر»



- إن موضوع لوحة «شلال، الجدول الأزرق» عام ١٩٠٠، يستمد تواكتمان من نهر «هورسنيك بروك» الذي يمر عبر مزرعة هذا الفنان ذات السبعة عشر فدانا.

سنوات عمله في غرينتش، إذ إن موضوعها هو الشلال متوسط الحجم في نهر «هورسنيك بروك» الذي يخترق المزرعة ذات السبعة عشر فدانا. فقد استشعر تواكتمان القوة الإبداعية الكامنة لذلك المشهد الفني، مما ساعده على تخطي الاعتراضات على المزرعة، نظراً لصغرها وكونها مزرعة عادية.

ومع مضي الوقت، أجرى صديقه ستانفورد وايت بعض التحسينات على

Whistler وجمالية المدرسة الرمزية المتنامية. ثم عاد إلى أميركا حيث اشترى مزرعة قديمة في غرينتش بكونيكتكوت، وظل يمارس الرسم لعشر سنوات. وبحلول عام ١٩٠٠، انتقل إلى غلوسستر بماساشوسيتس، حيث شكلت رسوماته للسنتين الأخيرتين المرحلة الخامسة والأخيرة من عمله الفني.

إن لوحته «شلال، الجدول الأزرق Water fall, Blue Brook»، تنتمي إلى

المنزل، كالنوافذ البارزة، والرواق ذي الأعمدة، مما أضفى جواً من البهاء على مظهر المسكن.

أما الجدول، والشلال الذي يشكله، والبركة المسيجة بنبات الشوكران، فقد باتت مواضع إلهام محببة للفنان، إذ كان يختلف إليها لعدة فصول، وفي أوقات متفاوتة من اليوم.

وفي النهاية، أقام تواكتمان جسراً لطيفاً من الخشب طلاه بالأبيض عبر الجدول، لكي يضيفي متعة فنية على موضوعاته، إضافة إلى عملية استخدامه معبراً. ومن المحتمل أن الفنان كان يدرك - ويقدم بطريقة مختلفة - شكل الجسر ذي القوس الياباني المرتفع في حديقة الفنان «مونيه Monet» في غيفرني.

وقد أنجز تواكتمان أكثرية لوحاته خلال السنوات العشر التي قضاها في غرينتش في الطبيعة، بما ينسجم وتزمت الانطباعية. زد على ذلك أن هناك صلات تقنية تربطه بالمدرسة الانطباعية، ولو أنها صلات لم تلغ الفروقات القائمة مع ذلك. فلم يعتمد تواكتمان إلى تحليل اللون إلى أجزائه المكونة، ولم يجرب أثار الارتعاش اللوني الذي اقترن بالانطباعية المتقدمة في سبعينيات القرن التاسع عشر. وإذا كان العمل المميز لدى الفنان الانطباعي يغمره الضوء، فقد كانت موضوعات تواكتمان تدور حول المناظر الثلجية والمناظر المحجوبة بالضباب. ولم يكن مزاجه لاتينياً، بل ينتمي إلى الشمال: مزاج حالم، ومُسْتَبْطَنٌ وغامض. وقد تأثر

بلوحات ويسلر الحاملة، بقدر ما أثر فيه مونيه. ويشعر المرء أنه - كويسلر - قارئ للأدب الجديد، مع مؤدى أن رسوماته تمثل نسخة أميركية مميزة عن جمالية المدرسة الرمزية، بصرف النظر عما إذا سمع الرمزيون الفرنسيون به أم لا.

كان الشاعر الانطباعي الفرنسي «مالارمي» يدعو أتباعه لكي «يرسموا الأثر الذي يتركه الشيء لدينا، وليس الشيء بحد ذاته». وهذا يعني على صعيد الشعر والرسم الانتقال بالتركيز من العالم الخارجي إلى النفس، إلى عالم الفنان الداخلي، وهي طريقة بعيدة جداً عن الرسم «الشبكي» المحض للانطباعيين.

ومن الصحيح - على أية حال - أن مونيه نفسه قد انتقل بالضبط بهذا الاتجاه الاستبطاني منذ مطلع تسعينيات القرن التاسع عشر.

أما بالنسبة إلى تواكتمان شخصياً فقد وفرت له المناظر الثلجية التي كان يحب أن يرسمها الفرصة لكي يمثل عالماً ذاتياً يرى فحسب بصورة مجردة حيال ذلك الغموض الأبيض السائد الذي اكتنف الأرض والسماء.

إن لوحة «شلال، الجدول الأزرق» لم تكن أفضل أعمال تواكتمان، لأنها تظهر الشلال في الصيف بادي السطوع، حتى ولو أن جزءاً منه كان يقع في الظل. ذلك ما يذكرنا بالانطباعية. وقد أنجز تواكتمان عمليتين أخريين - على الأقل - حول الموضوع ذاته، لكن من زاوية أخرى،



أحدهما في
الخريف
بعنوان «شلال
صغير Cas-
cade، عام
١٨٩٧، والآخر
في الشتاء
بعنوان «أمطار
يناير Falls in
January، عام
١٨٩٥. وبذلك
يمكن اعتبار
الموضوعات

الثلاثة بمثابة سلسلة دراسية بالمقارنة
بلوحة «مونية Monet، «كاتدرائية روان
Rouen Cathedral». إن كل من يقارن
رسومات تواتكمان للشلال يدرك أن
رؤيته للصيف هي أفضل ما هنالك، نظراً
لنضارة المزج اللوني للأزرق والأخضر
والليلكي والأبيض، مما يوفر متعة
مباشرة للمتفرجين.

كذلك فإن مزج الأزرق والأبيض
الخالصين في مناظر الشتاء، أو ألوان
الخريف البنية والزرقاء الداكنة يمكن أن
تثير الإعجاب كتجريدات قاسية. سوى
أن لوحة «شلال، الجدول الأزرق» تشدّ
النظر مرة تلو الأخرى إلى الانغماس في
وسط مُتَرَف، حيث لا يتنافر الانفعال
الشديد فيه إزاء درجات الحرارة الباردة،
وحيث تكون المتعة معينة من القوة لا
ينضب.

إن كثافة الطلاء للحواشي البيضاء،
حيث يغوص الماء إلى الأسفل، يعيد إلى

الذاكرة حواشي
النسيج الحريري
اللامع للراقصين في
لوحة الفنان
«ديجاس Degas».
وليس مدهشاً إذا
كان تواتكمان -
كديجاس - قد أنجز
بعض أفضل أعماله
بألوان الباستيل.
فالفنانان كانا
يمتلكان القدرة على
إضفاء الجو المناسب،

ذلك الغبش الحسي، الذي يخلفه الباستيل
على لوحاتهما الزيتية.

ونلاحظ هذا الأثر هنا في ذلك الاندفاع
الراقص balletic للماء الأبيض، كما
نلاحظه - أيضاً - في الخضرة الغامضة
المتماوجة التي تحيط بالجدول المائي، وفي
المزج المدوّخ للأزرق والليلكي واليشب
Jade، والأشهب للجدول والبركة السفلى.
ولقد اقتصرت الظلال الداكنة في

اللوحة على تلك الصخور الملونة بدرجات
من البني إلى الأسود، في الجانب الأيسر
منها، فيما كانت الصخرة الوسطى مغطاة
في معظمها بالمياه التي ارتقى أثرها اللوني
إلى حدٍّ بصري «مطلق». فإذا كانت
الصخور تجسد القوى السلبية، فهي
مقهورة بالتدفق المتواصل لجدول يحتل
مساحة تبدأ من أعلى جزء من اللوحة،
وتمتد على طول خط قطري ثابت حتى
يصل البركة في الناحية اليمنى إلى الأسفل،
حيث وضع الفنان اسمه.

باعتبارها مثلاً معاصراً متاحاً عن الأسمى. وحتى هنا، فقد ابتعد تواكتمان عن هذه الموضوعات في أعماله. وبالتالي قدم لنا بدلاً من ذلك نسخة أصغر وأكثر امعانا بالذاتية عن موضوعاته التي رسمها لنهر هورسنيك بروك، ومسقطه المائي.

إن لوحة «شلال، الجدول الأزرق» خيالية، لكن ليس على نمط «السمو الرفيع High Sublime». إذ ثمة اندفاعه للون ناعم يغمر قطعة «الكفا» إلى جانب مهابة الماء الأبيض، وهو مشهد يشارف الطاقات الشبقية بقدر ما يقترب من طهر الروح. ويمكن لنا أن ندعو ذلك بالمصدر الداخلي لقوة الإبداع، ندعوه «حدة الانفعال والحياة المتميزة بالنافورات الداخلية» بتعبير كولردج. وكان «والتر بيتر W.Pater» يسير على هذا التقليد ذاته، عندما أعلن قائلاً: إن جميع ألوان الفن كانت تطمح لبلوغ حالة الموسيقى. وهذه اللوحة توافق مقولته، نظراً لأنها مفعمة بالإيقاع البصري المنظم، وبالانطباع الصوتي الملازم. إن جلبة الماء وحركته - الأشبه بالتلاوين الزخرفية للضحك - تؤلفان وحدة مع الطلاء البهيج، وتقومان مقام جسر لانتقال نظام آخر من الأشياء من «مثال» علوي، لكن على بعد خطوات لاغير.

إنها بصيرة نافذة محمولة إلى فنان متفتح، ينقلها إلينا على شكل لوحة؛ هي قذح بارد من أقذاح «كاستيلا» مشغول بطريقة تواكتمان الخاصة.

وهناك ما هو غير الماء، أو حتى الطلاء، قد امتد نزولاً من الفسحة العليا إلى السفلى. ونحن نشعر، أكثر مما نفهم، أن الجسر الأبيض في رسومات تواكتمان في عام ١٩٠٠ حول هذا الموضوع، إنما يربط الناظر بشيء يتجاوز الجانب الآخر من منظر نهر «هورسنيك بروك»، إن الجسر يتبع قطعاً يشبه قطر الشلال، في حين أن الماء والجسر في تلك اللوحات يعتمدان على الإمكانيات البصرية المتوافرة في الطلاء الأبيض.

لقد ظل الشعراء والفنانون باستمرار يقرنون رمز النافورة بالطاقات الإبداعية المتدفقة، ابتداء من نبع كاستاليا في جبل «بارناس Castalia Spring». و«النافورات Fountains» التي تتضمن الينابيع الطبيعية، إضافة إلى النافورات الصناعية والمساقط المائية للأحواض. والواقع أن الطراز البدائي ينطبق على أي ضرب من ضروب التدفق المائي الذي له من القوة ما يجعله مثيراً للإعجاب.

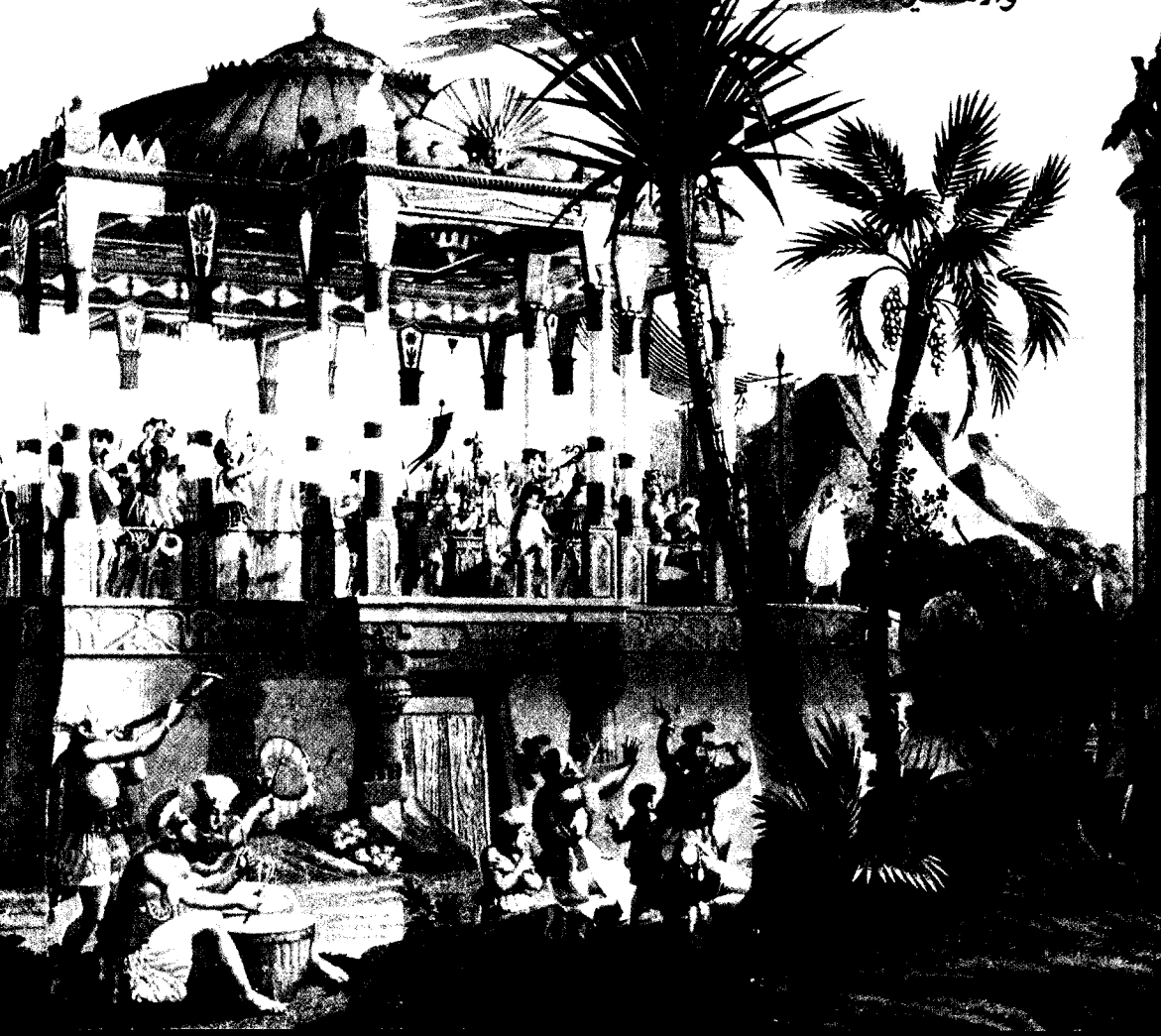
في مطلع التسعينيات من القرن التاسع عشر قُدم لتواكتمان تفويض لكي يرسم شلالات نياجرا، الشلالات التي بقيت - حتى اكتشاف «غراند كانيون» - أهم مصدر طبيعي من مصادر السياحة. وقد رسم في عام ١٨٩٥ - بتفويض مماثل - سلسلة من الموضوعات في منطقة يلوستون، ومن بينها المساقط المائية والبحيرات الحارة. وهذه الرسومات تستحوذ على شيء من الرهبة لديه أمام طبيعة لاقت احتفاء العديد من الرسامين

الفيلانيات

د. جاب الله علي جاب الله

رئسارد ج. كليفور

لا ترسم المصادر الأولية للديانة الفينيقية صورة مرضية عنها ، إذ إن
أكثر من ستة آلاف نص متوافرة لدينا لا تذكر سوى آلهة ، وأتباع وطقوس ،
والتقدم تقديم تفسيرات واضحة للكشوف الأثرية ، ويتعين على العلماء
استخدام استخلاص مادة علمية غير فينيقية (من أوغاريت ،
والمواثيق الهلنستية لفيلون الجبيلي) ، للاستعاضة عن
المصادر الأصلية المحلية في الصلوات وأثبات الآلهة
والأسماء



تؤدي لها ، ولا تسجل تراتيل أو صلوات أو أثباتاً بأسماء الأرباب، أما الأسطورتان أو النسقان الدينان المتصلان بالموضوع والذان يردان في النصوص الأوغاريتية وفي التاريخ الفينيقي لفيلون الجبيلي Philo of Byblos فإنهما يلمسان طرفي الحقبة التي شهدت ازدهار الحضارة الفينيقية (١٢٠٠-٣٣٢ ق.م).

كتبت نصوص أوغاريت (رأس الشمر) * الدينية قبل عام ١٢٠٠ ق.م، وبالكشف عنها ثم بنشرها توافر لدى العلماء أكبر مجموعة من النصوص الدينية المكتوبة بلغة سامية غربية فيما خلا الكتاب المقدس، وتتضمن هذه النصوص ستة رقم رئيسية تحكي عن حروب الإله بلع وعن غرامياته (وهي بذلك تقدم تفسيراً للنظامين الطبيعي والسياسي) ؛ كما تتضمن قصتين عن بعض الملوك وعلاقاتهم بعالم الآلهة، فضلاً عن العديد من الشذرات الأسطورية المتنوعة، وتعد النصوص الأوغاريتية أكثر بكثير من النصوص الفينيقية ، مما قد يغري الباحث على ملء الفراغات التي تشغل هذه الأخيرة مما توردته رُقْم أوغاريت، غير أن التباين الجوهري بين هاتين المجموعتين من النصوص، يجعل من المستحيل افتراض

كان لكل مدينة فينيقية كبرى نصيب ملحوظ من الديانة العامة المشتركة، وكان من بين العناصر المشتركة هذه: مجامع الآلهة ، وارتباط الإله بمظهر من مظاهر الطبيعة السائدة، والآلهة التي تلقى حتفها ثم تعود للحياة مرة أخرى، والأعياد الجنائزية (المرزياح التوراتية)، والتضحية بالأطفال.

أولينا اهتماماً خاصاً لبعض الملامح المميزة للديانة في كل من صور وصيدا وجبيل والمستعمرة الصورية في قرطاجة، وبخصوص صور وقرطاجة فإن القرائن الواردة في معاهدتين دوليتين (وهما على التوالي معاهدة بلع الصوري مع آشور في القرن السابع ق.م ، ومعاهدة هميلكار مع مقدونيا في القرن الثاني ق.م) تمدنا بمعلومات جديدة عن المجامع المحلية للآلهة.

تعرض أي دراسة للديانة الفينيقية عقبة كبيرة، إذ إن المادة المصدرية الأولية لهذا الجانب الحضاري الذي يمكن عن طريقه فتح مغاليق المجتمع الفينيقي وثقافته، تعاني من نقص شديد، فالنصوص الفينيقية والبونية التي يزيد عددها على الستة آلاف نص لا تذكر ، بصفة عامة ، سوى أسماء الآلهة وأسماء أتباع لها وبعض من الطقوس التي كانت

العنوان الأصلي للمقال :

Richard j. Clifford, "Phoenician Religion" Bulletin of The American Schools of Oriental Research, No. 279 (August 1990), pp.55-64.

* كانت أوغاريت (حالياً رأس الشمر إلى الشمال من اللاذقية) أحد المراكز الحضارية الرئيسية في سوريا ابتداء من الألف الخامسة ق.م، وقد بلغت أوج ازدهارها فيما بين بداية القرن الخامس عشر ونهاية القرن الثالث عشر ق.م (المترجم)

ساكونياتن Sakkunyatn ، شخص غامض من الماضي السحيق، فضل الكشف عن تاوتوس، وتشمل كتابات فيلون النظام الكوني Cosmology وتاريخ الحضارة ، وتاريخ كرونوس ، وبعض روايات عن حكام متأخرين، وتوضيحات بشرية، وثعابين ؛ ويرى العلماء في هذا العمل آراء متباينة كل التباين، ففيما قبل الكشف عن نصوص أوغاريت عام ١٩٢٩، والتي أيدت قِدم بعض معلومات فيلون، كان الرأي العلمي العام يشكك في صدقه، أما الآن فقد تحول الرأي إلى احترام فيلون، رغم أن أحدث دراستين عنه (Attridge and Oden 1981) Baumgarten (1981) تفسرانه على أنه عمل هليينستي صرف، فمع أنه يحتوي على ذكريات حقيقية ، لا يمكن استخدامه دليلاً على الديانة الفينيقيّة ، والأدلة على أن التاريخ الفينيقي عمل هليينستي، وبالتالي متأخر هي : غياب المصدر الذي اعتمد عليه واستحالة الاهتداء إليه، وسيطرة النظرية اليوهيميرية* على تفسيراته (وهي النظرية التي داعت في القرن الرابع ق.م. وفحواها أن الآلهة لم تكن سوى بشر خلعت عليهم الألوهية بعد وفاتهم نظراً لما حققوه من منجزات)؛ والاهتمام الهليينستي المعروف بالبحث في أصول الحضارة، وأخيراً ما يظهر في الكتاب من تأثيرات أسطورية يونانية

Attvidte and oden 1981: 7-9 ؛ إن

الطعن في أي من هذه المعايير على حدة أمر وارد ، لاسيما القول بثنائية سامية- عمل هليينستي صرف، فمع أنه يحتوي على ذكريات حقيقية ، لا يمكن استخدامه دليلاً على الديانة الفينيقيّة ، والأدلة على أن التاريخ الفينيقي عمل هليينستي، وبالتالي متأخر هي : غياب المصدر الذي اعتمد عليه واستحالة الاهتداء إليه، وسيطرة النظرية اليوهيميرية* على تفسيراته (وهي النظرية التي داعت في القرن الرابع ق.م. وفحواها أن الآلهة لم تكن سوى بشر خلعت عليهم الألوهية بعد وفاتهم نظراً لما حققوه من منجزات)؛ والاهتمام الهليينستي المعروف بالبحث في أصول الحضارة، وأخيراً ما يظهر في الكتاب من تأثيرات أسطورية يونانية

وجود استمرارية للديانة الأوغاريتية في ديانات المدن الفينيقية والبنونية، ولكن حتى لا تميل كفة الميزان كل الميل نحو التشكك، ينبغي علينا أن نضع حقيقة مهمة نصب أعيننا ألا وهي: أن النصوص الأوغاريتية تسجل أساساً أساطير ناضجة، في حين تسجل النصوص الفينيقية والبنونية ممارسات دينية لطبقات اجتماعية (غالباً ملكية وعليا) في دويلات مدن مختلفة، ونظراً لطبيعة هذه المصادر (الأساطير في مقابل الممارسات) ، يتوقع المرء أن يجد خلافات جوهرية بين مجموعتي النصوص هاتين، حتى ولو كانتا تعبران في الأساس عن الديانة ذاتها.

وفي الطرف الآخر من تاريخ فينيقيا ، نجد كتاب فيلون الجبيلي « التاريخ الفينيقي» الذي وُضع في نهاية القرن الأول أو بداية القرن الثاني للميلاد، وقد جاء متضمناً (بدقة في نظر العلماء) في الكتاب الأول من المؤلف المدخل إلى الإنجيل Præ Paratio evangelic ليوزيبوس

القيصري Eusebius of Caesrea ، وهو واحد من آباء الكنيسة في القرن الرابع الميلادي. ويدعى فيلون أنه أنشأ كتابه ليصحح المصادر اليونانية التي اعتمدت على الكهان الفينيقيين الذين كانوا مغرمين بكل ما هو رمزي وخارق، ويدعي كذلك أن مصدره النهائي هو تاوتوس Taotus (تحريف للاسم المصري تحوت) وينسب إلى



اليونانية مبكرة ، ولكن هذه المعايير في مجملها تدعو إلى توخي الحذر في اعتبار كتاب فيلون مصدراً معتمداً للديانة الفينيقية المبكرة.

التنقييات (مثل المعابد، والقبور، والنصب) لا تعطي معاني متصلة إلا اذا كانت مرفقة بأدلة كتابية ، والأدهى من ذلك أن الآثار المكتوبة غالباً ما تسجل، بحكم طبيعتها ، بيان الأسرة المالكة وأثرياء القوم وتهمل معتقدات عامة الناس الذين لا يخلفون أثراً تذكر، ولذلك فمن المحتمل أن تكون ديانة العامة قد ضاعت إلى الأبد؛ وثمة مثال آخر على ضلال الشواهد يأتي من الآثار الجنائزية الباقية والظاهرة للعيان، فإنها بأحجامها وبأعدادها قد تعطي انطباعاً بأن الفينيقيين قد أولوا ديانة الموت اهتماماً أكثر من الديانة الحية؛ وهكذا فإن طبيعة

أما المصادر الأخرى. مثل المعلومات التي أوردها كُتّاب يونانيون ولاينيون، أو التي جاءت في الكتاب المقدس، فإنها متناثرة، ومنها ما يدين بعض ممارسات الديانة الفينيقية، خاصة عادة التضحية بالأطفال، ولكن رغم ما بها من نقص في المعلومات وما يعتورها من انحياز أحياناً، فإنها تقدم روايات ومعلومات تاريخية تفقر إليها المصادر الأخرى، ومن جهة ثانية فإن الآثار التي تكشف عنها

الثقافة العالمية

المصادر تدعونا إلى الحيطة والحذر.

لفيلون على الديانة الفينيقية تقابل برفض عام من قبل العلماء.

ان غياب المعلومات التي تساعد على تكوين صورة عامة للديانة الفينيقية ما هو إلا واحد من الأسباب التي دفعت العلماء إلى التركيز على الصورة المحلية أكثر من الصورة القومية، أما السبب الآخر فيمكن في طبيعة فينيقيا نفسها، اذ لم تكن في يوم من الأيام إمبراطورية توسعت نحو الغرب، بقدر ما كانت مجرد مجموعة من دويلات المدن (ومستعمراتها) التجارية والمحصورة في شريط عتيق، وأهمها (من الشمال إلى الجنوب) أرواد، سومور، طرابلس، جبيل، بيروت، صيدا، وصور، أما دويلات المدن السورية الفلسطينية المذكورة في رسائل العمارة (خلال القرن الرابع عشر ق.م) * فقد استمرت قائمة وربما ازداد تلاحمها الحضاري نتيجة للتقارب الذي فرضه عليها، بصفة عامة، مقدم شعوب جديدة فيما بين نهاية عصر البرونز المتأخر وعصر الحديد المبكر، وتشدد الآثار الكثيرة للديانة الفينيقية، والتي كشف عنها الأثريون خلال القرنين الأخيرين، على أهمية التركيز على التنوع المحلي، مثل الآلهة المختلفة لكل مدينة (الإله «ملقارت» في صور، والآلهة «عشتارت» والإله «اشمون» في صيدا)، وتدل مجامع الآلهة المتباينة، بين ما تدل، على أنساق وممارسات متباينة بالضرورة، ولذلك فإن أية محاولة لرفض أنساق مأخوذة عن النصوص الأوغاريتية أو التوراتية أو عن التاريخ الفينيقي

العناصر المشتركة

في الديانة الفينيقية

سنناقش في هذا الجزء من البحث عدداً من العناصر المشتركة، أي الظواهر التي تظهر في أماكن مختلفة، ثم نتبع ذلك، في الجزء الثاني، بشرح الديانة المحلية لكل دويلة مدينة على حدة.

مثله مثل أدب أوغاريت وأدب بلاد
النهرين والكتاب المقدس، تخيل الأدب
الفينيقي أن الآلهة مارسست حياتها مثلما
يفعل البشر في مجتمعاتهم، فكانت تجتمع
دورياً لتتشاور فيما بينها ولتتخذ
القرارات المصرية لبني الإنسان ، وكثيراً
ما تظهر في الأدب مجامع الآلهة ، وأحياناً
ما كانت الآلهة تنسب إلى مدينة معينة،
وكان بالإمكان التوجه بالدعاء إلى مجمع
الآلهة المدينة برمته كوحدة واحدة مستقلة
عن بقية الآلهة المدينة : «مبخرة ال جبل قد
شم = مجمع آلهة جبيل المقدس».

(kai 4.4-5;cf. KAI 10.10,16) و «كل در
بن الم = كل مجمع أبناء الآلهة» (KAI
26. iii. 19) وتأتى الكلمة الفينيقية

«مجمع» بنفس المعنى وفي نفس السياق
كما هو الحال في الأدب الأوغاريتي ، وفي
النصوص المسجلة يجري التضرع إلى
المجمع بعد التضرع إلى الآلهة ، كل على
حدة، مما يوحي بأن الآلهة هيمنت على
المجمع، أو على الأقل تقدمت عليه ، فكما
هي الحال في الشرق الأدنى القديم،
صورت المجمع باعتبارها تالية للآلهة
الفردية، هذا على الرغم مما يبدو من أن
موافقة المجمع كانت ضرورية عند اتخاذ
القرارات المهمة.

وكما كان الحال في أوغاريت ، يمكن
أن يكون اسم الإله لقباً كذلك ، فمثل
«ال» يمكن أن يكون «بعل» لقباً بمعنى
«سيد، رب» أو اسم إله محدد أكثر مثل «
بعل صفون» (إله العاصفة المقيم فوق
جبل زبون جنوبي نهر العاصي) و «بعل

ملاغي » (إله غامض الهوية ولربما كان
راعي الجرف) ، «وبعل لبنان» (إله
مرتبط بالجبل) ، و«بعل أدير» («بعل
الجبار» الذي ظهر في جبيل في القرن
الخامس ق.م وفي افريقيا فيما بعد)،
و«بعل مرقود» («رب الرقص» ويحتمل
أنه كان رباً للشفاء) ، و«بعل حمون» (رب
جبل أمانوس في شمال سوريا، وانتشرت
عبادته في قرطاجة)، و«وبعل صور»
و«بعل صيدا» ، و«بعل مجنم» (وهو لقب
غير واضح ولربما كان مساوياً للإله
رشب) ، وكما يظهر من هذه القائمة ، فإن
الإله كان يرتبط بمكان ما، وغالباً ما
يكون مكاناً متميزاً بظاهرة طبيعية
ملحوظة كجبل عالٍ ، أو نبع جارٍ ، ومن
هنا جاء بعل الجبال: أماتوس، صفون،
لبنان، الكرمل. وتدل الشواهد كذلك على
وجود آلهة للنجوم ولكنها لم تكن شائعة
في فينيقيا كما كانت شائعة في أوغاريت.

ويتبادل العديد من الآلهة وظائفهم ،
وهي مرونة تظهر في مختلف الآلهة
المصرية واليونانية واللاتينية المناظرة
للآلهة الفينيقية، ويمكن لإله سامي أن
يتوحد أو يندمج مع عدد من الآلهة
الأجنبية، وكان الاندماج يتم بناء على
وجود عنصر مشترك يجمع بين الإلهين،
فعلى سبيل المثال كانت «بعلة» ربة جبيل
تصور برموز القرنين وثعبان الكوبرا
المتزوج، وهي رموز الرببة
المصرية «حاتحور- إيزيس» التي اتحدت
معها لقرون مديدة، وكان «ال» بجناحيه
(كما كان يصور على قطع العملة

الهليستية) يعتبروا حداً هو والإله المصري «رع» وكمثال على «أغرقة» إله سامي الأصل فإننا نذكر «أدونيس» وهو اسم مشتق، كما هو بين، من الاسم السامي «أدون» أو «أدونا» بمعنى «رب»، ولا يظهر أدونيس في النصوص الفينيقية أبداً باعتباره اسم علم، وقصته معروفة جيداً من المصادر اليونانية واللاتينية: أدونيس، الشاب الجميل الذي جاء إلى الوجود ثمرة علاقة محرمة، وكان موضوع خصام بين الربتين أفروديت وبرسيفون، وقتله حلوفاً برياً عندما كان في رحلة صيد، ثم صار محوراً لطقوس الحداد، وطبقاً لما جاء في كتاب لوسيان: الربة السورية De Dea Syr-ia Lucian، (من القرن الثاني للميلاد)، كانت تقام احتفالات كبرى في جبيل تخليداً لذكراه، ولكن الاحتفالات الإغريقية كانت تختلف اختلافاً واضحاً عن احتفالات جبيل، ويشير نص إغريقي من القرن الرابع ق.م إلى أنه كان يسمح لقبارصة أثينا أن يحتفلوا بموت «أدونيس» «طبقاً لعادات وطنهم» وهكذا تكون أسطورة «أدونيس» نموذجاً للأساطير والشعائر التي نسجت في العالم، الإغريقي حول إله من أصل سامي.

كانت الآلهة التي تموت ثم تعود للحياة آلهة مهمة، ونعرف منهم ثلاثة كانوا يعبدون في ثلاث مدن مختلفة وهم: «أشمون» في صيدا (وهو سكلابوس عند الإغريق)، و«أدونيس» في جبيل،

و«ملقارت» في صور (وهو هرقل اليوناني)، ولم يُعرف أي منهم قبل الألف الأولى ق.م وعلى ذلك فإن بداياتهم الأولى لاتزال مجهولة.

يشير اسم «ملقارت» (= ملك + قارة «مدينة») إلى خاصية الإلهة المحلية، هذا إذا كانت كلمة «مدينة» يقصد بها العالم السفلي كما يرى بعض العلماء، ويرتبط «ملقارت» بالأساس بمدينة صور حيث تظهر عبادته فجأة في القرن العاشر ق.م، أما اندماجه مع هرقل الإغريقي فقد حدث مبكراً، ففي إحدى الروايات قيل عنه إنه ابن زيوس وأستيريا (عشتارت)، أما في رواية فيلون الجبيلي فهو «هدد-دماروس» Hadad-Demarus وسليل أو Uranus، وطبقاً لبعض الكتاب الإغريق، فقد عاد إلى الحياة عندما جعله صديقه يولوس Io-laushم رائحة فرخ سمّان مشوي، وفي كل عام كان يجري احتفال بقيام «ملقارت» في صور، وفي غيرها من المدن، في حضرة الملك إبان القرن العاشر ق.م، ورغم شعبيته، فإن صورته المادية غير مؤكدة، فأقدم تصوير له نقش على نصب من بيرحداد ويصوره ومعه رموز «بعل» رب العاصفة، في حين تظهره صور أخرى ومعه رموز هرقل.

كان «أشمون» رب مدينة صيدا، وفي نص من القرن الخامس ق.م يقول الملك «أشمون-أزار» (أشمون هو المؤازر) عن نفسه وعن أمه (ويدعوها كاهنة «عشتارت»): «نحن الذين أقمنا بيتاً

النقوش الثلاثة إلى أن الولايم كانت تقام من أجل إله معين في معبد بذاته، وإلى أنها كانت تشهد احتساء الشراب (كأس البرونز) وتقديم القرابين لتخليد ذكرى الموتى، ونحر الأحناس، وجمع الأموال، وأنها كانت تقام سنوياً من قبل روابط محلية للتجار، ويضيف الكتاب المقدس إلى هذا بعض التفاصيل المثيرة، إذ يشير سفر عاموس (١:٦-٧) وسفر هوشع (١٩-٧) وسفر أرميا (١٦:٥-٩) وغيرها من الأسفار إلى ولاء منتظمة كأمثلة على السلوك المنحرف عن الدين، وكان النبي عاموس الذي عاش في القرن الثامن ق.م شديداً في حكمه على هذه الأعياد لأنها كانت تمول من أموال مأخوذة من الفقراء (Peckhem 1987:82-3).

ويشهد على الانتشار الواسع لممارسة السحر تعويذتان من القرن السابع ق.م، وجدنا في أرسلان تاسن (KAI 27Arslan) و«موجهتان إلى كل من «سمسم» Sasam و«حورون» Horon بغرض الحماية ممن «يطيرون» و«يخنقون» في أثناء الليل وإلى الإله «بعل» طلباً للحماية من شيطان الثعبان مزة: «تعاويز: أيتها الطائرات، الربيات / أي سسم ابن بدريشيشا Pidrisisa، الرب، أي خانقي الحملان: / البيت الذي أدخله لن تدخلوه / والفناء الذي أطؤه، لن تطأوه. / لقد عقد الواحد الباقي ميثاقاً معنا، / وعقدت عشيرة (عهدا) معنا، / وكذا كل أبناء «ال»، / وعظيم مجلس

لأشمون، الأمير المقدس، عند نبع يدلل في الجبل، وأقمناه في السماوات العلى» (ربما هي من أحياء المدينة) (KAI 14.15-16) وتأتي معظم النقوش المكرسة لأشمون من التنقيبات الأثرية في معبد شيدته له هذه الأسرة الحاكمة، ومثل كل من «ملقارت» و«أدونيس» كان «أشمون» يموت ثم يعود للحياة، ويقول «باوسانياس» Pausanias، الكاتب الإغريقي، مستشهداً بمصدر من صيدا، أن اسكلابيوس الفينيقي (أشمون) انحدر من إله للشمس ومن امرأة خالدة، وكان ينظر إليه على أنه إله للشفاء، أما «دماسكيوس» Damascius فيجعل قصته مثل قصة «أدونيس»، إذ يلقي ميتة عنيفة ثم يرفع إلى مرتبة الإله الدائم.

وتعتبر الولايم أو الأعياد الجنازية (مرزح، وبالعبيرية مرزياح) دليلاً آخر على الاحتفاء بالموتى، وهناك ثلاثة نقوش تمس هذه النقطة، واحد منقوش على كأس من البرونز يفترض أنها جاءت من إقليم صيدا، وتعود إلى بداية القرن الرابع ق.م، وكانت مكرسة «لوليمة الشمس» ونقش معاصر من مارسيليا يطلب في تعليماته الطقسية هبات للكهنة من كل عشيرة أو أسرة أو تجمع، أو من أحناس القربان، وقد استثنى الفقراء من تقديم هذه الهبات، أما النقش الثالث فيرجع للقرن، الأول ق.م وقد عثر عليه في أثينا، ويذكر اسم قائد الوليمة، ومن الجدير بالملاحظة أن هذا النص الأخير مؤرخ باليوم الرابع من أيام الوليمة وتشير

كل المقدسين، / بقسم بالسماء والأرض
العتيقة، / وبقسم ببعل، رب الأرض،
/ وبقسم بحوران صادق الكلم، /
ومحظياته السبع، / وزوجات بعل
قدش الثمان».

(Cross and Saley 1970:44-45; Cross
1974 : 486-90)

وتدعو تعويذة أخرى من قرطاجة،
وتعود للقرن الثالث، الإلهة حوّ لتشمل
الداعي بقوة سحرها (KAI 89) إن أشهر
عادة من العادات الدينية بالفينيقية،
وأسوأها سمعة، هي عادة التضحية
بالأطفال، فقد ذكرها الكتاب المقدس
وكتاب العصر الكلاسيكي، وكانت شعيرة
«تمرير الأطفال خلال النار» معروفة في
إسرائيل القديمة (أنظر سفر الملوك الثاني
٣:١٦؛ وقارن ٢٣:١٠؛ سفر أرميا ٣١:٧
، على سبيل المثال ، رغم أن الشريعة
التوراتية أدانت هذه العادة بوضوح
(اللاويون ٢١:١٨) وتوجد كذلك شواهد
أثرية وفيرة على ممارسة هذه العادة، وإن
كانت كل القرائن تأتي من المستعمرات
الفينيقية، ففي قرطاجة عُثر على ملايين
عن ٢٠ ألف جرة بها عظام أطفال
وحوانات مدفونة في توفت (اللفظة
التوراتية لأماكن الدفن)، على مدى ٦٠٠
سنة؛ كانت بعض الجرار تحتوى على
عظام حيوانات فقط (مولك-عمّور=
التضحية بحيوان) ؛ أما الباقي فقد
احتوى على عظام أطفال أو عظام
حيوانات وأطفال، وكانت كلها محروقة،
أما الجبانات العادية فكان بها بقايا

أطفال، إما محروقة أو مدفونة، وقد
أعيدت دراسة عادة التضحية بالأطفال في
فينيقيا وقرطاجة وإسرائيل في السنوات
الأخيرة دراسة دقيقة، واتضح أن
التضحية كانت عادة استثنائية وإنما بالغ
في تضخيمها كتاب معادون، أما التوفت
(مكان الدفن) فلم تكن سوى مقبرة
للأطفال الذين ماتوا ميتة طبيعية، ثم
قدموا كقربان للالهين الرحيمين
«تانيت»، «بعل-حمون» أما الطقس
التوراتي «المرور خلال النار» فكان يعني
المرور بين النيران، وكان طقساً شعائرياً
أكثر منه تضحية حقيقية (Wenfeld

1972; Benichon-Safar 1982; Moscati

120-123; Ribichini 1988; 1987)، غير

أن مراجعة الدراسة هذه لم تمر دون
معارضة (Smith; 1984; Stager and wolff

1975)، فمن بين القرائن التي استشهد

بها أصحاب فكرة المراجعة أن «التوفت»
كانت جبانات عادية لدفن الأطفال، وذلك
لأن عدد دفنات الأطفال في جبانات
قرطاجة كان قليلاً بالقياس على عدد
دفنات غيرهم ، ولكن هذا القول مرفوض
لأن القلة النسبية لعدد دفنات الأطفال
خاصية تظهر في الجبانات القديمة في
أماكن أخرى، إذ يبدو أن طرق التعامل
مع جثث الأطفال كانت تختلف عن طرق
التعامل مع جثث البالغين، وتدل القرائن
الأثرية على أن عادة التضحية بالأطفال في
قرطاجة أمر محقق، كما أن الانتقادات
الواردة في الكتابات التنبئية والتاريخية
تدل على ممارسة هذه العادة في إسرائيل،

على الأقل في بعض الأحوال، وإذا كان من الصعب إثبات ممارستها في فينيقيا نظراً لتعسر إجراء تنقيبات أثرية في المدن القديمة، فإن بإمكاننا القول بأنها كانت تمارس من حين لآخر، وتوحي المعلومات التاريخية والاجتماعية المتوافرة في أماكن أخرى من العالم القديم بأن توضحية الفينيقيين بالأطفال لم تكن مجرد شعيرة دينية وإنما كانت آلية من آليات الحد من التزايد السكاني، إذ كانت التوضحية ببدائل من الحيوانات تقل كلما ازدادت أعداد السكان في قرطاجة.

ولا يشي شيء بأسرار ثقافة ما مثلما تشي أساطير خلق الكون أو روايات الأصول الأولى، حيث إنها تفسر معاني العناصر الأساسية للعالم، ومن سوء الحظ أن شواهد أساطير خلق الكون في الديانة الفينيقية تقتصر على بعض النصوص الملغزة الواردة في كتابات فيلون الجبيلي، وفي العبارة التي تقول: «ال قن ارض» بمعنى «ال خالق الأرض» وترد هذه العبارة في سياق نص لعنة من القرن الثامن نطق بها «أزيتوآدا» Az-itawadda ملك أونة: «بعل شمم وأل قن أرس/ وشمش علم» = «بعل شميم وال خالق الأرض، والشمس الدائمة» (KAI 26.III, 18-19) وترد كذلك في نص

تكريس من ليبتس ماجنا Leptis Magna، يعود للقرن الثاني (KAI 129-1)، وفي الكتاب المقدس يرد اللقب المماثل «خالق الأرض» في سفر التكوين ١٤: ١٨* «ال عليون قونه شمايم وأرس» = «ال عليون

خالق السماء والأرض» وهو لقب أطلقه على يهوه «ملكي صادق» ملك سالم (أورشليم = القدس) وهو ينزل بركاته بإبراهيم، وفي الكتابات الفينيقية يمكن أن يأتي الإنسان كفاعل لفعل «قان» (ففي KAI 25، يخلق «قن» الملك أزيتوآدا - Az-itawadda شيئاً «صولجاناً؟» لتقديمه كقربان)، ولكن في كل العبارات التوراتية الخمس نجد أن فاعل الفعل هو الله (تكوين ١٤: ١٨، ١٩؛ المزامير ١٣٩: ٣١؛ الأمثال ٨: ٢٢؛ التثنية ٣٢: ٦).

ويروي فيلون الجبيلي عدداً من أساطير خلق الكون، وتذكرنا أولاهما بما جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين: يذكر أن أصل الكون كان مثل غاز قاتم يشبه الريح، أو مثل تيار من الغاز الداكن، وفوضى CHAOS مشوشة مظلمة، وكانت الأشياء بالحدود، وظلت لأزمان طويلة بلا نهاية.

يقول: «عندما جرفت الرغبة الريح نحو مصادرها، وجاء إلى الوجود مزيج، سمي هذا المزيج رغبة، وكان هذا هو بدء الأشياء وإن لم تكن قد وعت خلقها، ومن مزيج هذا، خلق موت (اللفظة ذاتها وليس إله الموت الكنعاني)، ويقول البعض إن هذا هو الطين، بينما يقول آخرون إنه خلاصة المزيج الرطب، ومن هذه المادة خرج كل بذرة خلق وبدء الكون (=المخلوقات Zoogony).

كانت هناك مخلوقات بدون إحساس، ومنها جاءت مخلوقات عاقلة سميت «زوفسمين» Zophasemin بمعنى

«مراقبي السماء» وقد تشكلت في هيئة البيضة ، وتجل موت مع الشمس والقمر والنجوم والبروج الكبرى (Attridge). (7 : 1984 and oden)

وهناك أساطير أخرى عن خلق الكون وعن أصول الآلهة متضمنة على شكل شذرات متناثرة في التاريخ الثقافي وفي تاريخ كرونوس ، ولكن يصعب استيعابها استيعاباً كاملاً ، ولذلك فمن العسير مضاهاتها بمثيلاتها.

ويضمن فيلون أساطير خلق الكون رواية عن أصول الحياة النباتية والحيوانية Zoogony ويذكر عدداً من مؤسسي الحضارة ، وتشير كل من ملحمة أتراخاسيس* والخلق الرافديتين إلى مثل هذه التصورات في رواياتها عن خلق العالم ، فلقد اهتمت أساطير الخلق القديمة بنشوء المحيط البيئي والثقافي في مجمله ، وليس بمجرد الكون المادي .

الديانة الفينيقية في المدن

لا يمكن فهم عناصر الديانة في دويلات المدن الفينيقية إلا إذا أحيط بالملامح العامة المشتركة حتى ولو بصورة مبسطة ، وفي الجزء التالي من البحث سيكون هنا هو العرف على مجامع الآلهة في المدن .

إثر عودة الانتعاش إلى صور على يد الصيدائوين خلال القرن الثاني عشر ق.م ، صارت أقوى مدينة في العصر الفينيقي المبكر حتى وصلت إلى أوج ازدهارها في عهد الملك حيرام (الذي كان معاصراً كلا من داود وسليمان) ، وفي عهود خلفائه من

بعده ، حتى منتصف القرن الثامن من ق.م وبسبب هذه السطوة كان الفينيقيون يدعون لدي العامة بالصيدائوين حتى بعد نهاية العصر الذي شهد ذروة سطوتهم ، وقد وصلتنا نقوش صورية ، ولكن ليس من مدينة صور نفسها وإنما من المدن التابعة لها والمحيطة بها.

في رأي جمهور العلماء أن «ملقارت» كان هو الإله الرئيسي لمدينة صور ، وتروي الحوليات الصورية أن الملك حيرام شيد معبداً جديداً «للمقارت» و«عشتارت» في القرن العاشر ق.م ، وكان هو أول من احتقل «بصحوته» .

(Josephus, Contra Apioneni, I.118-119, Jewish Antiquities, viii, 146) وتؤخذ كلمة «الصحوة» دليلاً على أن «ملقارت» كان إلهاً يموت ثم يعود للحياة ، ولا تتوافر لدينا قرائن على وجود هذا الإله (مثل غيره من الآلهة التي تموت ثم تقوم) في الألف الثانية ق.م ، وإنما أقدم دليل مكتوب على وجوده هو نقش بير حداد الآرامي (KAI201) من القرن التاسع ، وقد وجد على مبعدة ٧ كم شمالي حلب ، ويصور المنظر المرافق للنص «ملقارت» لابسا قلنسوة يعلوها قرنان ومعه بلطة القتال التي كانت تظهر في العادة مع الإله «بعل» (Piltard 1972:36-42 cross) (1988) ولربما كان حيرام قد أجرى

إصلاحاً دينياً رفع بمقتضاه «ملقارت» إلى مرتبة الإله الرسمي للأسرة الحاكمة ، ولهذا ولربما صار ملقارت بمثابة العنصر

حرمون» هو نفس الإله الذي ذكر الكتاب المقدس أنه الإله الفينيقي (القضاة ٣: ٣، 484-1967: 7-20.1941: DeVaux 97.

على أية حال فإن فكرة احتلال الإله «ملقارت» لمكانة الصدارة في صور يناقضها ما جاء في المعاهدة التي أبرمت في القرن السابع ق.م بين أسر حدون «الملك الأشوري» وبعل ملك صور، وقد كان من القواعد الصارمة في معاهدات الشرق الأدنى القديم ضرورة كتابة أسماء الآلهة الرئيسية للإقليم في المكان الأول. وتبعاً لذلك، فقد احتل المكان الأول في المعاهدة، بعد الآلهة الآشورية السبعة، اسما الإلهين «بيت -ال» و«عناث - بيت -ال» وعلى الرغم من وجود بعض اللبس حول أين تنتهي أسماء الآلهة الآشورية السبعة وتبدأ أسماء الآلهة الفينيقية، فإن القرائن تشير إلى أن «السبعة» هي نهاية الآلهة الآشورية وأن «بيت -ال» يشكل بداية قائمة الآلهة الصورية (Barr ١٩٨٣ : 45-6) ، ويحاول بار Barr أن يقنعنا بأن المقصود بـ «بيت -ال» هو الرب «ال» (وبذلك يكون «بيت ال» هو العنصر الإلهي الكامن).

مع أن تحديد هوية زوجة «عناث - بيت -ال» لاتزال غير مؤكدة (Barr ٣ 46-50 :) ورغم أن قول بار بأن «عناث - بيت -ال» هي نفس الإلهة «عناث»، قول غير مقنع، فإننا نجد في مدينة أوغاريت «عناث» زوجة للإله «بعل» وليس للإله «ال»، هذا مع العلم بأن

الإلهي الكامن Hypostasis لأنموذج الحاكم الفينيقي الذي كان ينظر إليه في الأصل على أنه مؤسس مدينة صور ثم راح يُعتبر إلهاً حامياً وموجد المنافع الحيوية للمجتمع ابتداء من الصبغة الأورجوانية إلى الملاحه نحو الغرب Rib-ichini 1988:110 ، ومن مألظة وصلنا نص مكتوب بلغتين ويعود للقرن الثاني وموجه: لادنن املقارت بعل حد = (لسيدنا ملقارت «هرقل باليونانية» رب صور) وتوحي كلمة Archegetis في الجزء اليوناني من النص بمعنى «مؤسس» المدينة أو الأسرة المالكة، وقد عثر على نصوص أخرى مكرسة للمقارت في أماكن كانت تابعة، فيما يحتمل، لدولة صور مثل قبرص وقرطاجة وصقلية وسردينيا ومالطة وأسبانيا.

ويرد اسم «بعل» الصوري في الكتاب المقدس، فقد روجت الملكة جزييل، التي كانت من البيت المالك في صور، وزوجة الملك أحاب، لعبادة هذا الإله بقوة، واضطهدت أتباع «يهوه» أما «بعل» الذي كان منافساً ليهوه في جبل الكرمل «الملوك الأولى ١٨» خلال القرن الثامن ق.م، فيري الكثيرون أنه «ملقارت» الصوري، ولكن يحتمل أنه هو «بعل شميم» (=حدو) الذي ارتبط بالجبـال وبالإخصاب، ولربما كان هو أيضاً «بعل» لبنان الذي يظهر في نص فينيقي من القرن الثامن وجد في ليماسول (Kai 31; Gray 1970 : 395-96)

ويقترح علماء آخرون أن يكون «بعل

الأشعار تساويها بالآلهة «عشتارت»، وكانت هذه الأخيرة تحتل مكانة بارزة في عبادات أو غاريت وإن لم يكن في رواياتها، وفي الترجمة السبعينية للعهد القديم (من العبرية إلى اليونانية) ترجم اسم «عشيرة» مرتين باسم «عشتارت» في النص المسوري*.

إن تصدر اسم «ال» للمعاهدة وتميز موقع «ملقارت» لدى الأسرة الحاكمة قد يعكسان تصور أهل أوغريت للرب «ال» باعتباره الأب الأول ورأس المجمع، الإلهي، وإن لم يكن راعي الأسرة المالكة. ويورد نص من أم العواميد، إحدى توابع صور، اسم كل من «ال» و«بعل شميم» ولكنه لا يذكر اسم «ملقارت»، مما يدعم أهمية «ال» التي برزت في نص المعاهدة

(Magnanini 1973:16#1,2nd Century, Baal Shamem ; 1973:19.#8,2 nd Century, el Peckham) ويجادل بكهام ذلك ضد الرأي القائل بأن «ملقارت» كان رمز السيادة الصورية.

إن الشواهد على مجمع الآلهة التي تمدنا بها أسماء الأعلام، شواهد مهمة، إلا أن المعروف منها يأتي بطريق المصادفة بحيث لا يسمح باستخلاص نتائج يعول عليها، وأسماء الآلهة المستخدمة في تركيب أسماء الأعلام في نقوش صورية، أربعة هي: بعل (أربع

مرات)، ملك «مرتين»، ملقارت «مرتين»، باستت (إلهة مصرية، مرة واحدة)، ويمكن أن يشير اللقبان «بعل» و «ملك» إلى عدة آلهة؛ وهناك خمسة نقوش من القرنين الثالث والثاني ق.م من أم العواميد، كلها مكرسة للإله «ملقارت» الذي يحمل لقب «ملك-عشتارت-رب حمون» وحمون اسم مكان كما يتضح من نص يذكر «أهل حمون هؤلاء» ، 4, No.17, Magnanini 1973:17, «و-ملك -عشتارت» يمكن أن تعني (ملك «زوج» عشتارت) أي (ملقارت) أو تعني (ملك «مدينة» عشتارت) أي أن الإله يتخذ اسم المدينة Barr (1983:177-78, n, 325, Pardee: 1988).

وقد أورد نص المعاهدة بعد ذلك أسماء الثلاث: «بعل شميم»، «بعل ملاغي» و«بعل صفون»، وكلها آلهة للعاصفة، حيث قيل عنها إنها «ستثير الريح الشريرة ضد سفنك»، ورغم أن هوية «بعل شميم» محل جدال فإن بار Barr ضر يطابقه، بطريقة مقنعة،

بالإله «حدو» أي «بعلو» الأوغاريتي، أما أولبريت (1968: 228) (Albright)، فيعتبره الإله النجمي «أنتار»، رب كوكب الزهرة وقت الصباح»، في حين يطابق أودن (1977: 457-73) (Oden) بينه وبين «ال»، ويقول عنه كوبر (Cooper 1987:3.313) إنه ببساطة «الإله الأكبر

* ابتداء من القرن السادس وحتى القرن العاشر للميلاد قام بعض النحاة اليهود بإعادة النظر في النص العبري للكتاب المقدس بهدف تنقيته مما علق به من شوائب وثنية، وأضافوا إليه بعض الحوشى ليسترشد بها النساخ وبعض التعليقات التوضيحية لفائدة الدارسين وقد اصطلح على تسمية هذا النص المسوري نسبة إلى الكلمة العبرية «مسورة» بمعنى «مأثورة».. (الترجم).

لأي مجمع إلهي محلي» ، وربما كان «بعل ملاغي» هو نفس «كوثارو» المعروف في أوغاريت، أما «بعل صفون» فقد كان في ذلك الوقت مختلفاً عن «حدو» ؛ وكثيراً ما يدخل اسم «بعل» في تركيب أسماء الأعلام في صور.

أما المجموعة الثالثة من الآلهة الواردة في نص المعاهدة فتتألف من «ملقارت» و«أشمون» ، وهما مرتبطان بالخصوبة حيث قيل عنهما إنهما «سينزلان ببلد الخراب ، ويزيلان طعام فمك ، وملابس جسدك، وزيت طيبك».

وعشتارت هي آخر من ذكر من الآلهة في المعاهدة باعتبارها ربة للحرب «عسى أن تحطم عشتارت قوسك في خضم المعركة» وكما سبقت الإشارة فقد كرس حيرام لها معبداً، كما كرس معبداً للإله «ملقارت» ، وهي الإلهة، المحلية الوحيدة التي جاء اسمها في النقش (KAI17,2nd Cent.) ، وفي أم العواميد التابعة

لمدينة صور يظهر الإله المذكر «ملك-عشتارت» ومعه عبّاده في خمسة نصوص للشكر من فترة متأخرة، كما أن «عشتارت» التي انتشرت عبادتها انتشاراً واسعاً في سوريا وفلسطين سووي بينها وبين ربّات أخريات مثل أفروديت وهيرا وسبيل.

صيدا

تسلّمت صيدا زمام قيادة المدن الفينيقية خلال فترة الاحتلال الفارسي، وقد تضمنت آثارها التي وجدت في

مستعمراتها أو في المدن التابعة لها في قبرص وفينيقيا والأناضول ومنطقة البحر الإيجي، تضمنت نقوشاً على العمائر الملكية، ونصوصاً نذرية وجنازية، ونقوش قرابين وسجلات معابد وحفائر، وتراوح تواريخها من القرن الثامن إلى القرن الثاني ق.م، ومن أهمها التوابيت المنقوشة لكل من «تبنيث» Tabnit، و«اشمونزاور» Eshmunzaor ، ونصوص تكريس المعبد ل«بود عشتارت» وقد كانوا جميعاً ملوكاً لصيدا في القرن الخامس ق.م (KAI 13,14,15, Mag- nanini1973:9,#11 ، وتزعم الأسرة

الحاكمة أنها شيدت عدة معابد: اثنين لعشتارت ، في مواضع متميزة بالمدينة ، ولأشمون ولآلهة صيدا، إلى جانب معبد لبعل صيدا وللربة «عشتارت-وجه -بعل» وهذه الأخيرة كانت أقنوماً معروفاً في أوغاريت باسم «عثرت بن بعل» ، وفي قرطاجنة وصفت الإلهة «تانيث» بأنها «وجه بعل» (Kai18.2)، وكان «اشمون» هو رب صيدا الذي يموت ثم يبعث من جديد، وتشهد الآثار على تقوى الملكية، وكان أفراد الأسرة الحاكمة يلجأون إلى الآلهة ليحموهم من الهلاك.

وفي ضوء النقوش المتوافرة نجد أن «عشتارت» و «اشمون» كانا الإلهين الرئيسيين للأسرة الحاكمة ، وكانت الأولى تدعى الربة والملكة (ربة وهملكة) ، وكان الملك والملكة الأم من بين كهنوتها (KAI 13.1-2 ; 14.14-15).

لم يكن ثمة حائل في فينيقيا يحول بين

الملك وبين الانغماس في السدين، ذلك الانغماس الذي خفف الأنبياء والتقاليد من حدته لدى العبرانيين ، وقد جاءت التصورات عن المكانة الرفيعة للملكية في نصوص مطولة لكل من كيلاموا -Kil- amuwa ملك زنجري وأزيتوادة -Azit- wadda ملك أدنة (KAI 24,26) وهما دولتان ارتبطتا بصيدا بمعاهدة، كما اتفقت نقوشهم جميعاً أسلوباً وموضوعاً (Peckham 1987: 9n.35) وقد لاحظ بكهام أن بعض المنافع التي كان الملوك يمنحونها لرعاياهم ، عزأها الكتاب المقدس إلى رب إسرائيل ، وليس إلى ملوكها ، باعتباره أبا الشعب وأمه، كما أنه هو الذي كان يحمي الحدود، ويمنح السلام، وبعده وفضله كان يقيم السلام مع الملوك الآخرين، وبذلك يصير أباً للإلهم. (Peckham 1987:82).

جبيل

كان يوجد في جبيل هيكلان ، أولهما من بداية الألف الثانية ق.م ، وكان مكرساً للإله عرف تقليدياً بأنه هو «رشب» ، وثانيهما ، وهو الأقدم ، كان مكرساً لبعلة «سيدة» أو «ربة» جبيل والتي ذكرت في القرن الرابع عشر في رسائل العمارة باسم «بلتو شارو جبلا» ، ومما يدل على أنها كانت تختص بالأمومة والإخصاب لقبها «أفروديت الجبيلية» الذي يظهر في القرن الثاني الميلادي، أما نقوش جبيل فتغطي الفترة الزمنية الممتدة من ألف ق.م إلى القرن الأول ق.م وتتضمن نصوصاً جنازية ، وتكريس مذابح القرابين، وترد

على جدران قلاع وتماثيل أرباب، وكثيراً ما تردد النقوش الملكية التي تتراوح تواريخها بين بداية الألف الثانية والقرن الخامس ق.م اسم «ربة جبيل» مما يؤكد أنها كانت الراعية الأولى للأسرة الحاكمة، وكثيراً ما كان الملك يلهج لها بالحمد والثناء («دعوتها فسمعت صوتي» KAI 7-8, 10.2-3 وفي القرن العاشر ق.م ابتهل «يحيملك Yehimilk إلى «بعل شميم» (الذي ذكر هنا فقط)، وإلى ربة جبيل ، وإلى (مجمع «مبخر»-آلهة جبيل المقدسين) بهذا الترتيب الذي يبدو أنه كان يحدد مكانة كل منهم (KAI 4.3-5) ، وقد دعا لنفسه بطول العمر، ويظهر أن هذا كان من اختصاص الآلهة، وقد كرر نفس الصيغة الدعائية خلفاء يحيملك الذين تبعوه في نفس القرن وهم «أبييعل» و«الييعل» و«شبتييعل» ، وفي القرن الخامس، في أثناء حكم الفرس توصل الملك «يهاولمك» الذي نصبته السيدة ، ربة جبيل، حاكماً على جبيل، أن تطيل الإلهة عمره وأن تمنحه رضاء الآلهة والناس في أرضه (KAI 5) ، وفي نقش من فترة لاحقة صورت الإلهة مثل الربة المصرية حاتحور، يتوج رأسها قرنان بينهما قرص الشمس، فوق غطاء للرأس على هيئة الحية المقدسة؛ لقد كان تمصّر الآلهة الفينيقية أمراً شائعاً نتيجة لتأثير مصر السياسي والثقافي على بلاد الشام.

كان الملوك يؤكدون على تنكبهم سبل الحق أملاً في أن تهبهم الإلهة طول العمر (صدق، يشر KAI 10.9; KAI 4.6-7)

أما أسماؤهم فقد دخل في تركيبها اللقب
الآلهي «بعل» أو «ملك» ومن المستحيل
تحديد أي الآلهة كان مقصوداً هنا نظراً
لأن هذين اللقبين كانا يطلقان على آلهة
عديدة.

قرطاجة

على عادة المستعمرات ، احتفظت
قرطاجة بالعديد من المظاهر العتيقة
لديانة المدينة الأم، صور، ومع هذا فقد
راحت تسلك سبيلاً مستقلاً خلال القرن
الخامس ق.م وقد رأى بعض العلماء في
ذلك حركة إصلاحية وانعكاساً لتغيرات
تاريخية مهمة (Ribichini 1988:113)
حتى الآن لم تصلنا دلائل مؤكدة عن
مجمع الآلهة من النقوش وانما جاءتنا
الدلائل من نص معاهدة وردت لحسن
الطالع في نسخة دقيقة للمؤرخ اليوناني
بوليبوس Polybius وفيها ترتبت أسماء

آلهة الدولتين المتعاهدين.

وهكذا تحقق لمجمع الآلهة القرطاجي
ما سبق أن حققته معاهدة بعل الصوري
في القرن السابع حيال المدينة الأم، صور.
لقد أبرمت المعاهدة بين هميلكار وفيليب
المقدوني عام ١٤٦ ق.م واتسمت بنفس
الخصائص التقليدية الجامدة للمعاهدات
السابقة، وقد أدرجت الآلهة في شكل
ثالث بدلا من شكل الزوج الذي كان
معتاداً في المشرق، وأعطاهما بـ Barr
حقها من الدراسة (Barr, 1983)

بي تي تمجضر). وفي العمود الأيمن من
الجدول المرفق سيجد القارئ آلهة
قرطاجة كما وردت في النسخة اليونانية
وفي الأعمدة ٢-٤ يعطينا بار أسماء الآلهة
القرطاجية والصورية والأوغاريتية
المنظرة للأسماء اليونانية.

وتتفق كل من المعاهدة والنصوص

مجمع الآلهة كما جاء في معاهدة قرطاجة

أوغاريت	صور	قرطاجة	بوليبوس
ال	بيت - ال	بعل خمون	زيوس
عنات	عنات - بيت - ال	تانيت	١ - هيرا
رشب	-	رشب	أيوللون
عشرت	أشتارت	عشتارت	ديون القرطاجين
ملك	ملقارت	ملقارت	٢ - هرقل
؟	اشمون	اشمون	يولوس
حدو	بعل شميم	بعل شميم	أبيس
كوثارو	بعل ملاقي	كوشر	٣ - تريتون
بعلو صبياني (حدو)	بعل صبيون	بعل صقون	بوسيدون

وتؤيد الترجمة(«ال» رب «جبل» أمانوس «حمانو») وبهذا عزز ما جاء في معاهدة صور من أن «ال» كان الإله الرئيسي لمدينة صور، أما «ملقارت» و«أشمون» اللذان جاءا في الثالث الثاني من المعاهدة، فقد كان لكل واحد منهما معبد في قرطاجة(KAI86:3) ، وفي كل عام كانت ترسل هدية إلى معبد «ملقارت» في صور.

نظراً لضالة مالدينا من شواهد، فإن استنتاجاتنا عن مجامع الآلهة للمدن الرئيسية ستظل بالضرورة مبدئية. لقد أبانت نصوص المعاهدتين نظام التدرج الرسمي لمكانة كل إله من الآلهة في مدينتي صور وقرطاجة خلال حقبة زمنية معينة ، وهو نظام تختلف ألّهته عن الآلهة الراحية للأسرة الحاكمة وعن ألّهة الديانة الشعبية، اما فكرة الثالوث الذي كثيراً ما يفترض وجوده في المدن الفينيقية والذي يتألف من إله راع للمدينة، وإلهة رفيقة ترمز للأرض الخصبة، وإله شاب يقوم سنوياً مع نمو النبات (Mos- cati1968:36) ، فإنها فكرة لا تعتمد على دليل متين.

على الآلهة الرئيسية لقرطاجة، إذ تقدم معظم النقوش القرطاجية «لربت لتنت بن بعل ولأدزنن ابعل حمن» أي (للربة تانيت «وجه بعل» وللسيد بعل حمون). ويذكرنا اللقب «وجه بعل» باللقب «عشتارت. وجه بعل» في أوغاريت، ويؤمن إلى كمون «بعل» في الآلهة، وتوحد المعاهدة بين هيرا و«تانيت» وبين زيوس ، «بعل حمون» ، وإن كان التعرف على كل من «تانيت» و«بعل حمون» ، وتحديد علاقتهما بالآلهة الفينيقية الشرقية لا يزال موضع خلاف (Cross1973:28-35) Barr; ١٩٨٨(58-61):

ويمكن أن تكون أي من «عنات» أو «عشتارت» أو «عشيرة» هي «تانيت» وأن يكون «ال» أو «ملقارت» هو «بعل حمون» ، وهناك نقش من القرن السابع وجد في سربتا Sarepta، يضع «تانيت» إلى جانب «عشتارت» Pritchard 1978:104- (92-83:1982;7 أما فيما يتعلق «ببعل حمون» فإن كروس- Cross1974:24) (36 جمع أدلة وافرة تبين خطأ الترجمة المعتادة للقب (رب المجرمة «حمان»)،

أضواء على مستقبل الطفولة

■ مفاهيم جديدة للأبوة والطفولة والمراهقة

■ أدب الأطفال بين اختيار الطفل وتقييم الناقد

■ إلى أي نمط من لأهيات تنتمي؟

■ فلم تدركي الحفيد، علاء الدين، سليل جديدة في سيماء الطفل

■ قصة أميرة الغابة، قصة كبرياء

■ قمة فورشيون التربوية: كيف ننهض بأداء المدارس؟

■ الطفل الصغير والتحليل النفسي

مستقبل الطفولة



المفاهيم الجديدة
للأبوة، الطفولة، المراهقة

دافيد إكينيد

د. عاطف أحمد

تحولاً بارزاً قد حدث، خلال الخمسين سنة الأخيرة، في مدارك أطفالنا تجاهنا، وفي مداركنا تجاه أطفالنا. وتحول المدارك هذا ليس سوى جزء صغير جداً من تحول أكبر كثيراً حدث في مجتمعنا بصفة عامة وفي أسرتنا بصفة خاصة. هذا التحول ليس شيئاً أقل من أن يكون تحولاً في الإطار الأساسي، أو النموذج، الذي نفكر من خلاله والذي نفهم من خلاله عالمنا. وعلى ذلك، فلكي نفهم التحولات التي حدثت في الأسرة، وفي مدارك أفراد الأسرة، وفي مفاهيم الأبوة والأمومة؛ علينا أن نلقي نظرة أولاً على «تحول النموذج» وما ينطوي عليه من دلالات بالنسبة لعواطف الأسرة، وقيمها، ومدركاتها.



صاحت الطفلة ذات الخمس سنوات قائلة لأمها: «مامي، لماذا لا تطلبين الطلاق مرة أخرى؟». جفلت الأم وردت قائلة: «ولماذا ياترى علي أن أفعل ذلك؟». فأجابت الطفلة: «لأنني لم أرك تمارسين الحب منذ وقت طويل».

هذه الطفلة تدرك الحياة الأسرية وتدرك عالم الكبار بطريقة مختلفة تماماً عن نظيرتها منذ ما يقل عن نصف قرن مضى. والأم أيضاً تفهم ابنتها بطريقة مختلفة تماماً عن الأم التي كانت ترعى طفلها في الأربعينيات. فعلى

الرغم من أن الأم دهشت لسؤال ابنتها، إلا أنها لم تدهش للكيفية التي تفهم بها الطلاق، ولم تدهش لألفتها بأعراض الحالة الرومانسية.

وكما تدل هذه الحكاية، فإن ثمة

العنوان الأصلي للمقال : The Future of Children, Why Kids Have a Lot To Cry About, Psychology Today, May 1992



من الحادثة إلى ما بعد الحادثة

لقد انتقلنا - ربما من دون أن ندري - من عصر الحادثة إلى عصر ما بعد الحادثة. على الرغم من أن هذا العصر أطلقت عليه تسميات أخرى، مثل العصر «ما بعد الصناعي»، وعصر المعلومات؛ إلا أن أيّاً من تلك التسميات لم تستطع أن تحيط بمدى الاتساع والعمق الذي تتم به التغيرات الحادثة. بينما تعبيرات مثل الحادثة وما بعد الحادثة تحيط بجميع جوانب العملية الاجتماعية، وتشير إلى التغيرات الحادثة في

مجالات: العلم، والفلسفة، والعمارة، والأدب، والفنون، مثلما هو الأمر في مجالات الصناعة والتكنولوجيا؛ تلك التغيرات التي ميزت مجتمعنا منذ منتصف القرن.

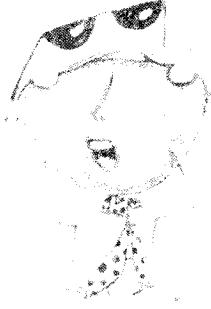
الحادثة والأسرة النووية

قام عصر الحادثة، الذي بدأ مع النهضة وامتد خلال الثورة الصناعية، على ثلاث فرضيات مترابطة. كانت الفرضية الأولى هي فكرة التقدم الإنساني، بمعنى أن التطور الإنساني والمجتمعي يسير في اتجاه عالم أكثر عدلاً، وسلاماً، وانسجاماً، حيث يتمتع كل فرد فيه بالحياة، وبالحرية، وبالسعادة. وكانت الفرضية الثانية هي العالمية،

بمعنى أن هناك قوانين كونية: للطبيعة، والفن، والعلم، والاقتصاد، وما إلى ذلك، ذات طبيعة متجاوزة للزمن وللثقافات.

وتمثلت الفرضية الثالثة في فكرة الانتظام، أي الاعتقاد بأن العالم مكان منظم، وأن المملكة الحيوانية والنباتية والطبقات الجيولوجية والعناصر الكيميائية؛ يمكن تنظيمها في نظام هرمي متسق، «قاله» - كما يقول أينشتاين - «لا يلعب النرد مع الكون».

وقد منحت تلك الفرضيات الحياة الحديثة طابعاً متقدماً وجعلتها متميزة. فقد تخلت كل ماهو حديث من علم، وفن، وعمارة، وفلسفة، وصناعة. كما تجلت تلك الفرضيات فيما يسمى بالأسرة



حدث هذا اللقاء فسيعيش
هذان الزوجان معا
بقية عمرهما في سعادة
«أبدية». والعاطفة الثانية
للأسرة الحديثة كانت هي،
«الحب الأمومي»، فكرة أن
المرأة لديها «غريزة» أمومة

وحاجة لأن ترعى الأطفال خاصة وهم
صغار. وغريزة الأمومة هي فكرة حديثة
بالكامل، لم تنشأ إلا بعد أن تمكن الطب
الحديث وعلوم التغذية من خفض نسبة
الوفيات بين الأطفال. ففي أزمنة ما قبل
الحداثة، كانت نسبة وفيات الأطفال
عالية، لدرجة أنهم لم تكن تتم تسميتهم
حتى يبلغوا عامين من العمر، وتصبح
فرصة استمرارهم أحياء جيدة. وكان
مألوفاً للأباء في المدن أن يرسلوا أطفالهم
لإرضاعهم في الريف. وكانت تحدث لهم
وفيات نتيجة أن الأم المرضعة تفضل
طفلها هي، ولا ترضع الطفل الآخر إلا بما
تبقى. ولا نستطيع القول بأن مثل هذا
السلوك يصدر عن أم لديها «غريزة
أمومة».

والعاطفة الثالثة لدى الأسرة الحديثة
هي «النزعة الأسرية»، أي الاعتقاد بأن
العلاقات داخل الأسرة تكون دائماً أقوى
وأوثق من أي علاقات خارجها. فقد كانت
الأسرة على حد تعبير كريستوفر لاش
«مرفأً لعالم بلا شاطئ». فقد كانت
الأسرة النووية تمنح أفرادها الرعاية
والحماية ضد شرور وإغواءات العالم

الحديثة. فقد كانت الأسرة
النووية الحديثة، على سبيل
المثال، تعتبر بمثابة المحصلة
النهائية لعملية تطور تقدمية
في أشكال الأسرة. فهي
تتكون من الأب والأم وطفلين
أو ثلاثة، أحد الوالدين يعمل

والآخر يبقى في البيت ليربي الأطفال
ويعنى بشؤون المنزل؛ وصورة الأسرة
هذه كانت تعتبر صورة مثالية تحققت
نتيجة تطور الأشكال البدائية السابقة
عليها والتي كانت بمثابة تحضير لها.

عواطف الأسرة النووية

كانت هناك عواطف ثلاث تشكل
الأسرة النووية، وهي عواطف مستمدة
من فرضيات الحداثة. الأولى هي «الحب
العاطفي الرومانسي». فقد كان الزواج، في
أزمنة ما قبل الحداثة، يتم بناء على
تعليمات الأسرة والمجتمع. وكانت
الاعتبارات ذات الأولوية فيه هي اعتبارات
الثروة والمكانة الاجتماعية. وقد ضعف
تأثير الجماعة هذا في العصر الحديث،
وأصبح الزوجان يميلان أكثر فأكثر
لاختيار الواحد منهما للآخر على أساس
الجاذبية الشخصية. هذا الشعور
بالانجذاب للآخر نجد صورته المثالية في
الفكرة الزاهية إلى أنه «ذات مساء ساحر،
ستلتقي بشخص غريب»، مصيرك أنت،
وأنت فقط، مرتبط بمصيره (لقد خلقت
من أجلي، وأنا خلقت من أجلك)، فإذا

الخارجي. وكانت النزعة الأسرية تمتد أيضاً إلى انتماءات الأسرة: الدينية، والعرقية والاجتماعية. فكان الأفراد ذوو الانتماءات المماثلة لانتماءات الأسرة يفضلون عن سواهم في علاقات الصداقة والمصاهرة.

الأبوة وبراعة الطفولة

وقد نشأت المفاهيم الحديثة للأبوة، وللطفولة، وللمراهقة؛ من خلال العواطف الأسرية التي تحدثنا عنها. فكان التصور السائد هو أن الآباء لديهم معرفة طبيعية أو غريزية بعملية التربية. وأن دور أخصائيي التربية - إذا دعت الحاجة إليهم - يقتصر على تشجيع الآباء على أن يتوافق سلوكهم مع مآلديهم من ميول ومعرفة طبيعية. وارتبط هذا التصور للأبوة، بتصوير آخر للأطفال على أنهم أبرياء يحتاجون للرعاية والحماية الأبوية. والمراهقون بدورهم، كانوا يعتبرون غير ناضجين ويحتاجون لإرشاد وتوجيه الكبار. فالمراهقة، التي هي مرحلة الإعداد للرشد، تجلب معها متاعب وضغوطاً لا مفر منها، حين يتأهب الشباب الصغير السن لكسر طوق الأسرة النووية في طريقه إلى الاستقلال الاجتماعي والاقتصادي. ولقد تدعمت المفاهيم الحديثة للأبوة والطفولة والمراهقة بانعكاساتها الاجتماعية في وسائل الإعلام، وفي القوانين، وفي دوائر الصحة النفسية. فمسلسل مثل «أندي هاردي»

رسم صورة لمراهق يقع في مشاحنات شبابية في المدرسة ومع أصدقائه، لا ينقذه منها إلا تدخل ولي الأمر. كذلك صورت الرواية المراهقين على أنهم شباب صغير السن غير ناضج يسعى جاهداً لكي يجد نفسه. فكانت صورة المراهق غير الناضج في «هك فين» Huck Finn "مارك توين تعبيراً باكراً للحدثاء، بينما كانت «هولدن كولفيلد» Holden Caulfed "لـ ج.د. سالينجر تعبيراً متأخراً عنها.

والقوانين الحديثة، مثل قوانين عمل الصبية وتعليمهم الإجمالي، إنما صدرت حماية للأطفال والمراهقين. كذلك فقد عزت الدوائر الصحية مشاكل الصحة النفسية التي يعاني منها الأطفال والمراهقون، إلى الصراعات الناشئة عن الروابط العاطفية المحكمة داخل الأسرة النووية.

مابعد الحدث وأسرة

مابعد الحدث

نشأت رؤية مابعد الحدث إلى حد كبير من إخفاق فرضيات الحدث الثلاث (التقدم، والعالمية، والانتظام). فقد ساهمت أحداث عديدة وقعت في هذا القرن في جعل فكرة التقدم صعبة التصديق. فألمانيا، وهي واحدة من أكثر الدول تقدماً: تعليمياً، وعلمياً، وثقافياً؛ أقدمت على أشد أنواع الإبادة الجماعية بشاعة. والعلم الحديث أنتج القنبلة الذرية التي أسقطت على كل من هيروشيما وناجازاكي. كذلك

فإن أحداثاً من مثل استنزاف البيئة، والتلوث، والانفجار السكاني، والمجاعات الواسعة النطاق؛ من الصعب أن تتواءم مع فكرة التقدم. وثانياً، فإن فكرة العالمية، لقيت تحدياً حقيقياً عندما تغير الموقف إزاء نظريات العصر الكبري - ماركس، ودارون، وفرويد - فأصبح ينظر إليها على أنها محددة بالسياق الاجتماعي والتاريخي الذي نشأت فيه. لقد ظن منظرو الحداثة أن بمقدورهم تجاوز الحدود الاجتماعية - التاريخية؛ لكن مفكري ما بعد الحداثة أدركوا أن الواحد منهم إنما يتحرك داخل نطاق خصوصية الخطاب السائد في زمن بعينه. كذلك فإن البحث عن كليات ثابتة في مجال المبادئ والقيم الخلقية والدين؛ قد أدخل الطريق للإقرار بأن ثمة مبادئ وقيماً خلقية وديانات عديدة ومختلفة، وأن كلا منها له مشروعيته الخاصة.

وأخيراً، فإن الاعتقاد بالانتظام قد أفسح الطريق للإقرار بأهمية عدم الانتظام، وعدم التحدد، والفوضى، والتداخل المنطقي. فهناك الكثير من ظواهر الطبيعة، كالطقس، مثلاً، تظل غير قابلة للتنبؤ بها، ليس لأنها منحرفة عن السواء، بل لأنها متأثرة بأحداث غير منتظمة. طبعاً، هناك انتظامية، لكن هناك أيضاً عدم انتظامية: تشكل ظاهرة أصيلة مستقلة بذاتها. فلم يعد ينظر إليها - كما كانت الحال في زمن الحداثة - على أنها تمثل إخفاقاً من جانبنا في إدراك الانتظامية الكامنة وراءها.

لقد حل نموذج ما بعد الحداثة بمقدمات المنطقية الخاصة، محل افتراضات الحداثة. ففرضية التقدم مثلاً، حلت محلها فرضية الاختلاف. فهناك أشكال وأنواع عديدة ومختلفة للتقدم، وليس كل تقدم بالضرورة اتجاهاً إلى الأفضل. كذلك فقد حلت فكرة الخصوصية، محل فكرة العالمية أو الكلية. فالظواهر المختلفة يمكن أن تكون لها أسس وقواعد مختلفة، وليست بالضرورة قابلة للتعميم. فإذا أخذنا، على سبيل المثال، أسرة خاصة أو فئة خاصة من الأطفال، نجد أنها حالات غير قابلة للتكرار ولا يمكن إحداثها ثانية بالموصفات نفسها، وبالتالي فلا تنطبق عليها المبادئ الكلية العامة. وأخيراً، فقد أفسحت فكرة الانتظام مكاناً لمبدأ عدم الانتظام. فالعالم ليس منتظماً وليس منسقاً منطقياً كما كنا نتصور.

وكما تبدل النموذج المجتمعي تبدلت كذلك بنية الأسرة. فالأسرة النووية المثالية، التي كان يعتقد أنها جاءت كمحصلة لعملية تطور اجتماعي تقدمي، أخلت مكانها، في عصر ما بعد الحداثة، لما يمكن تسميته بـ«الأسرة المنفذة». وهي تتكون من خليط من الأشكال العديدة والمختلفة للأسرة: مثل الشكل التقليدي، أو الشكل النووي، أو شكل الأسرة الذي نجد فيه الأبوين يعملان، أو أحد الوالدين، كذلك خليط من التشكلات: كأن نجد فيها أطفالاً متبنين، أو أطفالاً أنابيب، أو أمهات بديلة، أو أسراً متعددة الآباء. وكل شكل من تلك الأشكال له جدارته الخاصة

ويمكن أن يكون شكلاً أسرياً ناجحاً.

والأسرة التي على هذا النمط، منفذة من نواح أخرى أيضاً. فهي لم تعد معزولة عن الجماعة الأكبر حجماً. فقد انتقل مكان العمل، بفضل الكمبيوتر الشخصي، والفاكس وأجهزة الإجابة الآلية إلى المنزل. كذلك فالمنزل انتقل، بفضل وسائل رعاية الأطفال في المكاتب والمصانع، إلى مكان العمل. والبيت أيضاً، تم اختراقه بواسطة التلفزيون، الذي أتى بالعالم الخارجي إلى غرف المعيشة وغرف النوم. كذلك أدت العروض التلفزيونية المتزايدة العدد باستمرار، والتي تتحدث بالتفصيل عن كافة نوعيات المشاكل الأسرية؛ إلى انتقال ما يحدث في غرف المعيشة وغرف النوم إلى العالم الخارجي. والعواطف التي تحرك الأسرة المنفذة في عصر مابعد الحداثة، تختلف تماماً عن العواطف التي كانت تحرك الأسرة النووية في عصر الحداثة. وقد حدثت التحولات في العواطف الأسرية عبر طرق عديدة، مثل حركة الحقوق المدنية، والحركة النسائية، وتطورات وسائل الإعلام، والقوانين؛ التي شكلت جزءاً من ثورة مابعد الحداثة. ولأن ثمة تفاعلاً متبادلاً بصفة مستمرة بين الأسرة والمجتمع الأكبر، فمن المستحيل القول بما إذا كانت التغيرات داخل الأسرة قد حدثت نتيجة للتغيرات داخل المجتمع، أم العكس. فالأشياء تتحرك في كلا الاتجاهين.

وقد تحولت عاطفة الحب الرومانسي في أسرة الحداثة، نتيجة لعدة أسباب، إلى

عاطفة الحب التعاقدي في أسرة مابعد الحداثة. فبينما كان الحب الرومانسي ينشد المثالية والكمال، فإن الحب التعاقدي يقوم على أساس عملي وواقعي. فهو يقر بمشروعية العلاقات السابقة على الزواج، ولا يستلزم الارتباط طويل المدى. فالحب التعاقدي هو اتفاق أو تعاقد بين طرفين، ومثل أي تعاقد هو قابل للفسخ. فالفرق بين الحب التعاقدي والحب الرومانسي يكمن في الطبيعة الشرطية للاتفاق، فهو يتضمن احتمال فسخ الارتباط الزوجي حتى قبل أن يبدأ الزواج بالفعل. والتركيز الشائع حالياً على فكرة الممارسة الجنسية الآمنة، يعتبر أيضاً من سمات الحب التعاقدي وليس الرومانسي. وعاطفة الحب الأمومي في أسرة الحداثة، طرأت عليها تغييرات بدورها. فهناك اليوم، مايزيد على ٥٠٪ من النساء يعملن، منهن حوالي ٦٠٪ لديهن أطفال تقل أعمارهم عن السادسة. وهذه الأرقام توضح أن أشخاصاً غير الآباء والأمهات يلعبون حالياً دوراً رئيسياً في عملية التربية. وكجزء من إعادة النظر في مسؤوليات تربية الأطفال، نشأت عاطفة جديدة يمكن تسميتها بـ«الأبوة المشاركة». وتقوم هذه العاطفة على فكرة أن عملية التربية تستلزم، ليس وجود الأم فحسب، بل وجود الأب ووجود أخصائيي التربية أيضاً. فترية الأطفال ورعايتهم لم يعد ينظر إليها على أنها المسؤولية الأولية أو الوحيدة للأم.

وخاصية النفاذية التي تتسم بها أسرة

يمكن ألا يكون في صالح أطفالنا. فهناك طرق في توصيل الأشياء لأطفالنا تعتبر أخف وقعا من سواها. وهناك طرق للتأديب لا تجرح شعور الطفل بتقدير الذات. ومشكلة الآباء اليوم هي كيفية الاختيار من بين مئات الكتب وبرامج أجهزة الإعلام التي تفيض بالنصائح حول تربية الأطفال. ولقد قالت لي إحدى الأمهات ذات مرة «لقد قرأت كتبك، ورأيت أنها جيدة.. لكن ماذا لو كنت مخطئا فيما تقول».

أما بالنسبة للأطفال، فقد حلت فكرة الكفاءة محل فكرة البراءة. فالأطفال الذين يعيشون داخل الأسرة المنفذة، التي تتغذى باستمرار، بفضل التلفزيون، على العنف الصريح، والجنس المفتوح، والإدمان، واستنزاف البيئة؛ مثل هؤلاء الأطفال لا يمكننا افتراض أنهم أبرياء. بل نحن نرى أنهم - ربما محاولة منا للتغطية على شعورنا بالعجز عن السيطرة على ما يتعرضون له من بث إعلامي - لديهم القدرة على التعامل مع تلك الوقائع. والحقيقة أننا وقعنا في فخ تصور أنهم أكفاء، حتى أننا نعلم الأطفال في الرابعة والخامسة من العمر أشياء عن الأيدز، وعن إساءة التعامل مع الأطفال، ونزودهم بأدوات لعب يتعاملون من خلالها مع موضوعات مثل الحمل أو الحوادث التي قد تسبب عاهات جسمانية. ووسائل الإعلام ترسخ صورة

مابعد الحادثة قد أبعدها بدورها عن النزعة الأسرية في أسرة الحادثة. فالأسرة لم تعد قادرة على حماية أفرادها من ضغوط العالم الخارجي. بل إن حركة دفع الأسرة المنفذة، تتجه في واقع الأمر إلى الاتجاه المغاير. فالأسرة المنفذة تميل إلى

دفع الأطفال والمراهقين، في سن مبكرة، إلى التعامل مع حقائق العالم الخارجي. وهو ما أسميته «باستعجال» النمو السريع للأطفال. وكثير من هذا الاستعجال يتم بمجهود متعمد يبذله الآباء لإعداد أطفالهم لمواجهة طوفان المعلومات، والتحديات، والإغراءات، الآتية إليهم عبر «حدود» الحياة الأسرية التي أصبحت الآن مخترفة.

آباء مابعد الحادثة والأطفال الذين فقدوا البراءة

وقد أدت العواطف الجديدة لما بعد الحادثة إلى مفاهيم جديدة للأبوة، وللطفولة، وللمراهقة. فنحن نفهم الأبوة حاليا على أنها نوع من النشاط يشارك فيه أشخاص غير الآباء الفعليين، ولم نعد نتصور أنها غريزة تنشأ بمجرد أن يكون لنا أطفال، فقد أصبحت الأبوة مسألة تقنية تكتسب بالتعلم.

فآباء مابعد الحادثة أصبحوا يدركون أن السلوك وفقا لما تمليه علينا الطبيعة

الكفاءة هذه، بأفلام مثل «انظر من يتحدث» أو «وحيدي في البيت».

ومادمنا ننظر للأطفال على أنهم أكفاء، فإننا لا نستطيع أن نعتبر المراهقين غير ناضجين. بل نعتبرهم ذوي دراية بشؤون الحياة، يعرفون الكثير عن أمور الجنس، وعن المخدرات، وعن الجريمة، وما إلى ذلك. وهذا توهم مريح للآباء الذين يعانون من ضيق الوقت. فمثل هؤلاء الآباء يتخذون من نظرتهم للمراهقين على أنهم ذوو دراية، ذريعة لإخلاء مسؤوليتهم عن توجيههم ورعايتهم. ويجد المراهقون أنفسهم وحيدين بصورة متزايدة. فحتى تلاميذ المدارس المتوسطة والعالية لا يمارسون الأنشطة الاجتماعية والرياضية التي كانوا يمارسونها من قبل.

وهذه النظرة الجديدة للمراهقين وجدت بدورها تعبيرها الاجتماعي في وسائل الإعلام، وفي المدرسة، وفي القوانين. فأفلام مابعد الحداثة مثل «عمل خطر» (الذي يصور مراهقا يدير بيت الأسرة في أعمال مخلة بالآداب) ومثل «أنجيل» (طالبة محتشمة بالمدرسة العليا نهاراً، وإحدى بنات الهوى ليلاً) ومثل هذه الأفلام بعيدة كل البعد عن أفلام آندي هاردي. كذلك فالعروض التلفزيونية لما بعد الحداثة مثل «متزوج ولديه أطفال» و«روز آن» تقدم صوراً للمراهقين تختلف كثيراً عن عروض عصر الحداثة مثل «أبنائي الثلاثة» أو «أوزي وهاريت». والتفكير القانوني لما بعد الحداثة يهتم

بحماية حقوق الأطفال والمراهقين أكثر مما يهتم بحمايتهم هم أنفسهم. فالأطفال والمراهقون يمتلكون الآن الحق في مقاضاة آبائهم في موضوعات مثل الطلاق، أو حقوق الزيارة، أو البقاء في الوطن إذا غادرته الأسرة.

الحقيقة قائمة هنا

لم تنشأ النظرة للأطفال كأكفاء ولا للمراهقين على أنهم ذوو دراية، نتيجة لأية أوضاع فيها مساس بحقوقهم أو إضرار بها. على العكس، فقد نشأت خلال العصر الذهبي للأطفال والمراهقين الذي امتد من نهاية القرن الماضي حتى منتصف هذا القرن. فكان المجتمع بأكمله مهياً لاعتبار الأطفال أبرياء ولاعتبار المراهقين غير ناضجين، وكان يسعى لحماية الأطفال، ولإدخال المراهقين بالتدريج في غمار الحياة.

وعلى العكس من ذلك، فإن النظرة للأطفال كأكفاء وللمراهقين على أنهم ذوو دراية، أدت إلى تأثيرات ضارة بالأطفال وبالمراهقين. فالواقع، أنها وضعتهم تحت ضغوط لا حد لها. وقد أصبح أداؤهم اليوم، على جميع المستويات، أقل مما كان منذ ربع قرن، عندما بدأت مفاهيم مابعد الحداثة في الظهور. وإذا كان من غير الإنصاف أن نعزو كل السلبيات القائمة اليوم إلى تغير المفاهيم وحدها، فالالاقتصاد والسياسة يلعبان دوراً بلا شك، إلا أنه من الصحيح أيضاً أن الاقتصاد

والسياسة بدورهما يتأثران بالطريقة التي ننظر بها إلى الشباب.

والإحصاءات تتحدث عن نفسها. فقد حدثت زيادة بمعدل ٥٠٪ لحالات الأطفال والمراهقين الذين يعانون من السمنة في العقدين الأخيرين. ويضيع منا بضعة آلاف شاب كل عام في حوادث مرتبطة بتعاطي المخدرات، غير المصابين والمشوهين. وواحد من بين أربعة مراهقين

يفسّرط في الشراب كل أسبوعين، ولدينا مليونان من المراهقين الذين يدمنون الكحول.

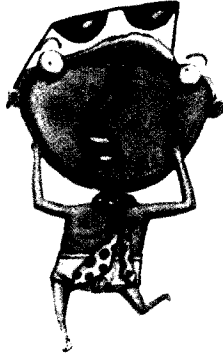
والفتيات المراهقات اللائي يحملن يبلغ عددهن مليونا كل عام، وهو ضعف المعدل في البلد الثاني في الترتيب، وهو إنجلترا. ومعدل الانتحار تزايد ثلاثة أضعاف في العشرين سنة الأخيرة، فما

بين خمسة وستة آلاف مراهق ينهون حياتهم بأيديهم كل عام. وتعاني واحدة من بين كل أربع فتيات مراهقات من أحد أعراض اضطرابات التغذية، غالباً ما يكون هو الرجيم المفرط. والفئة العمرية ما بين ١٤ - ١٩ سجلت المرتبة الثانية في أعلى معدلات جرائم القتل من بين الفئات العمرية جميعاً.

وهي إحصائيات مخيفة. رغم ذلك فقد لا تعني بالضرورة توجيه الاتهام لعالم مابعد الحادثة، أو لتغير مفاهيمنا حول الأطفال والشباب. فقد حدثت

لدينا تغيرات اجتماعية هائلة في مدى زمني قصير للغاية. وليس هناك مجتمع آخر على وجه الأرض حدث له، أو يمكن أن يحدث له مثل هذا التغير وبمثل هذه السرعة. وهذه هي نقطة قوتنا وضعفنا في آن واحد. وهذا ما جعل منا، وسنظل، الأمة الصناعية الرائدة في العالم، لأننا أكثر مرونة من أي مجتمع آخر، بما في ذلك اليابان.

لكن التغير الاجتماعي السريع له وقع الكارثة على الأطفال والشباب، الذي يتطلب لنموه السوي، مجتمعاً مستقراً وآمناً. ومن حسن الحظ، أننا نتجه الآن نحو مجتمع أكثر استقراراً. لقد عانى جيل كامل من الآباء من مشكلات الحالة الانتقالية، من عواطف الحادثة إلى



عواطف مابعد الحادثة، وانتشرت بينهم ظواهر مثل الطلاق، والزواج المفتوح، والزواج المتكرر، بنفس درجة انتشار الأسرة النووية. أما الجيل الحالي من الآباء فقد نشأ في ظل العواطف الأسرية الجديدة، فلم يعد يعاني صراعات مثلما عانى أبائهم.

ونتيجة لذلك كله، أصبحنا نتجه ببطء نحو مفاهيم للطفولة والمراهقة أكثر واقعية، ونحو بنية للأسرة أكثر رعاية لأفرادها. فنحن نتجه نحو ما يمكن تسميته بالأسرة الحيوية. ففي الأسرة

الحيوية تحظى قيمة التضامن، وهي قيمة
حدثية، بنفس الوزن الذي لقيمة
الاستقلال مابعد الحدثية، وأخذنا ننظر
للأطفال على أنهم ينمون في اتجاه الكفاءة،
ولايزالون في حاجة إلى معونة الآباء
ورعايتهم. وأخذنا ننظر بالمثل، الى
المراهقين على أنهم آخذون في النضج في
اتجاه اكتساب الدراية، وأنه يمكن لهم ان
يستفيدوا من إرشاد وتوجيه الكبار.


وقد أخذت هذه المفاهيم الجديدة تظهر
في وسائل الإعلام. فالمقالات في الصحف
والمجلات، أخذت تتحدث، بصورة
متزايدة، عن التأثيرات السلبية لدفع
الأطفال مبكرا لتحقيق الإنجازات. كما
بدأنا نقرأ مقالات تتحدث عن التأثيرات
السلبية لإلحاحنا على المراهقين كي يكونوا
ذوي دراية. وبعض العروض التلفزيونية
أخذت تصور الأطفال والمراهقين على أنهم
ذوو دراية، لكنهم في الوقت نفسه
يشعرون بالمسؤولية ويتقبلون إرشاد
وتوجيه الكبار. مازال هناك الكثير من
الجنس والعنف الذي لا مبرر له، لكن
هناك على الأقل علامات تشير إلى شعور
أكبر بالمسؤولية وإقرار بأن الأطفال
والمراهقين يمكن ألا يكونوا مهينين لكل
مانود أن نلقي به على أكتافهم.

وبعد عشر سنوات من التجوال وإلقاء
المحاضرات في طول البلاد وعرضها، فإن
لدي شعورا بأن الأسرة الأميركية تتمتع

بحيوية وبمستوى طيب. لقد تغيرت
بصورة درامية، ومازلنا نحاول التأقلم
مع التغيرات. والأطفال والمراهقون، كما
يحدث عادة، هم الأكثر تضرراً من التغير.
لكن نظام قيمنا الأساسي مازال سليماً.
فلدينا تراث ديني قوي، ونحن نؤمن
بالعمل الشاق، وبالديمقراطية،
وبالاستقلال الشخصي. لكن شعورنا
بالمسؤولية الاجتماعية والأبوية، قد خفت
مؤقتاً، بسبب التغير الاجتماعي المتسارع.
فنحن لم نكد نشعر بالارتياح تجاه الأسرة
المنفذة، بعواطفها ومفاهيمها، حتى وجدنا
أنفسنا آخذين في الاهتمام بالنشء وبمن
هم أقل حظاً منا.

ونحن جميعا كبشر لدينا حاجة لأن
نكون أفضل ما نستطيع. لكن لدينا حاجة
أيضاً لأن نحب ونحب، لأن نهتم
بالآخرين وأن يهتم بنا الآخرون. وأسرة
عصر الحداثة كانت تخاطب حاجتنا
للانتماء، على حساب — وخاصة لدى
النساء — حاجتنا لأن نكون.

أما الأسرة المنفذة، فعلى العكس،
تحتفي بحاجتنا لأن نكون على حساب
حاجتنا للانتماء، مما كان له أثر ضار على
الأطفال والمراهقين. ونحن الآن في سبيلنا
إلى الأسرة الحيوية التي تحتفي بالحاجتين
ككتيهما: حاجتنا للانتماء، وحاجتنا لأن
نكون. ونحن لم نصل إليها بعد.. لكن
النبا السار هو أننا ماضون في الطريق
إليها.



أدب الأطفال

بين اختيار الطفل وتقييم النقاد

باربرا ليهمان صالح مصطفى

تتضمن دلالة تعبير «أدب الأطفال» معنى الجمع بين الصفة الأدبية، والقدرة على جذب الطفل للتعامل مع النص المكتوب، بالرغم من أن هذه الخاصية لأدب الطفل مفقودة في العديد من الكتب المصنفة ككتب أطفال، أو في الكتب التي يقرأها الأطفال. وتهدف هذه الدراسة إلى رصد خصائص كتب الأطفال التي تفي بكلا المعيارين: الكتب التي لقيت قبولاً من الكبار، التي سميت «اختيار الأطفال»، ومقارنتها بكتب حظيت باستحسان نقدي فحسب. وقد حللنا المجموعتين من حيث الفكرة الرئيسية، والأسلوب، والبنية. ثم قارنا النتائج من داخل المجموعتين وبينهما، حيث تبين أن الاختلافات في الأسلوب والبنية كانت أكثر وضوحاً من اختلاف الموضوعات.

وتنطوي هذه النتائج على آثار ذات دلالة فيما يتعلق بدراسة ونقد أدب الأطفال، وأيضاً فيما يتعلق بتحبيب الأطفال في عملية القراءة

العنوان الأصلي للمقال : Children Choice and critical Acclaim, a unified perspective of Children Literature

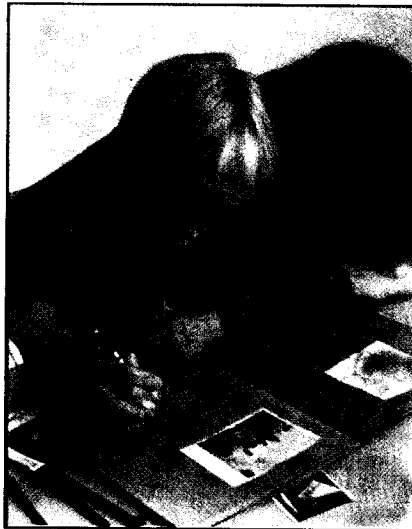
يركز النقد الأدبي اهتمامه عادة على مزايا العمل المكتوب نفسه، احتكاماً لمعايير نقدية معتمدة. ومع أن ممارسة النقد في دراسة أدب البالغين عرفت منذ عهود بعيدة، فإن مثل هذا الجهد البحثي - فيما يتعلق بأدب الأطفال - لم يظهر إلا قبل بداية القرن العشرين بزمان قصير. ومنذ ذلك الوقت قدّم النقد الأدبي مساهمة مهمة في مجال أدب الأطفال، رغم أن العديد من النقاد الأدبيين الحاليين لكتب الأطفال يواصلون تبني موقف تونسيند «١٩٧١» الداعي إلى أنه: «لا يوجد ثمة شيء يوصف بأنه أدب أطفال، إنما هناك أدب فحسب». ويتبع كل من ألدرسون «١٩٨٠»، وكينغزبري «١٩٨٤»، وتونسيند وغيرهم مقولة هنت «١٩٨٣» أن: «أية نظرية نقد نستخلصها لأدب الأطفال لن تكون لها سوى صلة محدودة، أو لا صلة لها أصلاً بالأطفال». والمسؤولية الأولية للنقاد - حسب ما يؤكد بعض النقاد -

هي التعامل مع «الإننتاج الأدبي» الذي أمامه، وأن عمله يكمن في تحليل صارم للمهارة التي كتب بها هذا الإنتاج - ألدرسون، ١٩٨٠، صفحة ٦٧.

ومن ناحية أخرى يؤكد كل من

ماكدويل «١٩٧٣»، وهك «١٩٧٩»، أنه بينما يعد أدب الأطفال جزءاً من الأدب ككل، فإن هناك أوجه تباين واضحة بين الأدب القصصي الخاص بالأطفال، وذلك الخاص بالبالغين. وفضلاً عن ذلك فإن المشكلة - مع التركيز النقدي المنصب بالتزام على كتب الأطفال - هي أن النقاد وكذلك المؤلفون والمحروون والناشرون والباعة جميعهم من البالغين، بينما جمهور القراء هم الأطفال. وعلى أية حال، نشعر بالامتنان نحو عمل أصحاب نظريات واعين مثل جين بياجيه. وإننا نعرف أن نظرة الأطفال للعالم مختلفة من حيث الكيفية عنها عند البالغين، مما يخلق وضعاً تبهج معه بعض كتب الأطفال النقاد إلى حد كبير، مع عدم اكتراث بالأطفال «كيميل ١٩٨٢، صفحة ٣٨».

وقد أصبحت هذه الظاهرة - لبعض الوقت - مألوفة لدى البالغين المعنيين بالأطفال وكتبهم معاً، وعالجت شلاغر «١٩٧٨» هذه القضية بالدعوة إلى «إلقاح تهجين» بين دراسة تطور الطفل وأدب الأطفال، وهذا ما اقتصر عليه بحثها بصورة دقيقة، واكتشفت شلاغر صلة بين «محتويات الكتب التي يستمتع بها الأطفال،



النوع مفضلاً ذلك على التركيز الكلي على المعايير النقدية.

ودعا فلانات «١٩٧٤» أيضاً إلى أسلوب يجمع بين المعرفة بالأدب وبالطفل، وهذا من شأنه «أن يجنب كافة المهتمين بالأطفال والكتب استحسان بعض الكتب الخاصة بالأطفال، ليجدوا - فحسب - أن هذه الأعمال إما أهملت، أو رفضت بصورة قاطعة من الأطفال أنفسهم» «١٩٧٧»، ص ٦٩، وروزينبلات «١٩٧٨»، والتي تشير إلى أن الأدب يتشكل كتجربة بين القارئ وبين النص. وعليه، فإذا اعتبر الأدب تجربة، واعتبرت القراءة عملية إجرائية، فإن على النقد الأدبي الأخذ في الاعتبار كلاً من استجابة القارئ والنص الأدبي، الأمر الذي يتطلب من الناقد أرضية صلبة في فهم طبيعة الطفولة، ومعرفة بالمعايير الأدبية.

وقد ظهر حديثاً منهجان للبحث أسهما بجهود مشترك في تدعيم نظرية النقد الأدبي الذي يتخذ الطفل محوره، وركز أحدهما على استجابة الطفل للأدب (أبيلي ١٩٧٦، بنتون ١٩٨٠، فوسكو ١٩٨٣، بيرفيس ١٩٧٥) حيث عرضت عدة دراسات - لهؤلاء - أنماطاً «تظهرية» في استجابات الأطفال، وأفضليات توازي نموهم العاطفي والإدراكي.

وتركز النهج الآخر للأبحاث المعنية على تحليل لكتب الأطفال - كما فعلت شلاغر - بمقارنة خصائص الكتب التي

وبين الجوانب التظهرية للتطور المشخص الذي تعرضه الشخصيات الروائية «١٩٧٤»، ص ٥.

وأخيراً، فإن هدف The Cool Web هو - كما يوحى العنوان - «استكشاف أنماط قراءات الطفل»، وتوفير مخرج من مأزق الطابع النخبوي الذي يمكن أن يصطبغ به أدب الطفل بسهولة إذا فقد المؤلفون والنقاد - وهم ما عليه من دعم متبادل - الإحساس بالقارئ. وقد لقي النقد الأدبي الذي محوره الطفل - مع تركيز على المعايير الأدبية وعلى الطفل كقارئ - دعماً من النظريات الإجرائية لعملية القراءة التي اقترحها كل من إيزر «١٩٧٨». ودراسة برت «١٩٨١» التي استكشفت «حالة فن نقد أدب الأطفال» (برت وهك، ١٩٨٢، ص ٨٧٨) أقرت ثلاثة مناهج شملت :

(أ) أسلوب شلاغر بالتركيز النقدي على الطفل.

(ب) النقد التقليدي المركز على العمل الأدبي نفسه.

(ج) التركيز النقدي على الموضوع محل الخلاف.

وحدد شاكفولد «١٩٧٧» طبيعة النقد الأدبي الذي يتركز على الطفل بقوله : على الناقد أن يضع في اعتباره الملاءمة بين الأسلوب واللغة بما يتناسب مع محتوى الكتاب، بالإضافة إلى الحساسية والاهتمام بالقراءات المشوقة للأطفال «ص ١٠٢». وأكد كيميل «١٩٨٢» الحاجة إلى المزيد من النقد الأدبي من هذا

تحمل نوعاً من العلاقة مع مهمات الطفولة.

ومع هذا فإن استجابات الأطفال وأفضلياتهم لا تزال غير كافية، وبموجب التعريف الدقيق لمصطلح «أدب الأطفال»، فإن «روح وقلب هذا الحقل يجب أن توجد في نقطة الاتصال بين ذلك الذي يعتبر ذا ميزة أدبية، وبين ذلك الذي يعتبره الأطفال شيئاً يخصهم». وقد بدأت بعض الدراسات الأخذ بهذا النهج، حيث تركزت دراسات شلاغر «١٩٧٤»، وشاكفورد «١٩٧٧» على الكتب الأكثر - والأخرى الأقل - شعبية الخاصة بجائزة نيوبري، بينما كانت الدراسة التي أجراها كل من نيلسن وبيترسن وسيرفوس «١٩٨٠» مستقاة من كتب لاقت

يفضلها الأطفال بأخرى تحمل عناوين أقل شعبية «غروفر ١٩٧٦، كارنبروك ١٩٨٣، نيلسن، باترسن وسيفروس ١٩٨٠، وشاكفورد ١٩٧٧». وبعض الباحثين حققوا انتشاراً من خلال المكتبة لدائرة «إعارة الكتب للمشاركين»، بينما لجأ بعضهم الآخر للتعامل مع جوائز الولاية لمختارات الأطفال المفضلة، مثل جائزة كتاب أطفال ولاية جورجيا «كارينبروك ١٩٨٣»، وأحياناً ما تكون بدون ضبط نوعي. وهذه الدراسات تدعم تعميمات توكرز «١٩٧٢» حول الكتب ذات الأفضلية للأطفال من حيث الشخوص الذين يستطيعون أن يمثلوهم، والذين يناسبون مخططاً أخلاقياً واضحاً، ومن موضوعات الكتب التي



استحساناً كبيراً من النقاد واعتبرت شعبية من قبل أصحاب المكتبات.

وعلى أية حال، فقد لقي مصدر خصب لتحديد أفضليات الأطفال - مسابقة كتب الأطفال المختارة - اهتماماً محدوداً من قبل الباحثين. (وليزيد من الأبحاث المؤسسة على مختارات الأطفال، انظر بروس ١٩٨٤، وجرينلو ١٩٨٤، وسبستا، وكالدير، وكلياند ١٩٨٧).

وهذه العملية أفضت إلى ظهور مطبوعة سنوية منذ ١٩٧٥ للتعريف بالكتب المفضلة لدى الأطفال، وسنقدم مزيداً من التفاصيل عن عملية «اختيارات الأطفال» تحت عنوان «الطريقة».

ولأن بریت «١٩٨١» وجد «كمية صغيرة» نسبياً من النقد الأدبي المركز على الطفل، ورغب في فهم أفضل لماهية المزايا التي تجذب الأطفال لبعض الكتب، فقد أجريت دراسة تفصيلية عن الأدب الذي يتمتع ويحوز اهتمام الأطفال. وعلى كل حال فإن هذا التحقيق لم يكن ليعتبر تحليلاً واسع النطاق للخصائص الأكثر ظاهرية للكتب من حيث الموضوع، ونوع الكتاب، وأنواع الشخصيات، وبدلاً من ذلك فقد تم التعامل مع تلك الكتب بنقد أدبي مركز بعمق على الموضوع والأسلوب والبناء كما فعلت شلاغر بخصوص «القاسم المشترك الذي يوقع الأطفال بشراكه». وقد قصرت شلاغر دراستها على الصفات «التظهرية» لأبطال الروايات في كتب تم اختيارها لمسابقات الجوائز الأدبية و«مختارات الأطفال». وللمزج بين

المزية الأدبية وبين الإغراء المتضمن في مصطلح «أدب الأطفال».

ومن الممكن مقارنة هذه العناوين بكتب منحت جوائز أدبية من غير انتقائها ضمن «مختارات الأطفال» لتحديد الفروق - إن وجدت - بين هاتين المجموعتين.

وبصورة خاصة، تثير هذه الدراسة الأسئلة التالية:

ما خصائص الموضوع والأسلوب والبناء المشتركة - إن وجدت - بين الكتب التي يفضلها الأطفال ويتم اختيارها من قبل لجان الجوائز كمطبوعات مميزة؟ ثم ما أوجه الشبه والاختلافات بين هذه الكتب وتلك التي تحبذها لجان الجوائز من جانب واحد؟

الطريقة

يقع جزء من المنهج المستخدم في هذه الدراسة في موضع اختيار كتب الأطفال التي يتم فحصها، وإحدى مجموعات الكتب لاءمت كلا من معايير جذب الطفل والمزايا الأدبية. وبغرض المقارنة، أوردنا مجموعة أخرى اختيرت لجودتها الأدبية.

وتتحدد عوامل الجذب العامة للأطفال في هذه الدراسة على أساس «مختارات الأطفال»... وهذه الببليوغرافيا السنوية تم جمعها تحت إشراف اللجنة المشتركة لـ «رابطة القراءة الدولية» ومجلس كتب الأطفال. وتقوم اللجنة كل سنة بتوجيه سؤال لمقطع عرضي للأطفال الأميركيين



وتسجيل آرائهم. ويعبر الأطفال عما يفضلونه من الكتب من خلال ورقة اقتراح تحتوي ثلاثة خيارات: تفاعل إيجابي، أو حيوي، أو سلبي. وتجري عملية تقييم تناسبية للردود لعدم تساوي أعداد الأطفال في قراءة كل كتاب، ثم تعد القائمة

النهائية لتضم حوالي ١٠٠ كتاب - العدد المحدد لكل سنة تحدده اللجنة - تصنف في مجموعات حسب مستويات أعمار القراء.

ولكون المزايا الأدبية ضمن مقاييس هذه الدراسة، فإن الكتب من «مختارات الأطفال» منذ إنشاء هذه العملية - في عام ١٩٧٥ حتى ١٩٨٥ - جرى فحصها بصورة دقيقة مع الكتب المشتركة بمسابقة الجوائز وبالمباراة النهائية لجائزتي ميدالية جون نيوبري وبوسطن غلوب هورن. وكان هناك ثماني روايات اعتبرت كتب أطفال مختارة تلقت أو دخلت المسابقة النهائية لهاتين الجائزتين، وبقية الروايات الحاصلة على جوائز خلال تلك السنوات تقلصت إلى عينات عشوائية قدمت في أثناء عملية «مختارات الأطفال» (جرى التحقق منها بالاتصال الشخصي مع قادة الفرق الموزعة على الولايات والناشرين) ولكنها لم تكن مفضلة من قبل الأطفال. وهذه المجموعة

للتصويت على الكتب الجديدة التي يفضلونها على غيرها للقراءة. وعليه، فإن انتقاء قائمة الكتب المختارة للأطفال يعكس بصورة مباشرة اختيار عينة واسعة من الأطفال، في حين اعتبرت القيمة

الأدبية أهمية ثانوية بالرغم من المراعاة الجادة لها.

ومع أنه جرى إدخال تحسينات على عملية انتقاء «مختارات الأطفال» خلال السنوات الأولى من بدئها، فإن الإجراءات التي اتبعت في هذه العملية تمت على أساس أن يختار الناشر ما نسبته ٢٥ بالمائة «أو ٥٠٠ - ٧٠٠ عنوان كتاب» من مجموع إنتاجهم السنوي من كتب الأطفال لتدخل ضمن «الكتب المختارة للأطفال»، (ويجب ملاحظة أن إحدى نواحي القصور في عملية انتقاء الكتب تنضج في حقيقة أن اختيار العينات الأصلية يتم بواسطة أناس بالغين هم الناشر). وتختار اللجنة المشتركة مرة كل سنتين خمسة أقاليم - يؤخذ في الاعتبار توزيعها الجغرافي - يشترك عشرة آلاف طفل منها سنوياً بفحص ميداني للكتب التي يقدمها الناشر. ويتولى قادة الفرق المعنية في كل إقليم نقل الكتب لتداولها بين القراء من الأطفال،

التي تضم تسعة كتب، والجوائز عنها أدرجت في الملحق «أ».

واستخدمت في هذه الدراسة طرق البحث الكيفية ضمن نموذج بحث المذهب الطبيعي «انظر لنكولن وغوبا ١٩٨٥». وقد حلل الباحث وصنف محتوى كل عنوان كتاب منتخب بالتركيز على الموضوع والأسلوب والبناء. والفئات المحددة ضمن هذه المساحات الثلاث الواسعة لم تكن مقررة سلفاً، وإنما ظهرت مع نشوء الدراسة، وتم توصيفها تحت «النتائج»، وكانت الإجراءات التي استخدمت في تحليل محتويات الكتب على النحو التالي:

قرأ الباحث كل كتاب بدون توقف لمرة واحدة، واكتسب من هذه القراءة فهماً حدسياً للموضوعات، وكيفية تطورها من خلال الأسلوب والبناء، وبعد القراءة الأولى سجل مذكراته كملاحظات لتكون بؤرة القراءات اللاحقة. وأبرزت القراءة الثانية كل شيء كان ملحوظاً عند نقطة التركيز. ففي العادة يتركز الاهتمام الأولي لهذه القراءة على النقاط الخاصة بموضوع الكتاب، وجرى تصفح الكتاب للمرة الثالثة والرابعة للتعرف على خصائص الأسلوب، فيما اتضحت عوامل بناء الكتاب عندما ارتد الباحث على العمل ككل.

ولدى اكتفائه بقراءة الكتاب، صنف الباحث الكتاب إلى أجزاء أظهرها حسب البناء الفئوي الذي بدا وانصقل مع تقدم الدراسة. وتطلبت منه إضافة فئة جديدة

في بعض الأحيان مراجعة تحليلات محتوى الكتاب التي أنجزت سابقاً. وأدخل الباحث نظام شيفرة خاصاً على هوامش الكتب ذاتها لتحديد الأجزاء التي ركز الانتباه عليها. هذا بالإضافة إلى أنه وضع أرقام صفحات كل من هذه الأجزاء على ورقة منفصلة تحمل «ترويسة» الفئات، ومن ثم عمد إلى تجميع مراجع الصفحات لتجديد شروحات لكل ترويسة لهذه الفئات.

وبعد إجراء تحليل لكل كتاب بدأ الباحث بالتحقق من محتوى التحليلات، واستخدم صيغتين للتأكد من عمله :

(أ) تمت قراءة كل كتاب من قبل شخص آخر مختص بالتحليل الأدبي، ومن قبل شخص آخر صغير السن، الذي أجريت معه لاحقاً مقابلة منفصلة للتأكد و للمساعدة في مراجعة نتائج التحليل.

(ب) تحليل عرض منشور لكل كتاب من ثلاثة مصادر للتوثيق.

وكانت مقابلات الباحث مع الكبار تبدأ بتوضيحه للفئات التي تلائم ذلك الكتاب، وكيفية دعم المحتوى لتلك القرارات، في حين قد يسهم المشارك الآخر في تأكيد أو وضع إضافات أو تشذيب ذلك التحليل. وبعد المقابلة - التي يجري تسجيلها على أشرطة وتدعمها ملاحظات ميدانية - يعد مباشرة ملخص كتابي لها، ثم تتم مراجعة التسجيلات في مرحلة لاحقة وتدون مقتطفات منها. بعدئذ يجري التحقق من العمل بمساعدة المشارك للمزيد من التدقيق، وفي نفس

والمقابلات، يعد وصف سردي كتابة
ليمثل التحليل الكيفي الكامل لكل من الـ
١٧ كتاباً، وليجسد مقتطفات مباشرة من
الكتب ذاتها، ومن المقابلات، ومصادر
المراجعات المنشورة. وهذا السرد يعتبر
مقالة نقدية لكل كتاب تتراوح بين خمس
وعشر صفحات — حسب حجم وشكل
الكتاب — وقد يوجد مثل ذلك في الدراسة
الكاملة «انظر ليمان ١٩٨٦».

نتائج ومناقشة

يتعرض هذا الفصل لنتائج الدراسة
والمناقشة التفسيرية لحصيلة وبيانات
تحليلات المحتوى.

عندما أجريت مقارنة السرد الفني
للكتب الـ ١٧، كانت النتيجة الأولى التي
تم التوصل إليها هي: وجود فروق بين
الكتب الثمانية التي فضلها الأطفال،
واختيرت من قبل
لجان الجوائز ككتب
مميزة. وبين الكتب
التسعة الأخرى التي
لاقت استحساناً فقط
من قبل نفس لجان
الجوائز. وعلى أية
حال، اتضح أن
الفرق بين اهتمام
الأطفال، أو عدم
اهتمامهم بالكتاب
المعد لهم يتوقف على
الأسلوب أكثر من

الوقت تعطى الفرصة للمشاركة لإجراء أية
تصحيات، أو وضع إضافات.

وكانت المقابلات مع صغار السن من
القراء تجري بصورة مختلفة إلى حد ما
عن تلك التي تجري مع الكبار. فبدلاً من
توضيح كيفية ملائمة الفئات لمحتويات
الكتاب، عمد الباحث إلى توجيه أسئلة
للقارئ الصغير لتحديد كيفية اعتقاد
القارئ/القارئة، بأن تلك الفئات تلائم
المحتويات. ومرة أخرى، يجري تسجيل
هذه المقابلات على أشرطة وتدون
الملاحظات، وتجرى مراجعة الشريط،
ومراقبة المقابلة مع المشترك.

وتمثلت الصيغة الأخرى للتوثيق
بتحليل محتويات المراجعات المنشورة
لكل كتاب من مجلة «Horn Book»،
ونشرة مركز كتب الأطفال، ومجلة المكتبة
المدرسية، وتستخدم هذه المراجعات في
تثبيت وتوسعة وتشذيب تحليلات
الباحث. (عدة

أمثلة محددة حول
كيفية إجراء
المقابلات
والمراجعات
المنشورة
استخدمت لتؤيد
تحليلات المحتوى
أوردناها في باب
«النتائج والبحث»
من هذه الدراسة.

وعندما تكتمل
تحليلات المحتوى



فضول القارئ لكشف مدى صحة توقعاته وتخمينه. فالخصائص التنبئية وعناوين فصول الكتاب وما تنذر به تزود القارئ بمعلومات موثوقة لمحتويات القصة. كما يستدعي القارئ خبراته السابقة للتعامل مع التراكيب المألوفة للقصة ومع المؤلفين والشخصيات. وثمة شيء مختلف - وفق ما يراه كل من جوسي وبروور «١٩٨٤» - هو أن التشويق يثير «عدم التيقن والتوقع» لدى القارئ نحو «نتائج مهمة» نظراً للتعاطف مع بطل القصة. هكذا، فإن بمقدور حبكة قصة تثير التشويق أن تعزز رغبة القارئ باستمرار التنبؤ بما قد يحدث لاحقاً، ومن ثم يستمر بالقراءة لمعرفة النتيجة.

وعندما يتحقق ما يتنبأ به القارئ فإنه يشعر بالسيطرة على تسلسل وقائع وأحداث القصة، وهي حالة تدعو للارتياح والطمأنينة. وقد لاحظ توكر «١٩٧٢» أهمية العادات المتبعة في كتب الأطفال التي تمكن من التنبؤ، وتساعد الأطفال على الشعور بصورة أكبر بالسيطرة على القصة. توفر حجة فافات «١٩٧٧» القائلة: إن البناء القصصي الموجود في غالبية الحكايات الشعبية يوضح مفضلات الأطفال، ويوفر دعماً إضافياً لأهمية قابلية التنبؤ. وهذه الرغبة في التنظيم والسيطرة تؤكد لها نظرية بياجيه حول تطور الطفل التي تضع مبدأ أساسياً يؤكد أن الإنسان ينهمك منذ الولادة - من خلال التصنيف والفئوية - بتنظيم الحوافز في هياكل إدراكية. وهذا

المادة المكتوبة. ومن ناحية ثانية، أظهرت موضوعات الكتب تشابهاً كبيراً بين اختيارات الأطفال، والجوائز المختارة من النقاد، بينما أظهرت خصائص الأسلوب وطريقة البناء الفني فروقاً أكثر وضوحاً. وأوضحت النتيجة الثانية أن خصائص الأسلوب وقابلية التنبؤ واللهجة التفاضلية، وإيقاع الأحداث الأكثر حيوية هي أكثر ثبوتاً في الكتب المفضلة لدى الأطفال، كما يوضح ذلك الجزء التالي:

خصائص الأسلوب

في المفهوم الأدبي، يصف الأسلوب كيفية تطور محتوى القطعة الأدبية من قبل الكاتب، وهو يحدد الحالة الشاملة للعمل الأدبي. وقد جرى أولاً توضيح الخصائص التي كشفت الفروق بين مجموعتي الكتب.

١ - تشير قابلية التنبؤ إلى الخصائص المميزة التي تشغل انتباه القارئ وتعزز التوقع، مثل عناوين الأبواب، والاستشراف المستقبلي، والتشويق والبناء المألوف للقصة، والكتاب المشهورين والشخصيات.

وتسمح قابلية التنبؤ للطفل القارئ باستحضار وخلق توقعات حول القصة، وتمكنه من وضع تخمينات وافتراسات حول ما يمكن أن يحصل في الحدث المقبل، أو حول ما سيكون عليه مجمل الكتاب. وإن المقدار الصحيح لقابلية التنبؤ يثير

الصغار. وفشلت قصة Alan & Naomi في تقديم ما يؤذن بنهايتها المأساوية، ولكن سير القص يقود القارئ للاعتقاد بأن النهاية ستكون سعيدة.

٢ - تصف اللهجة المستخدمة الحالة الشاملة للقصة من حيث كونها متفائلة أو جزئية أو جادة أو مسلية أو عاطفية. والحقيقة أن اللهجة التي تبعث على التفاؤل تعتبر ميزة لكتاب الطفل. وأشار توكر إلى «أنه ليس من العدل أن يتخلص الكبار من صور اكتئابهم وأمزجتهم بإسقاطها على الأطفال». وأكد هـ «١٩٧٩» أنه: «عند إغلاقك الباب دون الأمل فإنك تكون غادرت مملكة الطفولة». ويوحى سلون «١٩٧٥» بأن المأساة والفكاهة عبارة عن حبكات روايات «معاناة وتحرر من الوهم»، وهي تعكس عدم ملائمة للطفولة ولأزمة «البراءة» والأمل. وفي هذا الإطار فإن لهجة رواية «اللعبة الغربية The Western Game» الساخرة لا تخدم توجهها نحو الأطفال، وأكد باترسوك «١٩٨٦» أن الكوميديا هي ما يحتاجه الأطفال لكونها متميزة بالحصافة وروح الفكاهة والأمل «ص ٢٩٤».

وبينما تتراوح لهجة الكتب بين الخفيفة والمأساوية، فإن معظم الروايات غالباً ما تكون متفائلة في لهجتها، وتلك سمة يفضلها الأطفال. أما الكتب الثلاثة الأخرى فتسودها لهجة مختلفة: رواية «الجسر إلى تيرابيثيا» مع أنها متفائلة في الخاتمة إلا أنها حزينة، أما الروايتان «ألن

التنظيم يجعل الحوافز طيبة ومفيدة، ويمكن التكهّن بها ومُرضية من الناحية السيكولوجية. لذا، فبالنسبة للطفل القارئ - الذي يتمتع بخبرة أقل من البالغين والذي غالباً ما تبدو الأحداث المباشرة والعالم خلفه خارج حدود سيطرته - فإن بعض قياسات قابلية التنبؤ في الكتب التي يقرأها قد تكون غاية في الأهمية.

وفي هذه الدراسة توجد سمات قابلية التنبؤ في جميع مختارات الأطفال القصصية. (انظر الجدول ١ - قابلية التنبؤ)، ومن ناحية ثانية توجد تقنيات قابلية التنبؤ بدون تقييد، كما هو الحال في ثلاثة كتب دخلت منافسة الجوائز هي: «Bridge to Terabithia» و«Hear and Cry and Child of the Owl» و«Roll of Thunder» وقصيدة One-Eyed Cat لا تتمتع ب«المنظم الأمامي» وبالعناوين الفرعية، وبشيء من التشويق، ولكن هذه التقنيات أبطلت بغموض القصيدة والعناوين وسرعة الحركة. (أنظر المناقشة اللاحقة حول حركة بناء القصة). ولم تتضمن قصة The Western

games عناوين فصول أو مفاتيح لحل الألغاز، لكنها ضمت تلميحات بذلك مستترة بصورة مقصودة خلف رموز مضللة ومربكة أكثر من كونها أداة تشويقية للطفل القارئ. وقصة Abels Island قد تشير إلى رواية يمكن التنبؤ بها «الفأر النبيل المدلل والمنتصر»، إلا أن هذه الشخصية قد لا تكون مألوفة لمعظم القراء

وناعومي « Alen & Naomi » و«قصف الرعد» « The Roll of Thunder » فإن نهايتيهما مأساويتان.

٣ - يصف الايقاع «Pace» سرعة أو بطء جريان القصة، وسرعة الحركة تعتبر أكثر نموذجية في «مختارات الأطفال» منها في الكتب المنافسة على الجائزة. ومن الممكن توصيف روايتين من «مختارات الأطفال» بأنهما بطيئتا الحركة وفي المقابل هناك أربع روايات تعد بطيئة سريان الحركة، على أن رواية «The one-Eyed cat» تعد الأكثر بطئاً في هذه الدراسة. أما الخصائص المتبقية للأسلوب فإنها لا تشير إلى مثل هذه التناقضات البينة.

٤ - تظهر اللغة استخدام أسلوب يتميز باللغة المجازية، والتخيل، والمفردات غير المتداولة.

وقد تساوت مختارات الأطفال، وروايات الجائزة في المزايا بهذا البعد في تقييم العمل الأدبي

٥ - تشير «وجهة النظر» «Point of View» إلى ذلك البعد الانطباعي الذي تنطلق منه القصة، وقد يكون هذا بضمير المتكلم عندما يكون راوية القصة هو شخصيتها المركزية، أو بضمير المخاطب إذا كان الراوية هو المؤلف الذي يسرد القصة من وجهة نظر شخصية واحدة، أو المخاطب كلي المعرفة عندما يكون الراوية هو المؤلف الذي يسرد القصة من وجهة نظر شخصيات متعددة. إضافة إلى ذلك، قد تكون «وجهة النظر» منحازة «engaged» أو متجردة «detached»

بحسب مدى اقتراب القارئ من التماثل مع إحدى شخصياتها.

وقد استخدمت «وجهات نظر» متعددة في الكتب موضع الدراسة إلا أن رواية «The Western Game» كانت الوحيدة التي كتبت من «وجهة نظر متجردة جداً» والراوية المحيط ببواطن الأمور في هذه القصة، أوجد مسافة تمنع القارئ من التوحد مع شخصية الراوية.

٦ - تشير «الفكاهة» «Humor» إلى تلك الصفات التي توفر الدعابة من خلال الشخصية، أو الحدث أو اللغة.

٧ - تشير الرمزية «Symbolism» إلى استخدام الرموز في تطوير موضوعات محورية أو لعرض الأفكار بالراوية، وتضمنت تسع من روايات الجوائز رمزية، في حين استخدمت في خمسة من ثمانية كتب من «مختارات الأطفال»

ومن الممكن استنتاج أن هذا التباين في عدد الكتب يعرض farkاً كبيراً بين المجموعتين ولكن من الناحية الكيفية تحول الرمزية المستخدمة في مختارات الأطفال الخمسة المعنية دون اتخاذ مثل هذا الحكم.

٨ - يشير تعبير «بناء الجملة» «Sen-tence structure» إلى استخدام تراكيب متنوعة للجمل، كالتكرار، والجمل القصيرة وغير المكتملة، والجمل الاعترافية، وأي شيء ينحرف عن الجملة القياسية.

٩ - يتعلق التحليل لعاملي لبنية الكتاب بالمظهر المادي للنص مثل

ذلك أمور مثل بناء الحكبة الحديثة، واستخدام الارتجاع الفني، وانحلال عقدة الرواية أو تركها مفتوحة.

وتختلف كتب «مختارات الأطفال» وكتب الجائزة في هذه الدراسة بنائياً في طريقتين فقد بينت خمس عشرة من سبع عشرة رواية حلولاً كاملة للعقدة الروائية فيها، والروايتان المتبقيتان بنهايتيهما المفتوحتين كانتا من كتب الجوائز. وهناك فرق آخر بين المجموعتين تمثل في درجة تكيف الحركة ضمن بناء الحكبة. ويمكن وصف أربعة من كتب الجوائز بالمقارنة مع كتاب واحد من مختارات الأطفال بأنها أقل تكيفاً حركياً، وأكثر استبطانية في التركيب. هذا بالإضافة إلى أن الأطفال يبدو أنهم يستمتعون بتركييب الحكبة الأبيسودية «episodic» حيث أظهرت ثلاثة كتب من مختاراتهم الأخذ بهذه التراكيب. والكتاب الوحيد الذي تضمن ارتجاعاً فنياً كان ضمن مختارات الأطفال.

وأخيراً، أستخلص من هذه الدراسة أن لبعض التركيبات سمات غير محببة بصورة خاصة. وأمكن التوصل لهذه النظرية بمقارنة خصائص الأسلوب والبناء، ولوحظ أن نفس الروايتين Alan و Naomi & Roll of Thunder -

كلتاهما من كتب الجائزة - اللتين اختتمتا بنهايات تراجيديية لم تحملاً أيضاً حلولاً للعقدة فيهما. وكذلك نفس كتب الجوائز الأربعة One Eyed Cat و A solitary و Blue و Homesick..My Own Story و

استخدام الحروف المائلة والحروف الكبيرة، وتقسيم الفصول وطول الفصل والكتاب بصورة شاملة، بالإضافة إلى ملاحظات المؤلف.

ويتضح من الدراسة أن الفروق بين عوامل بنية الكتب المعنية بالدراسة هامشية، وتضم مجموعتا الروايات خمسة كتب لكل منهما، يحتوي كل كتاب على فصول مطولة بمتوسط مقداره ١٥ صفحة مع الصور الإيضاحية.

وبتلخيص معظم النتائج البارزة لخصائص الأسلوب يتضح من هذه الدراسة أن الأطفال يفضلون الكتب التي تحمل قابلية التنبؤ واللغة المتفائلة والحركة الحيوية، إضافة إلى ذلك يجب ملاحظة أن الخاصيتين الأخيرتين هما اللتان تميزان الأدب الخاص بالأطفال، وذلك الخاص بالكبار «ماكسويل».

على أن هنالك نتيجة ثالثة لهذا التحقيق تتعلق بالخصائص البنائية للكتاب، فالكتب المفضلة لدى الأطفال يتضح أنها تجذب من حيث التراكيب المكيفة للحركة والانحلال الكامل لعقدة القصة. والمناقشة اللاحقة توضح هذا الاستنتاج.

الخصائص البنائية

في العمل الأدبي تظهر السمات التركيبية للرواية الطريقة التي تنظم من خلالها حبكة القصة والرواية ككل، بما في



Child of the Owl ، كانت أقل
تكيفاً حركياً في بنائها . لذلك ،
افترض عندما تكون هناك لهجة
حزينة مشفوعة بنهاية مفتوحة
أو تسارع بطيء مع حبكة
استبطانية، أن الكتاب الذي
يحمل ذلك قد لا يكون جذاباً
للأطفال القراء النموذجيين.

وبالعودة إلى موضوعات
الكتب نجد أنها لا تبين عموماً
مفارقات بين مجموعة كتب
«مختارت الأطفال» وروايات
الجوائز. وفي الكتب التي أظهرت
اختلافاً بدا أن الأطفال يفضلون
الكتب التي تحتوي رواية

يستطيعون التماثل معه ويعتبرونه نظيراً
لهم. كذلك وجدت «المدركات المكانية»
و«الوهم ضد الواقع» .. أنها موضوعات
أقل شيوعاً في كتب «مختارات الأطفال»،
والمناقشة اللاحقة تتناول توضيح هذه
النقاط.

الموضوعات

كتعبير أدبي ، تتعامل موضوعات
الكتاب مع المحتوى المركزي لأغراض
المؤلف:

١ - «الطفل» بطل الرواية يتطور من
خلال طفل رواية يعرض سمات طفولية
مثل «الحاجات، والسلوك، والتفكير»، بما
يخلق صورة متعاطفة مع حالة الطفولة،
وهو وسيلة للتماثل بالنسبة للطفل
القارئ.

٢ - يجري تصوير «النمو» من خلال
مهمات تطويرية شائعة بين العديد من
الأطفال في عملية النضج.

ولإظهار هذين الموضوعين أعلاه تم
فحصهما معاً للعلاقة الوثيقة فيما
بينهما، واتضح تطورهما في كل رواية
معنية بهذه الدراسة باستثناء
رواية Abels Isla (من كتب الجوائز..)،
وهذا يثير التساؤل إزاء ما إذا كان هذا
الكتاب في الأصل من كتب الأطفال. إذ إن
عدم وجود طفل رواية، ووجود وجهة
نظر ناضجة ولهجة تعبيرية معقدة، ولغة
موحدة مع الصور الإيضاحية والمبالغات
التشخيصية، تجعل من الصعب تحديد
نوع القراء المعنيين بهذا الكتاب.

ويقول ماكديويل إن الصفات الثلاث
الأولى الواردة أعلاه غالباً ما تميز الكتب

أظهرت قصة Alan & Naomi علاقات قوية بين الراوية والأطفال الآخرين، أما الكتب الباقية فإن شخصياتها المحورية أقامت علاقات محدودة مع بقية الشخصيات (انظر الجدول ٣ - علاقات) في حين عرضت روايات «مختارات الأطفال» أبطالاً رئيسيين ارتبطوا بعلاقات مرضية وحميمة مع نظرائهم الأطفال.

٤ - يعرض «حل المشكلة» من خلال استخدام الراوية للمكاته العقلية، وقدراته في حل المشكلات باستقلالية تامة. ويجري الارتقاء بذلك إلى درجة أن أصبح هذا موضوعاً في جميع الكتب، وعليه فإنه لا يوجد تمييز من هذه الناحية بين مجموعتي كتب هذه الدراسة.

٥ - تنمو الأهداف والطموحات من خلال طموحات الشخصية الواقعية ومثابرته على تحقيقها، ووجد الاهتمام بهذا الموضوع في كلتا المجموعتين بصورة متكافئة.

٦ - «الإحساس بالمكان» استعرض من خلال حاجة الشخصية إلى مكان ينتمي إليه أو يمتلكه، وبدا هذا الموضوع أكثر وضوحاً في روايتين من «مختارات الأطفال» وخمس من روايات الجوائز ومع أن عنوان رواية «الحنين إلى الوطن، قصتي» - «Homesick, My Own Story» يؤكد «الإحساس بالمكان» كموضوع رئيس إلا أن هذا الموضوع لم يوجد بالكتب الأخرى. علاوة على ذلك فإن إحساس جين بالحاجة إلى موطن لا يبدو

الموجهة للكبار، ويرى كالينان أن الصفتين الآخرين تناسبان كتب الأطفال الأصغر سناً والذين تتراوح أعمارهم بين ٣ - ٧ سنوات من حيث الأفكار والمشاعر واللغة المنسوبة للحيوانات. ويضيف كالينان أن فنتازيا الحيوان صيغة محببة للأطفال في هذه المرحلة.

٣ - تتطور العلاقات من خلال التفاعل ما بين شخصيات الرواية حيث اتضح أن الأطفال يفضلون الكتب التي يتفاعل خلالها الراوية مع شخصية الطفل، وأنهم يعرضون عن الكتب التي تكون فيها التفاعلات ما بين شخصياتها المحورية ضعيفة ومحدودة. وهذا الموضوع مثل أهمية في جميع الروايات التي تناولتها هذه الدراسة

باستثناء

The»

Western

Game».

ومن بين

خمس

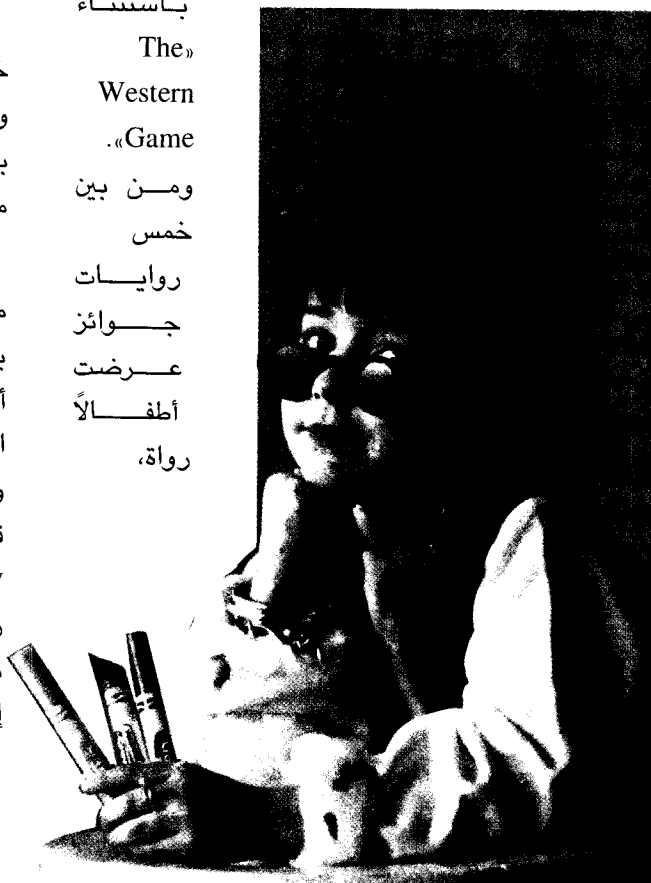
روايات

جوائز

عرضت

أطفالاً

رواة،



أنه موضوع نموذجي يستطيع القراء الأطفال التماثل معه. وفي مقابلة مع القارئ لوهـر « ٢١ مارس ١٩٨٦ ». أشار هذا إلى أن الحنين إلى موطن لا يعتبر حاجة للأطفال بصورة شاملة «لأنه مسألة شخصية خاصة بـجين». وأكد قراء آخرون أنهم لا يحملون أهمية لمثل هذا الموضوع.

٧ — «الخير ضد الشر» يتضح من خلال التوصيف الواضح بين الحق والباطل الذي من خلاله تتصارع قوى الخير مع قوى الشر.

ومما يثير الاهتمام، أن موضوع «الخير ضد الشر» لم يظهر في الكتب السبعة عشر المعنية بالدراسة كما قد يكون متوقعاً افتراض حاجة الأطفال لخطـة أخلاقية واضحة). وكما أوضح توكر «١٩٧٢» فإنه «كلما كانت شخصيات الرواية أكثر وضوحاً في تحديد هـم من حيث جاذبيتهم أو التنفير منهم كان ذلك أسهل للأطفال لمعرفة مايجري». وقال ماكديويل: من وجهة نظر الطفل فإن هذا المشهد «أن الخير سينتصر وأن الشر سيعاقب» ليس أميناً ومطمئناً فحسب، بل إنه مثير للتفاؤل أيضاً. وهذه خاصية أساسية في كتب الأطفال. على أية حال، فإن غالبية الكتب في هذه الدراسة تناسب القراء الذين تتراوح سنهم بين ١٠ و١٨ سنة أكثر منها للأطفال الصغار الذين تكون الخطـة الأخلاقية الواضحة بالنسبة لهم أكثر أهمية. فقصص الجنيات - على سبيل المثال - التي تصور

بوضوح الخير والشر تروق بصورة أكبر للأطفال من سن ٦ - ٨ سنوات، حسب ما يؤكد فافات. والكتاب الوحيد في هذه الدراسة الأكثر تعرضاً للخير ضد الشر بصورة مدهشة The Hero and the Crown «كتابات مختارات الأطفال»، يعتبر رواية يافع صغير ينمو تدريجياً مع تقاليد الغناء الشعبي. وافترض فافات أن «انبعاث التشويق» في قصص الجنيات لمن تتراوح سنهم من ٨ — ١٠ سنوات يبدو أنها ستمر على مدى حياة الكبار» «ص ٥٦».

٨ — موضوع الوهم ضد الواقع مصور بالكلمات من خلال مظاهر خادعة ومأزق الشخصية لدى مواجهته مع الواقع. وهذا الموضوع الأخير لا يبدو أنه بمستوى أهمية الموضوعات الأخرى بالنسبة للأطفال، وهو أقل ظهوراً في كتب «مختارات الأطفال» (اثنان فقط) منه في كتب الجوائز «أربعة».

هكذا، فبينما تقدم الموضوعات تعارضات هامشية بين كتب «مختارات الأطفال» وكتب الجوائز — «أعني في المجالات المتعلقة باهتمامات وحاجات الراوية المتنامية مع تكرار «الإحساس بالمكان» و«الوهم ضد الحقيقة» — فإن معظم الاختلافات لا تتعلق بصورة قوية بالموضوعات.

ونلخص الاستنتاجات الرئيسية الشاملة لهذا البحث على النحو التالي:

١ — توجد اختلافات واضحة بين الكتب الأدبية عالية الجودة التي يفضلها

للطفل ، وبين المزايا الأدبية. ولنتائج هذه الدراسة مغزى بالنسبة لدراسة ونقد أدب الأطفال، والتعامل مع الأطفال والكتب معاً.

معايير للدراسة النقدية لأدب الأطفال

إن معرفة النوعيات التي تسهم في اجتذاب الطفل وفهم جذورها في تطوير الطفل يمكنان الناقد من إعطاء اعتبار جدي للكتب التي هي تخص الأطفال حقيقة. وربما استطاع ماكويل (١٩٧٣) الوصول إلى أقرب نقطة في جذب الانتباه لجوهر تلك المعرفة، وذلك الفهم بقوله: «إن كتاب الطفل، هو ذلك الكتاب الذي يستطيع الطفل التعامل معه بدون الحاجة إلى مرشد آخر خلاف المؤلف» (ص ٦٢). وعند إقامة تقييم على هذا المستوى، يجب أن يتحول الاهتمام إلى الصفة الأدبية. فالنقد الأدبي الذي يتخذ الطفل محوراً يخلق مطالب مختلفة من الناقد «للحفاظ على تلك الصفات التي هي أدبية وتلك الطفولية (بيرت وهك - ١٩٨٢ ص ٨٨٢).

هذا بالإضافة إلى أنه يتوجب على العلماء، بينما يحاولون سبر غور الطبيعة المحيرة لعوامل جذب الطفل، إجراء دراسة عميقة لتلك الكتب التي تصنف حقيقة، كأدب أطفال، واستخدامها كعلامات مرشدة لهذا الفرع من المعرفة. ومثل هذه الدراسة، وهذا النقد من شأنهما تعزيز

الأطفال «مختارة لهذه الدراسة»، وبين الأعمال المستحسنة أدبياً وإن كانت أقل تشويقاً للأطفال. على كل فإن الاختلافات بين هاتين المجموعتين من الكتب أكثر وضوحاً من حيث خصائص الأسلوب والبناء القصصي منها من حيث الموضوعات.

٢ - بصورة خاصة، النوعيات التنبئية، واللهجة التفاضلية، والحركة الأكثر حيوية تعتبر نقاطاً أسلوبية واضحة في الكتب المفضلة لدى الأطفال.

٣ - كتب الأطفال المفضلة تجذب باتجاه البناء القصصي المتكيف مع الحركة، ومع نقاط حل العقدة الرئيسية بالرواية.

٤ - بعض التركيبات التوافقية، بصورة خاصة، مثل النهايات التي لا تحمل حلولاً لعقدة الرواية المشفوعة بلهجة مأساوية، والحبكة الاستبطانية المصحوبة بحركة بطيئة، فهي أقل شيوعاً في كتب «مختارات الأطفال».

خلاصة

كما تفعل غالبية الدراسات، تقرر هذه الدراسة بنقاط قصور. فهي ليست قائمة على نطاق واسع و«محدد» للبحث في كتب الأطفال، أو ما يفضلونه من كتب. لكنها، على أية حال، كشف في العمق للسبعة عشر كتاباً، التي - إلى جانب بحوث أخرى - تضيف شيئاً إلى الجسم المتنامي للمعرفة حول نقطة التقاطع بين ما يروق

أن يمتلك خبرة أدبية، ويجب ألا يوحى هذا بأن كتب الجوائز لم تجد تقديراً من جميع الأطفال».

على أية حال، تناولت هذه الدراسة مجموعة كتب خاصة تفي بالمقاييس الأدبية وتحمل قاعدة عريضة لجذب القراء الصغار التي تحكمها معايير «مختارات الأطفال»، وهذا عامل مهم للأخذ في الاعتبار، وهو أكبر من أن يهمل.

إن النقد الأدبي المركز على الطفل يستطع المساهمة في بناء الجسر ما بين الطفل القارئ والكتاب، نظراً لاهتمام النقد بالبحث المتواصل عن مقاييس وأهمية جعل الكتب الممتازة في متناول الكثرة والقلة على حد سواء. وإن أدباً مميزاً للأطفال ينطوي على صفة متفردة ترتبط بطبيعة الطفل «بريت وهك ١٩٨٢»، وإن بمقدور توحيد وسائل جذب الطفل، والنقد الرفيع توفير نظرة شمولية عن أدب الأطفال، وتقديم خدمة أفضل للاحتياجات الأدبية للمقصودين من جمهور القراء.

هوية أدب الأطفال، كما أوضح ماديمان «١٩٧٦» بقوله «إن الهوية المحددة لأي فن تصبح أشد رسوخاً بتنميتها الشعور الذاتي». ومن هذا الشعور الذاتي تتشكل القدرة التعبيرية للعلماء والنقاد والمؤرخين. (ص ١٩).

أساليب جذب الأطفال نحو الكتب

أحد الأهداف الرئيسية لتعليم القراءة ينطوي على تطوير الطفل الذي يقدر القراءة ويستمتع بها، ومع ذلك، كما هو في الغالب، حتى الأطفال الذين يستطيعون القراءة تجدهم لا يريدون ذلك. فهم يقرأون، بتذمر، الكتب المطلوبة منهم فحسب، وعملياً يوقفون القراءة عند تركهم المدرسة. وعليه، فإن مضمون هذا البحث بجذب الأطفال نحو الكتب غاية في البساطة، وهو يتمثل في أهمية إيجاد التوافق بين القارئ والحكاية. (بريت وهك ١٩٨٢). وأكد روزينبلات - ١٩٧٤ - «أن علينا أن نقدم للطفل أعمالاً يصلح لها شيء في حياته الخاصة أو انشغالاته أو خبرته اللغوية كجسر للوصول إليه. بهذا فقط يستطيع الطفل

إلى أي نسط من الأمهات تنتمي؟

كارول بيكر

عارف حديفة

كيف تربين أطفالك؟ هل أنت متساهلة معهم؟ هل تشملينهم بالحرص والحماية؟ هل أنت حازمة ومنصفة في الوقت نفسه؟
اختبري قدراتك التربوية مع هذا الاختبار الكاشف، وتأملّي الأفكار الواردة في هذا المقال من أجل جهد أكثر توفيقاً في تنشئة طفلك.

ويحققوا إمكاناتهم في الحياة. والغريب في الأمر هو أنه، على الرغم من أن الأهداف قد تكون واحدة، فإن الأمهات يسعين إلى تحقيق ذلك بأشكال متباينة جداً. فبعض الأمهات يعتقدن أن خير مساعدة يمكن تقديمها للطفل هي نظام صارم

لو سألت مجموعة من الأمهات عما يردن لأطفالهن، لسمعت من معظمهن أجوبة متشابهة. فالأمهات يتفقن عموماً على أنهن يرغبن في أن يكون أطفالهن سعداء، وذوي تكييف حسن، وواثقين بأنفسهم، وأن يطوروا علاقات إيجابية،

العنوان الأصلي للمقال : What Kind of Parents are you, Practical Parenting September 1992

الانضباط، بينما ترى أخريات أن الأطفال يترعرعون أقوى وأصحاء في جو من الحرية ليس فيه إلا القليل من القواعد والقيود.

وبالطبع نحن لا نعامل أطفالنا دائماً بالطريقة ذاتها تماماً. فقد تجددين أنك أكثر تغاضياً في بعض الأحيان منك في غيرها، فتنهونين في أمور معينة، وتتشددتين في أمور أخرى. بيد أنك على العموم تتبعين طريقة خاصة تسوسين بها أطفالك، وهذا هو أسلوبك التربوي.

فكري، على سبيل المثال، في مختلف الأشكال التي قد تستجيب بها الأم حين يرفض طفلها تناول وجبة. فيما يلي خمسة أشكال مختلفة لسلوك الأم تظهر استجابة كل نمط من الأمهات في هذا الوضع. فأي الاستجابات أقرب إلى الاستجابة التي قد تبدينها أنت؟

الأم المتسلطة

تلجأ إلى لغة الأمر، وتصر على تناول الوجبة، وربما تهدد طفلها بالعقاب، أو تمنع عنه شيئاً يسليه. وقد يتحول هذا الوضع إلى معركة بين إرادتين.

الأم الحازمة والمنصفة.

تفاوض طفلها طالبة منه أن يأكل قليلاً. وقد تعرض عليه بديلاً، ولكنها تتحاشى المعركة.

الأم المتساهلة.

لن ترغب طفلها على الأكل. قد تسمح له بأن يتناول ما شاء ومتى شاء.

الأم المحبة للمداعبة.

قد تصرف انتباه طفلها عن الوضع الذي من المحتمل أن يتعقد في أثناء موعد الطعام، وتحوله إلى لعبة.

الأم الحريصة.

تتملق طفلها وترشوه، ويقلقها أن تفوته التغذية الحيوية، أو أن يكون مريضاً.

وبالطبع لن تستجيب بالضرورة بالطريقة ذاتها تماماً في كل وقت. ففي



ستضغطين على طفلك الذي صار يمشي حتى يستخدم المbole Potly؟ هل تصرين على أن يرتدي طفلك البالغ ثلاث سنوات ثيابا مقبولة أكثر من ثيابه الخاصة الغريبة التي اختارها بنفسه؟

وشأنك شأن الأمهات جميعا، أنت تريدين أن تقومي بالأفضل من أجل طفلك. وتربية الأطفال هي، في النهاية، أحد أهم الأعمال — وربما أهم الأعمال — التي يمكن أن يؤديها المرء. إن رعاية شخص آخر، وصياغة شخصيته هما مسؤولية ممتعة وضخمة في آن معا. وفكرة الإخفاق في ذلك فكرة مفزعة، إلا أننا جميعا هواة نتعلم ونحن نتقدم، وننجز ماننجز من خلال التجربة والخطأ.



بعض الأحيان قد تقلقين أكثر — ربما كان طفلك مريضا وعازفا عن الطعام — مما لو عرفت أنه قد تناول فطوره جيدا، ويمكن أن يتحمل فوات وجبة.

إن الحياة اليومية مع الأطفال حافلة بالقرارات. فعلى سبيل المثال، هل تسمحين لطفلك بأن يلعب بما في خزانة المطبخ من محتويات؟ إلى أي مدى

كيف نتخذ بين النمط الذي ننتهين إليه؟

B — هل تشجعينها على التكيف، وتؤكدين لها أنها ستكون على مايرام، ثم تنصرفين عندما تكون أكثر ابتهاجا؟

C — هل تقولين لها : إنه لا يهم إن بقيت أو ذهبت، ثم تعودين بها إلى المنزل رأسا؟

D — هل تنزلين إلى باحة الرقص، وتشاركين في الحفلة مغرية إياها بالالتحاق بك؟

E — هل يستحوذ عليك الاضطراب، وتدعينها تجلس في حضنك طيلة الوقت؟

٢ — ماذا تفعلن إذا رأيت طفلك

من أجل مساعدتك على استخلاص النمط الذي تنتهين إليه، ابتكرنا هذا الاستجواب الكاشف والمسل. فاقترئي الأسئلة التالية، وارسمي دائرة حول الاستجابة التي من المرجح أن تبديها في كل وضع، ثم تعرفي إلى ماتكشفه أجوبتك عن أسلوبك التربوي.

١ — ماذا تفعلن إذا وجدت ابنتك ذات الثلاث سنوات قلقة، ومتعلقة بك، عندما تأخذينها إلى حفلة ميلاد إحدى الصديقات؟

A — هل تشعرين بالارتباك لأنها خذلتك، وتزجرينها عن تلك السخافة؟

التغيير. ولكن قد تقرر ان بوسعك ان تجري بعض التعديلات على أسلوبك. فإذا كنت، مثلاً، تميلين إلى الصرامة مع طفلك، فقد تعتزمين إبداء قدر من التساهل مستقبلاً. وقد تفاجئين مفاجأة سارة عندما تجدين أن أمراً فظيلاً لم يحدث عندما نال طفلك حرية أكثر قليلاً، بل وقد تكتشفين أن علاقتكما قد أصبحت أقل توتراً في واقع الأمر، وأن صحبتكما صارت أكثر إمتاعاً.

ومن جهة أخرى، لو أنك كنت غير مؤمنة بالأنظمة الصارمة، وأطلقت لطفلك العنان، فقد تجدين أن الحياة تغدو أسهل بالنسبة لكليهما إذا ما وضعت بعض القواعد الأساسية. وإذن فأن تنتظري من طفلك أن يساعدك في جمع الألعاب،

وذلك هو السبب في أنه سيكون من المفيد أن تراجع نفسك من حين لآخر وتتأمل الطريقة التي تتعاملين بها مع القرارات والمشكلات اليومية التي تواجهك كأماً. قد تشعرين بالثقة في أنك على جادة الصواب، وأن كل شيء يسير على مايرام. وفي هذه الحالة سترغبين عن



التعويض؟

٣ - ماذا تفعلين إذا كان عليك أن تذهبي إلى السوبر ماركت للتسوق الأسبوعي، وثارَت نائرة طفلك صارخة زاعقة، لأنها لا تريد أن تترك أحجية الصور المقطعة غير منتهية؟

A - هل تقولين لها: إنك لن تصبري على هذا الهذر دقيقة واحدة، وتلقينها في السيارة وهي تصرخ؟

B - هل تقولين لها: إن لديها خمس دقائق أخرى للانتهاء من اللعبة، ولكن عليها أن تعدك بأن تأتي بعد ذلك من غير بكاء؟

C - هل تقررين أن الأمر لا يستحق



تضرب طفلة أخرى خطفت دميتها؟

A - هل تصفعين طفلك، وتنهينها عن ضرب الآخرين؟

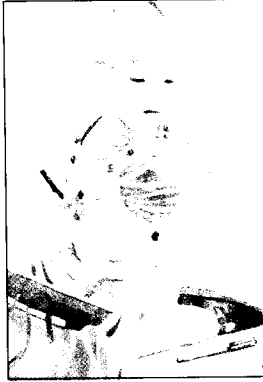
B - هل تنهينها عن ضرب الأطفال الآخرين، وتساعدينها على استرجاع دميتها؟

C - هل تنصرفين، وتركينهما تسويان الأمر فيما بينهما؟

D - هل تخبرينها أن هناك دمية أفضل بكثير، وتأخذين باللعب بها بنفسك بغية تشجيعها؟

E - هل تندفعين لاسترضائها ومواساتها، وتعطينها ربما قطعة حلوى، وتغرينها بشيء على سبيل

يحتجن إلى «ربطة على الكتف»
شأنهن في ذلك شأن الأطفال.
ونحن جميعاً نحتاج إلى
التشجيع، ولن تجدي ثقتك
بنفسك شيئاً أن تكثري من
النقد الذاتي، فليس هناك أم
كاملة، ولعل ذلك هو العدل
أيضاً. ففي عالم يفتقر إلى
الكمال، كيف كان سيحيا طفل
لو لم يكن عنده شيء من التجربة في
التغلب على الإحباط، وخيبة الأمل،
والمشاعر السلبية، من خلال علاقة أسرية
توفر له الحب والأمان.



وأن يأوي إلى الفراش في وقت
معقول، فربما استنفد ذلك
شيئاً من التوتر في علاقتكما
دون أن يلحق به أي أذى.
وقد تأتي أوقات تبدين فيها
أنت وطفلك في خلاف
مستمر. وإنها لفكرة جيدة،
في مثل هذه الحالات، أن
تراجعي طريقة معالجتك
للأمور، وتري إن كنت قادرة على
الاستجابة على نحو مختلف. فالمسألة لن
تتعدى في الغالب إبداء قدر كافٍ من
المرونة للعثور على قصد السبيل.

وحين تقومين بمراجعة لطريقة
تربيتك لأطفالك من المهم أن تكوني
إيجابية ومترفة بنفسك. فالأمهات

سماع تلك الكلمات مرة أخرى بأي حال
من الأحوال؟

B - هل تدعين الأمر يستمر قليلاً، ثم
توضحين أن تلك الكلمات ليست حسنة،
وأن الناس الآخرين قد لا يحبون أن
يسمعوها؟

C - هل تدعينها تتابع من غير أي
تعليق؟

D - هل تضحكين معها فترة قصيرة،
وتقترحين كلمات مقبولة أكثر
للاستخدام؟

E - هل تقررين منع طفلك من رؤية
تلك الصديقة؟

هـ - ماذا تفعلين إذا كنت تحاولين
إنجاز بعض الأعمال المنزلية على وجه

المشاحنة، وأن عليك أن تقبلي بأن تكون
آخر علبة من الفاصولياء المحمصـة
عشاء لكم مرة أخرى.

D هل تدعينها إلى سباق لتريا من
يستطيع أن يرتدي ملابسه وحذاءه
أولاً؟

E - هل ترتبكين لأنك لا ترغبين في
إزعاجها ولكن يهـمك أن تتناول وجبة
جيدة؟

٤ - ماذا تفعلين إذا تعلمت طفلك
ذات الأربع سنـوات بعض الكلمات
البذيئة من صديقتها الجديدة،
وصارت تستخدمها في أثناء تناول
العشاء؟

A - هل تقولين لها : إنك لاتريدين

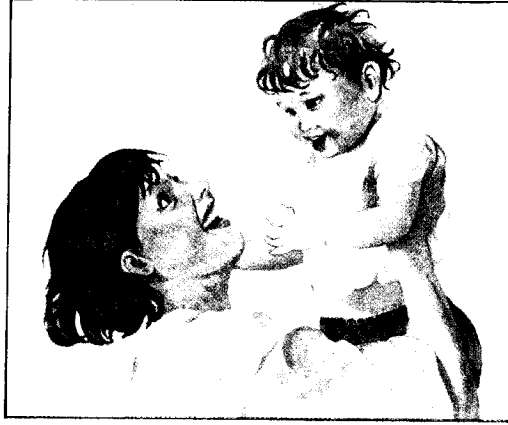
مالذي يجعلك تتصرفين على هذا النحو؟

طبيعية وتغيري أسلوبك إذا اخترت ذلك.
إن العوامل التالية كلها تؤدي دوراً في
صياغتك كأم.

هناك العديد من العوامل التي تدخل
في تحديد نمط الأمهات الذي تنتمي إليه.

طفولتك:

إن تنشئتك لها
تأثير لا يستهان به
في طريقة تربية
أطفالك. ربما
تكررين الكثير من
مواقف أبويك
ونماذجهما، شئت
هذا أم أبيت، وفي
بعض الحالات قد



ولاتكادين
تستوعبين
بوضوح
كيف تؤثر
هذه
العوامل
فيك حتى
يسهل عليك
فهم
مايجعلك

بعد أن وضعته في سريرهِ؟

A - هل توضحين له أنك لست
مستعدة لاحتمال هذا الهراء؟
B - هل تذهبين إليه للتأكد من أنه
على مايرام، وتقديمين له بعض
التطمينات، ولكنك لا تدعين نفسك
تنجر إلى اللعب أو الدردشة معه؟
C - هل تتركينه مستيقظاً مادام
يرغب في ذلك، وبالتالي لا تنشأ هذه
المشكلة؟

D - هل تعانقينه، وتديرين شريط
قصته المفضلة لتساعديه على النوم؟
E - هل ترقدين معه على السرير
حتى ينام؟

السرعة، وطفلك يتبعك ناحياً؟

A - هل تطلبين منه أن يكف عن هذه
العادة، وتهدينيه بإرساله إلى غرفة
النوم، أو تستردين منه شيئاً يسليه؟
B - هل تعقدين معه صفقة على أن
يدعك تتابعين العمل مدة من الزمن
تتفقان عليها، وبعد ذلك تتوقفين عن
العمل وتلعبين معه؟
C - هل تصرفين اهتمامك عنه؟
D - هل تحاولين زجه في مساعدتك
بتحويل الأعمال إلى لعبة مسلية؟
E - هل تقيسين درجة حرارته ظناً
منك أنه مريض؟
٦ - ماذا تفعلين إذا ظل طفلك يناديك



تكون طريقتك رد فعل على تنشئتك. ففي وقت ما لابد أن نكون قد قلنا جميعاً: «لن أفعل ذلك مع أطفالي» لكن حتى لو كان ذلك ردة فعل على ماضيك، فإن ذلك الماضي ما يزال يصوغك.

كل واحد منا يحمل في داخله عدداً من التعاليم تشرّبها دون تمحيص من أبويه ومن أناس آخرين. وهذه التعاليم تحدد مانتوقعه من أنفسنا ومن أطفالنا أيضاً، كأن نقول: «يجب أن أولي طفلي اهتماماً طيلة الوقت»، أو «ينبغي أن يفعل طفلي ما أقول من غير اعتراض» ومشكلة هذه القواعد هي أن أحداً لا يستطيع أن يتصرف وفقها دائماً، بل قد تكون في أحوال كثيرة غير مناسبة. المستحيل لا يخلق إلا التعاسة والإحباط.

وفي أغلب الحالات تكون هذه القواعد لا شعورية، فإذا شعرت أن النجاح لا يحالفك أنت وطفلك يجدر بك أن تسأل نفسك: «ماهي القاعدة الخفية التي يتم خرقها؟» هل تتبعين أيّاً من هذه القواعد الخفية: ينبغي أن يكون الأبوان دائماً على صواب... أن يشغل الطفل المحل الأول من الاهتمام طيلة الوقت... ألا يخرج الأبوان عن طوريهما أبداً... أو يجب على الأطفال ألا يناقشوا... أن يحسنوا التصرف دائماً... أن ينسجموا مع أخوتهم وأخواتهم. وحالما تدركين هذه القواعد العفوية التي تتبعينها قد ترين نفسك ترومين المستحيل، وعندئذ يمكنك أن تسعى إلى شيء أكثر واقعية.

E - هل تتحاشين الخلاف وتؤدين العمل بنفسك؟

٨ - ماذا تفعلين إذا استثير طفلك، وأنت تحتسين الشاي خارج البيت، وتجاهل محاولات تهدئتك له؟

A - هل توبخينه أمام الجميع، أو تبعدينه عن الطاولة؟

B - هل تخرجين به من الغرفة، وتهديينه، ثم تعودين وكأن شيئاً لم يحدث؟

C - هل تتركينه على حاله؟

D - هل تحاولين إلهاءه؟

E - هل تخجلين، ويـزعجك ماسيظنه الآخرون بك وبه؟

٧ - ماذا تفعلين إذا ترك طفلك ألعابه مبعثرة على أرض الغرفة؟

A - هل تقولين له: إنك لن تسمحي له بأن يشاهد التلفاز إذا لم يجمع كل الألعاب؟

A - هل تقترحين أن يرتب بعض الأشياء، أو أن ترتب الأشياء المبعثرة معاً؟

C - هل تتغاضين عن ذلك لأن الألعاب الملقاة على أرض الغرفة لا تزعجك؟

D - هل تربطين الساعة المنبهة، أو تديرين شريطاً، وترين إن كنتما تستطيعان ترتيب الغرفة معاً قبل أن ينقضي الوقف؟

شخصيتك

إن شخصيتك ذات تأثير عظيم في أسلوبك التربوي. فإذا احتجت، مثلاً، إلى نوع من الروتين، أو شئت أن تكون الأشياء «هكذا تماماً»، فقد تنظمين حياة طفلك حتى آخر التفاصيل، وتواجهين مشاق التغلب على الفوضى التي هي جانب لا مفرّ منه من جوانب العيش مع الأطفال. وهذا يمكن أن يخلق كثيراً من التوتر في الأسرة.

أما إذا حاولت أن تكوني أكثر تراخياً، فإن أطفالك سيكونون أكثر تراخياً أيضاً. أو قد تكونين من الأشخاص القلقين. والقلق سرعان ما ينتقل إلى الأطفال الذين يمكن أن يصبحوا متخوفين وعصبيين.

لدينا جميعاً سبب وجيه للقلق أحياناً، وهناك مع ذلك مناسبات ماعليتنا إلا أن نضع حداً لمخاوفنا فيها. إن تصحيح الأمور هو أمر واقعي يحدث توازننا في الأسرة.

الظروف الراهنة

من السهل جداً عليك أن تكوني أما متراخية، إذا كنت مستعدة لإنجاب طفل، ومدعومة مالياً، ولك علاقة ثابتة. أما إذا كنت غير مستقرة عاطفياً أو مالياً، أو شعرت بالاستياء من الطفل الذي يهدد بالخطر على نحو ما مصيرك أو علاقتك مع زوجك، فمن الواضح عندئذ أن التمتع بالأمومة سيغدو أكثر صعوبة. من المهم أن تتخذي أي خطوات ممكنة للتخفيف

راجع إجاباتك

عُدّي الإجابات التي رسمت حولها دائرة من المجموعات: E, D, C, B, A .

على حين قد يكون لديك بعض

الإجابات من مجموعات مختلفة - مما يدل على مقاربة متوازنة إلى سلوك الأم - فإنك قد تجد أن معظم إجاباتك من مجموعة واحدة، وهذا يظهر أسلوبك التربوي. وهما هي ذي باختصار الصفات المميزة لكل مجموعة:

إذا كانت أكثر إشاراتك إلى إجابات A فانت أم متسلطة

وإذا كانت أكثر إشاراتك إلى إجابات B فانت أم حازمة ولكنك منصفة.

وإذا كانت أكثر إشاراتك إلى إجابات C فانت أم متساهلة.

إذا كانت أكثر إشاراتك إلى إجابات D فانت أم محبة للدعابة.

وإذا كانت أكثر إشاراتك إلى إجابات E فانت أم حريصة.

ولكن لعل أهم تأثير تتلقينه كأم هو تأثير طفلك ذاته. فالطفل الخجول والقلق يحتاج من أبويه إلى تشجيع إيجابي أكثر، على حين يحتاج الطفل الصاحب الصعب المراس إلى ضبط وتأديب أكثر حزماً.

الأم المتسلطة

إذا كنت أما متسلطة فأنت تؤمنين بأهمية الانضباط، ولديك معايير صارمة للسلوك، وتتوقعين من طفلك الانصياع من غير اعتراض. كما أنك ميالة إلى التصلب، واستخدام العقاب، واسترداد الأشياء المسلية للحصول على الانصياع. إن الناحية الإيجابية لذلك هي أن طفلك تعرف أين تقف، إلا أن النظام الصارم قد يجعلها تشعر بالعجز والاستياء. قد تشعر أن صوتها غير مسموع أبداً، وأن حاجاتها لا تؤخذ في الاعتبار على الإطلاق، ولأن طفلك تتعود على أن يقال لها ما تفعل، فإنها تستصعب أخذ المبادرة في أكثر الأحوال. وهي تحتاج دائماً إلى قدوة، وقد تفتقر إلى احترام الذات، وتكون متحفظة. وحين تكبر، قد تصبح متمردة، ولاسيما في فترة المراهقة. وتشير الأبحاث في النمو الأخلاقي عند الأطفال إشارة عارضة إلى أن أولئك الذين يحسنون التصرف خوفاً من السلطة، من الأرجح

من الإجهاد في حياتك، وأن تلتسي العون والدعم حين تواجهين مصاعب لا سبيل إلى اجتنابها.

عدد الأطفال

إن معظم الأمهات يجدن أنهن أكثر حزماً وأكثر قلقاً عند إنجاب الطفل الأول. وحين يأتي الطفل التالي، يكن عادة أكثر ثقة بالنفس، وأكثر تراخياً، وبالتالي يملن إلى منحه مزيداً من الحرية في مجالات معينة.

الزوج.

إلى أي حد ينهمك زوجك في تربية الأطفال؟ وهل تتفقان تماماً في النظر إلى الأمور المهمة؟ إذا كان زوجك يميل إلى إفساد الأطفال، فقد تشعرين أن عليك أن تعززي سلطتك للتعويض عن ذلك. وقد يكون الأمر خلاف ذلك، إذ قد يزداد تراخيك، إذا اعتقدت أنه بالغ الصرامة. والوضع الأمثل هو الوضع الذي يشارك فيه الزوجان في حب الأطفال، وفرض النظام. وإذا شعر أحد الزوجين أنه يقوم بكل الأعمال العاطفية المضجرة، على حين

يلهو الآخر ماوسعه اللهو، افتقرت الأسرة إلى التوازن. والأكثر من ذلك هو أن الأطفال سرعان ما يحسون بأي انقسام بين الأبوين فيثيرون الواحد منهما على الآخر.



أن يغشوا، ويتصرفوا تصرفا سيئا عندما يكونون غير مراقبين.

إذا كانت إشاراتك إلى مجموعة (A) ستأ أو أكثر، فمن الراجح أن تكوني أمًا حية الضمير، تريد من طفلتها أن تحسن العمل، وأن تنسجم مع توقعات المجتمع. ولكنها قد تشعر أن سلطتك تكتسحها. لعلك تستطيعين أن تتراخي قليلا، وتعطي طفلك شيئا من الحرية. يمكن أن تستفيدي أنت وطفلك من اللهو أكثر معا. امنحي طفلك مزيدا من الثقة، وثقي أنها في النهاية ستثبت أنها جيدة من غير أن تهمسي في أذنها على الدوام، أو تراقبي كل حركة من حركاتها. وحين تحتاجين إلى ترسيخ القواعد، تأكدي أن طفلك تتفهم الأسباب. أما الاختصار على قول: «لأنني أريد ذلك»، فلايساعدها على أن تفهم لماذا عليها أن تتصرف على نحو ما. حاولي أن تري الأمور من وجهة نظرها.

الأم الحازمة والمنصفة في وقت معا

أنت تؤمنين بوضع الحدود والقواعد، ولكنك مرنة مرونة معقولة، ومستعدة لملاقاة طفلك عند منتصف الطريق. يسود حياة أسرتك بعض الروتين فيما يخص أوقات الوجبات والنوم، ولكنك مستعدة لأن تلوي عنق القواعد عند الضرورة. أنت لاتسمحين بالاعتداء، وتشجعين طفلك على احترام حقوق الآخرين مثلما حقوقها هي محترمة دائما. وتحاولين، كأم حازمة، أن تكسبي تعاون طفلك بإيضاح السبب الداعي إلى وجوب

القيام ببعض الأمور. وتركزين على الإيجابيات، فتؤثرين إبداء السرور بنجاح طفلك على إنزال العقاب بها عند الإخفاق. وأنت تأخذين مشاعر ابنتك بالاعتبار، ولكن إذا أسفّت فلست الخصم الذي يسهل التغلب عليه، فتأخذينها بالحزم حين تضطرين إلى ذلك.

ربما تكون علاقتك بابنتك حميمة، وتقضين وقتا طويلا في اللعب معها. والأطفال الذين ينمون مع أم هذا أسلوبها التربوي، يميلون إلى الثقة بالنفس، وحب الاختلاط بالناس، والاعتماد على الذات ويراعون أيضا مشاعر الآخرين، ويحبهم عادة معلموهم وأترابهم.

إذا كانت إشاراتك إلى مجموعة B ستأ أو أكثر، فإن طفلك تحس إحساسا عميقا بالإنصاف، وهي واثقة من حبك لها، وهذا ينعكس على علاقاتها. وإذا ما كانت تعاني ضعفا ما، فقد ترى أن من مصلحتها أن تكون لطيفة أكثر مما ينبغي. هل تخشى طفلك انزعاج الآخرين من قولها: لا؟ ربما تكون كثيرة الشكوك والوساوس ويقلقها الشعور بالذنب والمسؤولية. لذلك قد يترتب عليك أن تساعديها على أن تصبح أكثر جرأة على الجزم والتأكيد.

الأم المتساهلة

أنت تفرضين بعض الضوابط والقيود، وتسمحين لطفلك أن يفعل مايشاء، ويتخذ قراراته الخاصة. ليس في حياة أسرتك إلا القليل من الروتين



الأم المحبة للدعابة

أنت تستمتعين
بصحبة طفلك،
وتعرفين كيف
تكسبين تعاونه،
وتتحرشين

التعارض معه باللهو والألعاب المؤقتة
جيدا. أنت خلاقه، وواسعة الخيال في
صنع أشياء مثيرة من الأحداث اليومية
من مثل إعداد الطعام، أو التسوق، أو
أعمال الترتيب. ويشيع في بيتك جو حميم
وبهيج.

كأم محبة للدعابة، أنت بارعة في
التواصل مع الطفلة التي تعيش في داخلك.
لعلك تحسنين الاستمتاع بفرصة
استعادة الأشياء المثيرة في طفولتك، أو
تعوضين نفسك مما فاتك من دعابات
عندما كنت تكبرين. أنت تسبغين العفوية
والحماسة على سلوك الأم حيال الأطفال،
وتتركين شعرك ينسدل وأنت ترقصين،
وتمثلين، وتنخرطين في لعب حيوي
مفتعل.

إن طفلك ميال إلى الإيجابية،
والتفاؤل، والثقة بالنفس. وسوف يرى
طفولته زمنا ذهبيا حين يكبر. ربما يكون
واسع الحيلة، ولكنه قد يستصعب
الانكباب على مهمات عسيرة ومضجرة
إذا لم يجد حوله من يشجعه، ويثير
حماسه.

إذا كانت إشاراتك إلى مجموعة D

والقواعد. لعل ابنك
يأوي إلى الفراش متى
شاء، ويأكل مايرغب
في أكله متى أراد. ولعله
أيضا يختار ملابسه،
ويشاهد التلفاز كلما
رغب في ذلك.

يبدو أن لهذا الأسلوب التربوي نتائج
متنوعة. فمن الناحية الإيجابية، قد يبدي
طفلك الكثير من المبادرة، والإبداع، والثقة
بالنفس، ويتعلم الاستقلال في سن مبكرة
بيد أنه قد يفتقر إلى ضبط النفس، وقد
يكون عدوانيا ومتمردا، ولأن تجربة
التكيف مع الآخرين تنقصه، فقد يصادف
مشقة في المدرسة، ومع مجموعة اللعب.
وهو يجهد التركيز أحيانا لأنه لم يشجع
قط على ملازمة مهمة واحدة.

إذا كانت اشارتك إلى مجموعة C ستا
أو أكثر، فإن الحرية التي تمنحنيها لطفلك
ربما جعلته مستقلا وواثقا بنفسه. إلا أن
بعض القيود قد تساعد على إعداد
للتكيف مع الحياة خارج المنزل. راقبي
مايمكن أن يقوم به عندما يختلط
بالآخرين: عند أخذ الدور، مثلا، والتزام
الهدوء في الجلسة، واتباع بعض
التعليمات. تأكدي إن كان بوسعك
الشروع في إعداده برفق من غير أن
تدمري ثقته بنفسه. إن بعض الروتين،
وبعض القواعد الأساسية يمكن أن تعطي
طفلك ذلك الإحساس المهم جدا
بالطمأنينة.

نيابة عنها على تعليمها كيف تخوضها هي بنفسها. وبما أنك تشعرين أن أحدا غيرك لا يمكن أن يعنى بابنتك قدر عنايتك بها، فإنك يصعب عليك أن تعهدي بها لأناس آخرين. إن التحاق الطفل بالمدرسة قد يصدّم الأمهات الحريصات على نحو خاص.



ستا أو، أكثر فمن الواضح أن أمومتك ناجحة. ونجاحك ينتقل إلى طفلك الذي يشعر بالأمان، وبأنه محبوب، ومرغوب فيه. وما تظهرينه حين تكونين مع طفلك إنما هو، في الحقيقة، ذلك الجانب الميال إلى اللعب والتخيل من شخصيتك. ولكن هل باستطاعتك أيضا أن تدعي طفلك يعبر عن الحزن والغضب؟ إن

الخطر من ملاطفته طيلة الوقت هو أنه قد يصعب عليه نقل المشاعر السلبية. لذا حاولي أن تسمحِي لطفلك بالتعبير عن الحزن والغضب بالإضافة إلى الابتهاج.

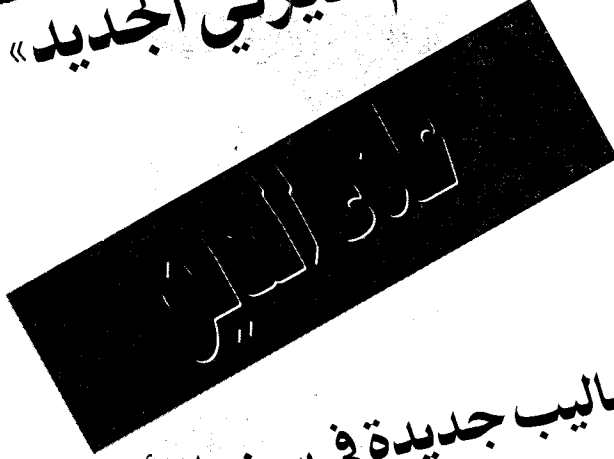
الأم الحريصة

إن معظم الأمهات يشغلن أن يكن مفرطات في حماية أطفالهن أحيانا. وحين يواجه أطفالنا أخطارا كثيرة، لابد أن يلبس الخطأ احتراسا في أكثر الأحوال. وعلى كل حال إذا كنت أما حريصة، فأنت ميالة إلى القلق على طفلك في معظم الأوقات. وأنت تجدين صعوبة في تركها تستقل عنك، ولذلك تواصلين القيام بالأشياء نيابة عنها بعد أن تصبح قادرة على تدبر أمرها بوقت طويل. أنت لاتحملين رؤية ابنتك حزيننة، ولسوف تفضلين خوض معاركها

من الناحية الإيجابية، تتمتع طفلك بعلاقة حب حميمة معك. ولكن قد يصعب عليها الانفصال عنك فيما بعد، وقد تشعر دائما أنها مسؤولة عن سعادتك. وسوف يصعب عليها التعامل مع التجارب العسيرة، وتكون ميالة إلى الاتكال على الآخرين، وإلى الوجع، والسلبية.

إذا كانت إشاراتك إلى مجموعة e ستا أو أكثر، فإن طفلك قد تكون مركز حياتك. وفي الوقت الذي ستكسب فيه الكثير من تكريس اهتمامك لها، فإنها تحتاج أيضا إلى التشجيع لتكون أكثر استقلالا ومغامرة. يمكن أن تشرعي الآن في النظر إلى بعض الأمور التي تقومين بها نيابة عنها، مثل ارتداء الملابس، أو تناول الطعام، فهي قد تؤدي هذه الأعمال بشكل معقول. شجعيها على تحمل مزيد من المسؤولية، وتجنبي أن تراك وأنت قلقة، فالقلق شديد العدوى، وطفلك تحتاج إلى تعزيز ثقتها بنفسها، وليس إلى تقويضها.

فيلم «ديزني الجديد»



أساليب جديدة في سينما الأطفال

أستطيع أن أفتح عينيك واصطحبك من عجب إلى عجب، فوق وتحت الطرقات، في رحلة على البساط السحري. عالم جديد بكامله ، وجهة نظر جديدة خلاصة.. مطاردة مثيرة.. مكان رائع.. لك .. ولي..

يحركون قسبة قلم رصاص على قطعة من الورق، ويبدعون مناظر لا تصدق، ومشاعر تُعجز الوصف.

«إنك لا تجرؤ أن تغمض عينيك!

لترى مئات الآلاف من الأشياء!

احبس أنفاسك .. لتبدو الأشياء

أفضل!».

هذه بالطبع أغنية عاطفية. إن علاء

الدين الرجل البسيط يطير بالأميرة

ياسمين إلى سماء حبه الأول المتحرر من

القيود. لكن كلمات أغنية تيم رايس

الشعبية، التي تمتطي البساط الأخضر

للحن ألن مينكن، تجسد بدورها سحر

أفلام الرسوم المتحركة. فالفنانون

وهي تبدو كذلك في المغامرة الكوميدية «علاء الدين» التي أخرجها وأنتجها رون كلمنتس وجون ماسكر «فالولد» يقابل «فتاة» ويفقدها، ويحصل عليها في مملكة عربية، قصورها مشيدة من غزل البنات وأهرام بشكل نمور فاغرة أفواهها، وساحرات شريرات، وقردة لصوص، وببغاوات كارهة للعنصر البشري.. بساط سحري حقيقي وجني يبذل أشكالا وشخصيات بأسرع من طرفة عين.. ذاك هو روبين وليامز! إنه عالم جديد أسر.

إن العالم القديم الذي تمثله دور السينما في هوليوود، وعروض التلفزة الأميركية أصبح بحاجة لإعادة ترميم من حيث أسواقه الخربة، وباعته المتجولون الذين ينادون على بضاعتهم بمفاهيمهم البالية، كما لو أن بضاعتهم ما زال لها سحرها السابق. فهناك صيغ قديمة شبه مستنزفة، وغسق من الدخان والضباب يكفن هذه الصناعة كغلالة مجمدة.

أما بالنسبة لأفلام الرسوم المتحركة الأميركية، فهذا هو عصرها الذهبي. ولم تكن أشكال الرسوم المتحركة ناجحة تجارياً ومبهجة فنياً قبل الأربعينيات مع بينوشيو ودمبو من «والت ديزني»، ومع الرسوم الكاريكاتورية التي أبدعها كل من تيكس أفري، وبوب كلامبيت، وتشك جونز في «وورنر برذرز». وعلاوة على ذلك، ففي الوقت الذي كان فيه الفن في الولايات المتحدة متجزئاً، وحتى مثيراً للخلاف والشقاق، حيث لم تكن هناك عملياً ألوان ترفيهية لها جاذبية عالمية،

فإن الإبداع الكوميدي الأصيل والاتساع العاطفي لأفضل الرسوم الكارتونية المتميزة، أعاد التوحد بين مستهلكي الثقافة الشعبية، وموهبة هوليوود الناجعة للإبهاج الروحي خلال الحفلات النهارية الواسعة لأيام السبت.

وفي التليفزيون، فإن النجاح الكبير الذي حققته حلقات مسلسل سمبسونز «الأفضل من نوعه بلا جدال أو منافسة»، وكذلك مسلسل «نيكولوديون» لا يدانيه في إثارة إعجاب المشاهدين سوى عروض الفترة الصباحية من أفلام الكارتون التي تنتجها شركتا «ديزني وفوكس».

وفي البرامج التجارية وأفلام الفيديو الموسيقية، ولعب الـ «نينتندو»، والجزء الأكثر مبيعاً في سوق أشرطة الفيديو، حتى أفلام الكارتون، تروق الرسوم المتحركة للكبار بحنينهم إلى أيام «الطائر الجوّاب Roadrunner»، وللصغار الذين ينقلهم اهتمامهم من إطار فيلم كارتون شديد الصخب إلى آخر. فالفيديو جعل من الأطفال مستهلكين مميزين لأفلام الكارتون. كما يقول سمبسونز مؤلف مات جروننغ «Matt Groening» الذي يضيف قوله: «إن أبنائي يشاهدون بامبي Bambi وبينوشيو Pinochio لعدد من المرات لا يحصى».

وقد كان إحياء الرسوم الكاريكاتورية على الشاشة الكبيرة مثيراً بدوره، فإنتاج شركة ديزني الذي هبط مستواه فجأة عقب وفاة والت ديزني عام ١٩٦٦، استعاد سحره في منتصف

من حيث الشكل المبتكر الذي يبدعه الاستديو لأحداث القصة، والذي تتوافر فيه عناصر الفخامة والإبهار.

وهذا الـ «علاء الدين» الذي نراه في الفيلم ليس أميراً متنكراً، بل هو لص مجهول، فتى يعيش بلا مأوى بحي الأتقيات في مدينة «أغرابا» عاصمة الإمبراطورية التي يحكمها سلطان سكير ومستشاره النافذ جعفر. وفي أحد شوارع المدينة يلتقي علاء الدين ياسمين ابنة السلطان التي طالما رفضت كل خطيب ملكي من الشرق تقدم طالباً يدها، فالحب والطموح يفتنان علاء الدين.. في حين يأسر الظمأ للمغامرة ياسمين، لكن في حقيقة الأمر تجد كلاً من الشخصيات الرئيسية بالقصة يبحث عن الحرية: علاء الدين لكي يفلت من برائن الفقر، وياسمين للخلاص من الأسر الملكي والسلطان من سيطرة وزيره والجني من حياته داخل المصباح. ومنذ اللحظات الأولى للفيلم يظهر تاجر (الأداء الصوتي لروبين وليامز) الذي يلعب أيضاً دور الجنيّ يعرض على المشاهدين و«مجموعة مؤتلفة من نرجيلة وصانعة قهوة ومقلاة رقائق»، يتضح أن فيلم «علاء الدين» هو فيلم مثير وساحر يمسك بأنفاس المتفرجين، وأن القارئ سيحتاج إلى أن يشاهده مرتين لتكتمل له متعة استيعاب روح السخرية خفيفة الظل المبتوثة في أحداثه.

يرى شاك جونز - وهو محق في رأيه -

الثمانينات تحت إلحاح كل من جيفري كاتزينبيرغ، رئيس الاستوديو الجديد، وروي ديزني ابن شقيق والت الذي يعتبر الأب الروحي لجيل الرسوم المتحركة الجديدة.

وإن عرض The Little Mermaid «١٩٨٩» لم يثبت فحسب أن المرح قد يكون عنصراً أساسياً لصناعة الرسوم المتحركة، بل إنه حصل على عائد بلغ ٨٤ مليون دولار من عرضه في دور السينما في بلدان أميركا اللاتينية. وخلال العام الماضي فاقت مبيعات «الجميلة والوحش» مبيعات «The Little Mermaid» بـ ٥٠ مليون دولار.

وكان أول فيلم كارتون يرشح لجائزة أوسكار «كأفضل فيلم».

ومثل هذا الترحيب بأفلام يغذي المنافسة. ففي العام الماضي ظهر في الولايات المتحدة ستة أفلام رسوم متحركة خارج نشاط ديزني. وبعضها كان أسراً جذاباً، وبعضها الآخر كان - كما دعاها الناقد المتخصص في هذه البضاعة آرت ميرفي - أفلاماً عادية تناسب العائلة.

وهذه الأفلام الستة مجتمعة حققت دخلاً يزيد قليلاً على نصف عائد فيلم «الجميلة والوحش». وهذا يثبت صعوبة الصمود أمام الإنفاق المالي السخي لشركة ديزني (حوالي ٤٠ مليون دولار للفيلم مقارنة بما يتراوح بين ١٤ و ٢٠ مليون دولار للأفلام الأخرى) أو تفوقها الفني



وقد استعاد هذا الاستديو تقدمه
السريع في العام ١٩٨٩، عندما اقترح
الشاعر الشعبي هاورد أشمان - الذي
كتب مع مينكن أغاني فيلمي The Little
Mermaid و«الجميلة والوحش» قبل وفاته

أن فيلم «علاء الدين» هو فيلم للكبار - إذا
ما استطاعوا مجازاة تطور حركته - كما
هو للصغار، وهو يمزج بصورة مشعوذة
صفاقات التسعينات مع تيه ديزني الكبير
وطبائعه العاطفية.

Me»، فإن صانع الرسوم أريك غولديبرغ «المسؤول عن مشاهد الجني» ربما نفذ عشرة آلاف صورة.

كما أن توزيع الأدوار بالنسبة للرسوم المتحركة لا يقل في أهميته عنه في الأفلام حية الحركة. وقد قام بتمثيل الأدوار الصوتية بفيلم «علاء الدين» الكوميدي جالبرت جوتفريد بطبقات صوته الصاخبة كيبغاء جعفر، ولي سالونغا، الأنسة سايغون في الأصل، بصوت ياسمين الغنائي، لكن الإثارة الحقيقية تمثلت في كيفية تمثيل وليامز لصوت الجني الذي دأب من خلال إبداعه الكوميدي على الحركة من عرض انطباع جنوني إلى آخر، ففي كل مرة استطاع وليامز أن يتغير من شخصية إلى أخرى، ولو اقتضى الأمر حدوث ذلك خلال ثانية واحدة، وحسب الوضع الذي يتخذه الجني. وخلال خمس جلسات تسجيل نُفذت خلال ١٥ شهراً، قدم وليامز تمثيلاً ثورياً في أصوات الرسوم الكرتونية.

يقول كاتزنبرغ: حتى الآن استمتعنا «بسماع» العبقرية التي استطاع بها وليامز تصوير الكيفية التي يعمل بها عقل روبين. والآن، وفيما يشبه الماء الساخن المتدفق، وفي مشاهد حية متدفقة، نبدأ «برؤيته» وهو يفكر.

وخلال نصف الساعة التي يستغرقها دوره على الشاشة، يقوم الجني في طرفة عين بعشرات التغيرات الصارخة في المظهر: رجل اسكتلندي، كلب اسكتلندي، أرنولد شوارزنجر، إد سوليفان، غرانشو

بالأيدز العام الماضي - كتابة فيلم كارتون موسيقي باسم «علاء الدين». وبعد أن كتب ست أغنيات ومعالجة للقصة، تولى الأمر بعده ماسكر وكليمنتس.

لكن كان هناك خطأ ما في القصة. وقال كاتزنبرغ «إنها لم تكن من القوة بحيث تفرض ذاتها، ورحلة علاء الدين لم تكن جذابة، وفي البداية كان للبطل أم تتمتع بشخصية متسلطة بما يكفي لتطفى على البطل الغر، ثم تواترت الأحداث والشخصيات على هذا البناء». وقال كاتزنبرغ إذا ما شاهدنا عرض القصة نجد أنه حتى ياسمين كانت تعصف بالبطل». فخلال سنة من محاولة التطوير، حوّل المدير النص إلى نتاج تافه.

أما كاتب السيناريو تيد إليوت وتيري روسيو فقد جعلوا من علاء الدين شخصية أقل فظاظاً، وأكثر خبرة، أشبه بهاريسون فورد صغير، وقللوا من دور الأم، وأصبحت ياسمين أكثر قوة، كما تقلصت الرغبات التي يحققها الجني من رغبات «لا محدودة» إلى الرغبات الثلاث التقليدية.

وهذه القرارات كانت سهلة التنفيذ نسبياً. لكن عملية الرسم تطلبت براعة فائقة، وجهداً خرافياً، مع أن ذلك يتم في عصر تستطيع فيه أجهزة الكمبيوتر أن ترسم في ثانية واحدة خلفيات من ٢٤ صورة لحركة الشخصية تقتضي من صانع الرسوم يوم عمل كاملاً لأدائها. ولابتكار وتنفيذ إنتاج إعداد رسم الجني كما هي الحال في «A Friend Like



الذي هو موضوعياً قطعة من قماش.

فالبساط ليس له رأس، ولا صوت، بل مجرد شرابات للأيدي والأقدام. ومع ذلك فهو يملك شخصية تتفوق على معظم نجوم الأعمال الحية. فهو يستطيع أن يفكر مكتئباً، وأن يختال متباهياً، وأن يتذلل تملقاً، كما أنه سيد «جنتلمان» وصانع زيجات، وتجده يمسك يد ياسمين ويقبلها، وتراه يصنع درج سلم متعرج من ذاته عند نهاية رحلة علاء الدين مع ياسمين، وعندما تقف هذه على الشرفة، فهو يلاطف الأميرة إلى مستوى محاولة تقبيلها. ووصفه كارترائيت بقوله «إنه غاية في الحساسية، ولايفك عن محاولة إدخال البهجة للمشاهد... إنها مسرحية إيمائية مجردة».

إن الرجل الذي دفع ثمناً «لللبساط» والذي بدأ يقول لا (وأحياناً بشيء من

ماركس، نادل فرنسي، ديك رومي، أرنب، ديناصور، ويليم بكلي، نيرو، مضيضة، خروف خجول، بنوشيو، ساحر، جين غابن على نمط الرجل الفرنسي، سباستيان السلطعون في فيلم «The Little Mermaid»، مضيف التليفزيون أرسينيو هول، خياط نزق، ولتر برينان النجم الغربي المتشدق، إيثل ميرماك جاك نيكلسون، ظل مصباح متكلم، نحلة، غواصة ألمانية، وعصابة من رجل واحد. والعديد من هذه التغيرات المظهرية تستحضر كأدوات لوقف العرض في قصة «A Friend Like Me»، التي يعرض فيها الجني تغيراته الصارخة. وقد واجه غولديبرغ تحدياً مزعجاً مع وليامز والجني، كما واجه صانع الرسوم المتحركة راندي كارترائيت تحدياً مثبطاً في خلق شخصية «البساط السحري»

١٩٦٤ «One Hundred and One Dalma-tions» ، وقدمه لدور العرض فحقق عائداً قدره ٨٠ مليون دولار معظمه أرباح إضافية.

لكن كاتزنبرغ، وهو أيضاً من صانعي الرسوم المتحركة، فخور بعمل استديوهات في إحياء المساهمة الفريدة للسينما الأميركية في فنون القرن العشرين.

واليوم فإن أفضل صانعي الرسوم المتحركة يعدون في الوقت الحاضر غزاة منتصرين لساحة الفن الضائع من خلال استكشاف وإحياء وسائط ديزني التقنية للتعبير السينمائي.

إن كلمة «Animator صانع الرسوم المتحركة» هي كلمة رائعة، فهي تعني «مانح الحياة»، وبالنسبة لصناعة السينما «مجرد الحياة».

الاستهجان) لأفلام ديزني هو كاتزنبرغ، وهو يقول : إن أفلام الرسوم المتحركة تمثل قلب وروح الجماعة.. إنها الدم الذي يتدفق من خلال هذا المشروع العالمي النطاق، ومسرحية علاء الدين تخلق دماً جديداً. وكاتزنبرغ إنما يقول هذا لكونه مدير صناعة سينمائية، وهو يعرف أنه، حيثما توجد أفلام رسوم متحركة لـديزني، فإنه سيكون هناك سباق أسطوانات قوي وروائع أشرطة فيديو، وأن هناك رحلة إغراء للزبائن باتجاه ديزني.

ويعرف كاتزنبرغ كذلك أن شخصيات الرسوم المتحركة والعاملين في صناعتها لا يحصلون على نقاط ربح كبيرة، إذا ما أعاد إنتاج وعرض اثني عشر عملاً مسرحياً. وخلال العام الماضي أحيا الاستديو من زوايا الإهمال فيلمه لعام

محو الأمية الإعلامية :

كارلوس كورتيز د. شوقي سالم

أين نبع الحكمة التي فقدناها في خضم المعرفة؟
أين نبع المعرفة التي فقدناها في خضم المعلومات؟
ت. اس. إليوت

التعليمية غير الرسمية خطيرا بصفة خاصة في أمور التعلم والحياة في البيئات الحضرية التي تتنامى تعقيداتها يوما بعد يوم.

أضف لذلك أن المدى الزمني للتعليم والتعلم خارج المدرسة يتجاوز بكثير فترة المدرسة. فصغار السن يبدأون التعلم من خلال المنهاج المجتمعي قبل دخول المدارس ويستمررون في التعلم من المجتمع طوال مدة ذهابهم إلى المدرسة، إن اليوم الدراسي ينتهي للغالبية الكبرى منا مع انتهاء الدرس، لكن التعلم المجتمعي يستمر مادامنا لم نزل على قيد الحياة. والعنصر المركزي في عملية التعلم والتعلم المجتمعية على مدى حياتنا هو

الآن وسائل الإعلام الجماهيري تُعلم، ومع هذا فما زال المعلمون في الفصول وغيرهم من المشاركين في العمل بالمدارس يطلقون على أنفسهم «نظام التعليم»، وهي تسمية خاطئة بلا شك. الطلاب فقط يتعلمون في المدارس، ولكن الناس جميعا يمن فيهم الطلاب — يتعلمون أيضا خارج المدارس عن طريق مناهج مجتمعية، مناهج شاملة مستمرة وغير رسمية منبثقة عن الأسرة والأصدقاء والجيران ودور العبادة والتنظيمات، والمؤسسات ووسائل الإعلام وغيرها من قوى التوافق الاجتماعي التي نتعلم منها جميعا طوال سني حياتنا. وقد أصبح الدور الفاعل الذي تلعبه هذه القوى

* العنوان الأصلي للمقال :

Media Literacy : An Educationd Basic For the Information Age. Education and urban Society, August 1992.

التحذير الذي وجهته
«ويلي لونجستريت»
(١٩٨٩) من جامعة
نيواورليانز في مقالها
بـ «التعليم
للمواطنة : أبعاد
جديدة» حيث كتبت
تقول: «قضايا
سنوات نعلم القراءة
والقراءة التصحيحية
بينما لم نكد نلتفت
برهة لوسائل
الإعلام الأحدث
والأثري. شبابنا
واقعون تماما تحت
رحمة التلفزيون،
تحاصرهم كميات
هائلة من المعلومات
تقدمها كل شاشة
وتزيد كثيرا عما
يمكن أن يتوافر على



المنهاج الإعلامي أو
التفجير المستديم
للمعلومات
والأفكار النابعة
من وسائل الإعلام
الجماهيري. ولكي
نهىء الشباب
لمعالجة وتقييم
المعلومات والأفكار،
ولكي تبنى المعرفة
الموجهة لتقييم تلك
المعلومات والأفكار
بصورة انتقادية،
ولكي توجد الحكمة
القائمة على
استخدام هذه
المعرفة، يجب على
المدارس أن تساعد
الطلاب على أن
يتعلموا تحليل
مضمون وفحوى

صفحات الكتب، ولكننا لا نقدم لهم أي
مساعدة لفرز وتحليل هذا السيل من
المعطيات أو للدفاع عن انفسهم مايبته من
مثيرات وهذا السيل الإعلامي يأتي من
مصادر أخرى إلى جانب التلفزيون،
وينبع من جميع وسائل الإعلام:
التلفزيون والصور المتحركة والإذاعة
والتسجيلات الموسيقية والصحف
والمجلات إضافة لذلك، فإن هذا السيل
يحتوي على أكثر من المعطيات، حيث إن
وسائل الإعلام تبث رسائل وصوراً

الرسائل الإعلامية. وبالنسبة للطلاب في
البيئة الحضرية، ينبغي ان تتضمن هذه
العملية التعليمية مساعدتهم على إدراك
الطريقة التي يتعامل بها الإعلام مع
القضايا المحلية والموضوعات الحضرية.

لسوء الحظ فإن كثيرا من معلمي
المدارس تمثل رد فعلهم على المنهج
الإعلامي في تجاهله باستثناء شكواهم
من المضمون الإعلامي أو مقدار الوقت
الذي يقضيه الطلاب مع وسائل الإعلام
وخصوصا التلفزيون، مثلما جاء في

الغالبية منهم لم يحصلوا من قبل على تدريب أو إستراتيجية الفصول الدراسية في مجال التعليم من خلال الإعلام. يستطيع المعلمون والطلاب أن يبدؤا عن طريق زيادة وعيهم الإعلامي من خلال أساليب مثل إمساك سجل يومي للمنهج الإعلامي حيث يمكن للمعلمين في المدارس الحضرية توثيق ما يلاحظونه من أن وسائل الإعلام بما فيها الإعلام المحلي تقوم بالتعليم عن قصد أو بغير قصد سواء باستخدام طرق خيالية أو واقعية. وتعطي أهمية خاصة للموضوعات ذات الصلة المباشرة بالبيئة الحضرية مثل العرقية والجنس والدين والعلاقة بين الجماعات المختلفة والتغيرات الديموغرافية والعمليات الحكومية والبيئة. ان ذلك سيساعد المعلمين والطلاب على زيادة وعيهم فيما يتصل بمدى ومضمون وانتشار المنهج الإعلامي بما في ذلك التعليم الذي يقدمه عن المدن التي ينتمون إليها إضافة إلى تنمية النزعة إلى التفكير التحليلي عن وسائل الإعلام.

وبعد هذه التوعية العامة، يأتي تطوير وتنفيذ إستراتيجيات تربوية على أساس الإعلام.

ويمكن الدخول في هذا الموضوع. من خلال تحديد الطرق المختلفة التي يتم بها التعليم الإعلامي. وعلى أساس أكثر من عشرين عاما قضيتها في البحث والتعليم الإعلامي وكذا جهودي لدمج وتوسيع وتقوية التحليل الإعلامي كعنصر للتعليم

خيالية وغير خيالية من خلال برامج وأفلام ومطبوعات يفترض أنها أنتجت فقط لتقديم التسلية (كسب المال) وكذا من خلال وسائط مماثلة يقصد منها تقديم المعلومات والتحليل. بعض العاملين في ما يسمى «الإعلام الترفيهي» يزعمون أنهم يقدمون ما يدعوا للانحراف ظاهريا، ولكنهم في الواقع يعملون في نفس الوقت سواء عن قصد أو مصادفة. إذا عكسنا المعادلة سنقول بأنه مهما كانت الأهداف المعلنة أو غير المعلنة لوسائل الإعلام، فإن الناس يتعلمون من مصادر الإعلام الخيالية أو الواقعية رغم أنهم قد لا يدركون أن عملية التعلم هذه تحدث يحدث في الحقيقة.

ماذا يستطيع المعلمون إزاء ذلك؟ يمكنهم مساعدة الطلاب في إيجاد وتطوير التعلم من خلال وسائل الإعلام، والقدرة على فحص وفهم وتقييم الرسالة الإعلامية.

وحتى نتمكن من مساعدة الطلاب ليصبحوا مستهلكين إعلاميين أفضل تلقيا للمعلومات وأكثر مقدرة على التحليل، فإننا نحتاج إلى التوجه لوسائل الإعلام الجماهيري ضمن نظام المدرسة باعتبارها عنصرا رئيسيا في عملية التعليم والتعلم.

إيجاد وتطوير التعليم من خلال الاعلام

بالنسبة لكثير من المعلمين، قد يكون تطوير مثل هذه المهارات التربوية القائمة على الإعلام بمثابة تحد شخصي نظرا لأن

وتتضمن إحدى الإستراتيجيات التربوية تعليم الطلاب المقارنة بين المعالجات الإعلامية المختلفة لنفس الموضوع كما في حالة التغطية الإخبارية لحدث مهم أو جدال رئيسي.

ويستطيع الطلاب في المدارس الحضرية إجراء المقارنة بين الأساليب التي تغطي بها وسائل الإعلام المحلية المتنوعة عملية الانتخابات، إجراء حكومي، قضية أمام المحاكم، موضوع يتعلق بالبيئة، نزاع تشارك فيه عناصر مختلفة من المجتمع، أو جهود ذاتية لبناء جسور بين الثقافات في المجتمع أو خلق التلاحم بين الجماعات المتنافرة اجتماعيا. فيمكن تكليف الطلاب بفحص مختلف التقارير والتحليلات التي تنشرها الصحف أو الإذاعة أو التلفزيون بخصوص حدث أو موضوع محدد. وبهذه الطريقة يمكنهم أن يخوضوا في تمارين تنمية وعيهم الإعلامي، ومنها على سبيل المثال فصل الحقيقة عن التفسير، تحديد الصفات والأفعال التي تؤثر في اتجاه عرض المعلومات، والتعرف على المعلومات التي تشملها بعض الروايات وتستبعدها روايات أخرى عن نفس الموضوع، وتقييم أثر هذا التضمين والاستبعاد على الرسائل التي تستهدفها كل رواية منها، ووضع فرضيات حول أسباب اختلاف المعالجات وعن طريق هذا الأسلوب المقارن، يستطيع الطلاب تحسين مقدرتهم على تحليل وتقييم الجوانب التفسيرية عندما تلتزم الوسائل الإعلامية بعرض الحقائق

في المدارس الثانوية والمعاهد العليا فقد استنتجت أن الإعلام سواء الخيالي أو غير الخيالي يعلم بخمس طرق أساسية على الأقل هي:

* تقديم المعلومات.

* يساعد على تنظيم المعلومات والأفكار.

* يساعد على خلق وتقوية وتعديل القيم والمواقف.

* يساعد على تشكيل التوقعات.

* تقديم نماذج للعمل.

ولننظر في إيجاز كيف يستطيع المعلمون تعزيز أسلوبهم التربوي الخاص، وتحسين تعلم طلابهم، وتحفيز الفكر النقدي لدى الطلاب، وذلك من خلال النظر في هذه الطرق الخمس للتعليم بوسائل الإعلام.

أولا - وسائل الإعلام

تقديم المعلومات

جميع أشكال عرض المعلومات تتضمن تفسيرا. وبينما تقدم لنا معلومات، فإن وسائل الإعلام تحوي تفسيراً حتماً، وذلك من حيث إنها تشتمل أو تستبعد معلومات معينة أو تشكل طريقة عرض تلك المعلومات، وتختار الكلمات أو الصور، وتعلق على هذه المعلومات وكجزء من تطور التعليم من خلال الإعلام، يحتاج الطلاب إلى توعيتهم بحتمية التفسير في عروض المعلومات وبالتالي عليهم أن يتعلموا التعرف على أساليب وإبعاد التفسير وطرق تحليلها.

والمعلومات فقط.

سابقة أدت بهم إلى تلك التفسيرات.

ثانيا - وسائل الإعلام تساعد

على تنظيم المعلومات والأفكار:

من خلال الإلحاح على عرض بعض الموضوعات، وتكرار تفسيرات متشابهة لتلك الموضوعات، وترديد كلمات معينة عند تعريف أو وصف موضوع محدد، تؤثر وسائل الإعلام في كيفية تنظيم القراء والمشاهدين للمعلومات والأفكار أنها تساعد على خلق وتقوية المخطط الذهني للقارئ أو المشاهد بشكل يؤثر بالتالي على إدراكه الشخصي وتفسيره ودمجه لمعلومات أو أفكار مستقبلية. ولتطوير التعليم من خلال وسائل الإعلام، يجب أن يصبح الطلاب على وعي بكيفية تأثير وسائل الإعلام في طريقة تفكيرهم بخصوص الموضوعات المختلفة، وإسهامها في تشكيل طرق تلقيهم المدخلات الإعلامية الجديدة المتعلقة بهذه الموضوعات. وهنا يمكن استخدام وسائل الإعلام الخيالية وغير الخيالية كمواد تعليمية.

يمكن أن يطلب إلى الطلاب أن يقرأوا أو يشاهدوا موضوعا إخباريا حول مسألة حضرية استقرارية أو عرض إعلامي خيالي عن موضوع حضري، معين ثم يطلب إليهم أن يفسروا شفاهة أو كتابة ماقرأوه أو شاهدوه. وبينما يعبر الطلاب عن تفسيرات متباينة وربما متضاربة، يمكن سؤالهم لماذا أبدوا مثل هذه الإجابات المختلفة، وماذا يفترضون أنهم قد تعرضوا له من برامج إعلامية

لنأخذ مثلا جزء المقدمة الافتتاحية لفيلم «فتاة الصين» لسنة ١٩٨٧م والذي يصوغ بصورة سريعة وحادة دراما محنة تغيير مناطق الأحياء الحضرية. في هذه الافتتاحية، يركز التتابع المرئي على الحي الإيطالي — الأميركي في مدينة نيويورك حيث نشاهد عائلة صينية.. أميركية فخورة تعيد تشكيل مخبر إيطالي - أميركي قديم لتحويله إلى مطعم صيني بينما يراقب السكان المحليون العمل وسط مشاعر تتراوح بين الأسف والحزن من كبار السن وبين المرارة المكبوتة والعداء من الأجيال الشابة.

يمكن استغلال هذا التتابع القصير لإثارة دراسة تأثيرات تعدد العرقيات، وفرص وتحديات الهجرة والتغيير الديموغرافي، وهي جميعا أمور متواصلة دون انقطاع في المجتمع الحضري المعاصر. إضافة لذلك، وكجزء من هذه المناقشة أو الواجب المكتوب، يمكن للطلاب أن يفكروا: لماذا كانت لهم استجابات وردود فعل مختلفة إزاء هذا المشهد وماهي البرامج الإعلامية السابقة التي أسهمت في طريقتهم الشخصية في الإجابة وتنظيم المعلومات والأفكار بهذا الشكل.

ثالثا - وسائل الإعلام تساعد على

خلق القيم والمواقف

تنطوي جميع الروايات الإخبارية ضمنيا على تأييد لبعض القيم (مثل العملية الديمقراطية أو اقتصاد السوق

التي تصور مواقف عائلية حميدة مثل «أوزي وهارييت» تتعامل في مواضيع كثيرة منها مع المشاكل الأخلاقية التي نصادفها على مستوى الجيران. وعلى الرغم من تأكيد المدارس على أنها الناقل الرئيسي للقيم الأخلاقية بالمجتمع، فإن وسائل الإعلام تقوم بتوفير مادة غزيرة تقي بهذا الموضوع أيضا.

يمكن أن يطلب الى الطلاب فحص مصادر إعلامية روائية وغير روائية لتحديد دروس القيم التي تريد أن تعلمها ضمنيا أو صراحة. ويمكن استخدام الاعلانات كمصدر محفز لتنمية الوعي النقدي للطلاب حول التلقين القيمي من خلال الاعلام نظرا لأن الاعلان يسعى بالدرجة الأولى الى تشكيل القيم والمواقف. (ويريد في النهاية تعزيز اجراء محدود يستند الى قيمة ابتداء من التصويت لصالح احد المرشحين، الى شراء منتج معين الى الالتحاق بالخدمة العسكرية).

واستنادا الى مشاهداتهم في وسائل الاعلان المحلية، يمكن للطلاب دراسة القيم الخاصة التي يتم ترويجها وتلقيها من خلال المعلنين المحليين. ومن خلال تطبيق الفكر التحليلي على دراسة الاعلان في وسائل الاعلام — أي تحديد القيم الضمنية التي يتم بثها ونشرها بخصوص المنتج والمجتمع ككل، وكذا تقييم الأساليب المستخدمة لتحقيق اقصى درجة من «تعليم القيم» اعلانيا — يستطيع الطلاب شحذ وصقل قدراتهم على التفكير التحليلي.

الحرّة) أو إدانة لقيم أخرى (مثل بعض أنواع السلوك المعادي للمجتمع) ولقد عملت الأفلام السينمائية والتلفزيون دوما على تعليم القيم رغم أن دروس القيم هذه تغيرت بمرور الزمن. ويتضمن كود «هوليوود» لإنتاج الأفلام السينمائية لسنة ١٩٣٠م الذي يحكم محتوى الأفلام الأميركية بين ١٩٣٤م و١٩٦٨م مفهوما باهرا ونظرات عميقة وثاقبة في القيم التي وافق صناع الأفلام الأميركيون في تلك الحقبة على تعليمها وترسيخها في ذهن جماهير المشاهدين. وكذلك يعلم التلفزيون القيم المجتمعية. ويقول عالم الاجتماع «هربرت ج. جانز» (١٩٦٧م) في معرض تشبيه التلفزيون بالمدرسة، وبرامج التلفزيون بالمناهج المدرسية:

«إن جميع برامج التلفزيون تقريبا تعلم شيئا ما عن المجتمع الأمريكي، خذ مثلا «الرجل الطوطا» (باتمان)، إن له نقطة أفضلية من حيث إنه يعتبر منهاجا في علم الجريمة يصف لنا كيف أن رجلا أرسقراطيا خارقا يقوم بعمل رائع للقضاء على الجريمة بصورة لا يستطيعها المسؤولون الرسميون وبالمثل يقدم «رفاق بيفرلي هيل» منهاجا في الترتيب الطبقي الاجتماعي والاقتصاد التطبيقي ويعلمنا أنه بالمال وحده يستطيع شخص غير متعلم وغير مثقف أن يحقق الكثير في المجتمع الأمريكي ويمكنه أن يتفوق بكل سهولة على النوعيات الأكثر تعقيدا وقوة من أبناء الطبقة المتوسطة، وحتى الأعمال الهزلية

رابعاً: وسائل الاعلام تساعد على تشكيل التوقعات

في معرض ذكره ان عدداً يزيد على ٢٣٠٠ بحثاً عن التلفزيون والسلوك الانساني صدرت بالفعل، تحدث عالم النفس الاجتماعي «جورج كومستوك» (١٩٧٧) عن علاقة وسائل الاعلام بتشكيل التوقعات فقال ان معظم الكتاب يرون أن التلفزيون يعتبر أقوى معزز للأمر الواقع. وآلياته المنظورة هي تأثيرات شخوصه المصورة على توقعات الجماهير وإدراكهم الحسني، فالشخص التلفزيونية وبصفة خاصة في الدراما العنيفة يقال عنهم أنهم يؤدون أدوار السلطان والقوة والنجاح والفشل والتبعية والضعف بطريقة تحاكي البناء الاجتماعي في الحياة الحقيقية، مما يؤدي بالتالي الى تقوية هذه البناء من خلال زيادة معرفته وإدراكه بين الجماهير، ومن خلال الإخفاق في تقديم صور ايجابية لأفراد من الفئات الاجتماعية متدنية طبقاً. وهكذا فإن تحليلات محتوى الدراما التلفزيونية تؤيد الزعم بأن شخوصه تعكس حالة الواقع.

ولقد حدث عرض درامي حي لتأثير وسائل الإعلام على التوقعات، وبخاصة التوقعات حول الحياة الحضرية، في وسائل الاعلام نفسها يوم ١٨ سبتمبر ١٩٨٦م في أثناء عرض برنامج الألعاب التلفزيوني الأميركي الشهير «أهرام الـ ٢٥ ألف دولار» في مدينة لوس أنجلوس. يقدم هذا العرض التلفزيوني مسابقة

يشترك فيها فريقان يضم كل منهما أحد المشاهير مع المتنافسين. بالنسبة لكل فريق تظهر مجموعة من «الكلمات على الشاشة أمام متسابق واحد ويعطي بدوره أدلة ترشد شريكه في التعرف على أقصى عدد من الكلمات خلال الوقت المحدد.

وفجأة برزت كلمة «عصابات» على شاشة أحد المتسابقين، فصاح بدون تردد: «لديهم الكثير منها في شرق لوس أنجلوس» (وهي القطاع الذي تسكنه أغلبية كثيفة من المكسيكيين الأميركيين في لوس أنجلوس). وأجاب شريكه على الفور: «عصابات». تحت ضغط المنافسة، حقق شخصان غربيان كل منهما عن الآخر في لحظة خاطفة هذا الاتحاد الذهني من خلال تلاقي رؤيتهما لمجتمع (الشيكاغو) المكسيكيين كمرادف للعصابات. أضف لذلك «أنهم نقلوا هذا التكالب العرقي إلى جمهور التلفزيون الوطني.

ولسوء الحظ، فإن شرقي لوس أنجلوس لا يضم عصابات الشيكاغو وحدهم، إذ إن به أيضاً كثيراً من العناصر رفيعة القيمة كالعائلات والمدارس والشركات التجارية ودور العبادة والمنظمات الاجتماعية والمؤسسات ذات الإسهام القوي في المجتمع. لكن العصابات وليس أي عنصر آخر من عناصر الحياة في لوس أنجلوس هي التي ربطت بسرعة بين تفكير شخصين غربيين كل منهما عن الآخر كلية. لماذا؟ الجواب يكمن في وسائل الإعلام التي تستمر في

خامسا - وسائل الإعلام

تقدم نماذج للعمل

قدمت وسائل الإعلام نماذج للعمل أحيانا عن قصد وأحيانا بدون قصد، وظهرت الأبحاث الشخصية عن تاريخ معالجة الفيلم الأميركي للجنس والعرق العديد من الأمثلة على تشكيل الدور بواسطة وسائل الإعلام.

خلال الحرب العالمية الثانية، استخدمت وسائل الإعلام الأميركية أساليب العرض الخيالية وغير الخيالية لدعوة الأميركيين عن جميع الخلفيات العرقية للتضحية من أجل بلدهم. مثلا من خلال حشر دور العرض بأفلام روائية تتضمن بصورة صريحة وحدات عسكرية متعددة العرقيات، نشرت هوليوود رسالة إلى الأميركيين بأنه يتعين على الجميع من مختلف الأجناس والأعراق الاستعداد للحرب من أجل الوطن (بصرف النظر عن أي تمييز عنصري أو عرقي صادفوه في المجتمع الأميركي). وقد حاربوا جميعا بكل شرف.

وبالمثل نجد أن كثيرا من أفلام ما بعد الحرب العالمية الثانية شكلت دور المعارضة للمزاعم والتمييز ضد العرقيات في هذه الأفلام كان الأغرار في الغالب مدفوعين بأراء مسبقة مبنية عبر العنصرية والعرق والدين، بينما يأخذ الأبطال المبادرة بالعمل المباشر لمواجهة هذه المزاغم. وبهذه الطريقة شجعت السينما الناس على اتخاذ الإجراء العملي

تقديم الصورة الشائعة للعصابات اللاتينية في تقارير إخبارية وأفلام تسجيلية ومسلسلات تليفزيونية وأفلام روائية بشكل يرفعها ويقويها في الذهن باعتبارها الرؤية الشعبية لشرق لوس أنجلوس (وكثير من المجتمعات اللاتينية الأخرى).

إحدى طرق مساعدة الطلاب على فحص توقعاتهم الخاصة ودور وسائل الإعلام في تشكيل تلك التوقعات تتمثل في اقتباس الأسلوب الذي اتبعه البرنامج التليفزيوني (أهرام الـ ٢٥ ألف دولار). ولتوسيع فكر الطلاب الحصريين، يمكن للمعلم إعطاؤهم مجموعة من المصطلحات من أشياء ليست لهم بها صلة مباشرة: دولة أجنبية، شخصية سياسية مهمة، أو مجموعة عرقية غير موجودة في مجتمعهم، ويرى رد فعلهم من أول شيء عنها يخطر على أذهانهم ثم يطلب إليهم أن يحاولوا تذكر أو افتراض أين حصلوا على هذه الأفكار أو التوقعات التي أسرع برود أفعالهم ويختبر بعد ذلك افتراضاتهم من خلال إمساك سجل يومي يسجل فيه ويحلل معالجة وسائل الإعلام لهذه الموضوعات على مدى طويل من الوقت. (لدى استخدام هذه الطريقة للتعريف بوحدة من «العجر» لطلاب الفصل الرابع، اكتشفت معلمة في إحدى الدورات أن «معرفة وتوقعات» طلابها بخصوص «العجر» تأثرت بمشاهدة أفلام في التليفزيون عن «فرانكنشتاين» و«الرجل الذئب».

الفردى لمعارضة مزاعم وأعمال التمييز العنصرى.

يمكن أن يطلب من الطالب أن يفحص مختلف وسائل الإعلام لتحديد الدور الذى تقدم نمونجا له بما فى ذلك نماذج الدور المقدمة فى وسائل الإعلام المحلية. وبأى السبل تستخدم وسائل الأعلام هذه النماذج للدعوة الصريحة إلى العمل (مثلا من خلال الإعلانات)؟ وبأى السبل تمتدح أنماط العمل الأخرى بالشكل الذى يشجع أو لا يشجع على مثل هذا السلوك؟ أو بأى السبل تنقل وسائل الإعلام رسائل مختلفة تدين أحيانا وتوافق أحيانا بل وتمجد أحيانا مثل هذه الأعمال؟ وأخيرا يمكن للطالب أن يقترحوا: ما أهم عناصر تشكيل الدور بواسطة وسائل الإعلام والتي تبدو أكثر أو أقل فاعلية، ومناقشة... ما الأساليب الإعلامية التي جعلتها تبدو كذلك؟

خلاصة

عن طريق إشراك الطلاب باستمرار فى تحليل هذه الأنواع الخمسة من أنظمة الرسالة الإعلامية، تستطيع المدارس أن تقوم بدور رئيسى فى إعداد الشباب لمستقبل يصبح فيه الاستخدام التحليلي للمعلومات أمرا حيويا.

وعن طريق إشراك الطلاب الحضرى فى تحليل أنظمة الرسالة الإعلامية حول الحياة الحضرية بصورة عامة. وحول مدينتهم بصورة خاصة، يمكن للمدارس أن تعد الطلاب لحياة فاعلة وحساسة فى مجتمعاتهم ويشمل ذلك مساعدتهم عبر تنمية الفكر النقدي بما فيه التعليم عن طريق وسائل الإعلام من أجل زيادة مقدرتهم على التعامل بكل كفاءة وفعالية كمستهلكين واعين لهذا المعلم الذى يلزمهم طوال حياتهم، ألا وهو وسائل الإعلام.

إن التحليل الإعلامى فى المدارس يمكن أن يساعد الطلاب على اتخاذ خطوة مهمة باتجاه إيجاد وتطوير مثل هذا التعليم من خلال وسائل الإعلام. وفى هذا العالم الذين يجدون أنفسهم فيه محاطين بوسائل الإعلام، يتلقون من كل جانب المعلومات والأفكار والرسائل فى شكل إعلامى وترفيهى، فإن مقدرتهم على التعامل مع وسائل الإعلام بكفاءة ووعي وفاعلية تعتبر ضرورية لتنمية إمكانات أكبر للسيطرة على مصائرهم. وإحدى الوسائل المؤدية إلى الحكمة اللازمة فى عصر المعلومات، هي ضرورة أن يتعلم الطلاب كيف يستغلون، وليس أن تستغلهم، وسائل الإعلام.

كيف ننهض بأداء المدارس؟

نـاسـي بـيـري

شاكر عبد الفتاح



المشكلة الرئيسية - كما اتفق مديرو الشركات، ورجال التعليم والساسة خلال الندوة التي عقدتها مجلة فورتن بشأن التعليم - هي كيف نترجم إلى الواقع العملي الأفكار التي نعرف أنها سوف تثمر؟

لا يفتقر القائمون على إصلاح نظام التعليم الأميركي المتداعي على نحو سيء، إلى المهارة أو الحلول الفعالة، وإنما يتمثل فشلهم الأساسي - تماماً كما كان الحال بالنسبة لمنجني السيارات قبل هنري فورد - في أنهم لم ينجحوا في إنتاجها على نطاق واسع.

ونقطة الضعف هذه، وما يمكن عمله حيالها، كانت محور النقاش خلال المؤتمر الخامس السنوي الذي عقده فورتن في واشنطن، وكما أشرت أن ماكلوغن عضو المجلس الجديد لتطوير المدارس الأميركية حوالي ثلاثمائة من مديري الشركات ورجال التعليم والسياسية الذين اجتمعوا في فندق كابيتول هيلتون فإن «مشكلتنا لا تكمن في الافتقار إلى الأفكار الجيدة بشأن كيفية تعليم الأطفال، وإنما في الفشل في نشر تلك الأفكار حالما يثبت نجاحها». فما الذي يجعل الأمر مختلفاً في تطوير أداء أطفالنا

في المدارس، وماذا يمكن لقطاع الأعمال أن يقدمه تجاه تلك المسألة؟

الحل يبدأ من المنزل كما يقول وزير التعليم الأميركي لامار الكسندر: «ليس بوسعك الحديث عن تحقيق تسعين في المائة من درجات التخرج بدون الحديث عن الوالدين اللذين يقومون بالتأكد من عمل الواجب المدرسي، ويغلقون جهاز التلفزيون، ويعرفون أين يذهب أطفالهم».

وفي الواقع فإن حياة العائلة الأميركية في أواخر القرن العشرين، تتمثل في كون العديد من الأطفال ينشئون في أسر لها عائل واحد، أو في أسر يعمل كلا الوالدين فيها، بل وغالباً ما ينشئون في أسر دمرها إدمان الخمر أو المخدرات. فهل كتب على مثل هؤلاء الأطفال السقوط والفشل؟ لا طالما أخذ شخص ما مثل أحد الوالدين أو

فإنه ولا بد وأن يلتصق بعضه في نهاية الأمر بالحائط. ويحاول مارك أن يمر كل فرد من العاملين لديه - البالغ عددهم ٢٥ ألف عامل - على برنامج كولجيت التعليمي. ويوضح قائلاً: إن العديد ممن طرأ عليهم تحول بفضل هذا البرنامج

مدرس أو صديق على عاتقه العناية بهم. وقد تتبعت العديد من الدراسات التي أجريت مؤخراً على شباب نجحوا في التغلب على عقبات هائلة. والشيء الوحيد الذين يشتركون جميعاً فيه هو اتصالهم الوثيق بأحد الأشخاص البالغين ممن تولى أمر العناية بهم.

ويقول بيتر سميث عميد كلية التعليم في جامعة جورج واشنطن: «إنه لا يمكن للأطفال أن يتعلموا بدون ارتباطهم بعلاقات بناءة، وهذا هو أساس كل شيء».

وقد بذل قطاع الأعمال الأمريكي جهوداً هائلة لملاءمة هذا الفراغ، ولكن بوسعه فعل المزيد. ويقول لويس سوليفان وزير الصحة والخدمات الإنسانية: «إذا أبدى جميع أعضاء قطاع الأعمال الأمريكي اهتماماً نشطاً وشخصياً بأطفالنا،

سيقوم بتشجيع شخص آخر على الأقل للانضمام لهذا البرنامج، مما سيخلق تأثيراً متتابعاً.

(ولانضمام مارك نفسه لأحد هذه البرامج قصة يرويها هنا).

أحد هذه البرامج، وكان يطلق عليه «أيام الظل»، جلب مابين ستين إلى سبعين

فإنني أعتقد أن ذلك سوف يدعم نقطة تحول رائعة في نظامنا التعليمي».

ويتفق رجل الأعمال روبن مارك - من شركة كولجين بالموليف - مع سوليفان في هذا الرأي، متبنياً ما يصفه: «بأسلوب الطمي على الحائط»، نظراً لأنك إذا ما ألقيت كمية كبيرة من الطمي على الحائط،

إنشائه لأول معهد أميركي لإشارة الاهتمام بالعلوم والتكنولوجيا — «إنه يمكن بيع كل شيء في هذا العالم». والفكرة التي طرحها أمام مؤتمر فورنتشن وأثارت الفضول، هي أنه يتعين على الولايات المتحدة قضاء وقت أقل في القلق حيال تحسين جانب العرض في العملية التعليمية، وقضاء وقت أكبر في خلق الطلب عليه. ويفسر ذلك بقوله: «إننا لا نشارك في هذه الاجتماعات، ونعرب عن القلق من أنه لن يكون لدينا عدد كبير من لاعبي كرة القدم العظماء، في الوقت الذي لا نخصص الكثير من المبالغ الإضافية للمدارس لتدريبهم، ومع ذلك فالأطفال يذهبون إلى المدرسة وهم تواقون إلى معرفة كيف يلعبون كرة القدم».

ويتساءل كامن قائلاً: مَنْ الأقدر على جعل العلم مغرياً لكرة القدم من قطاع الأعمال الأميركي؟ لقد اخترع ريبوك حذاءً رياضياً ثمنه ٢٠٠ دولار أميركي مملوءاً بأكياس الهواء، وقرر أنه يرغب في جعل أطفال البلد يشعرون بأنهم في حاجة إلى مثل هذا الحذاء، وفي غضون ستة أسابيع، وليس ثمانى سنوات، وقد عرفت الشركات كيف تخلق الطلب على هذا الحذاء.

ولكي يعرف الأطفال ببعض النجوم الحقيقيين ممن يتسمون بالحيوية في قطاع الأعمال، نظم كامن في شهر فبراير مسابقة أطلق عليها «Maize Craze»، عملت خلالها فرق من طلبة المدارس

من أطفال أحياء المدينة الفقيرة إلى شركة كولجيت لقضاء يوم قاموا خلاله بمرافقة أحد المدراء في جولة بمقر الشركة في مدينة نيويورك. ويعترف مارك بقوله: «لن يتغير أحد من هؤلاء الأطفال أو الشبان بتجربة تستمر يوماً واحداً، ولكن إذا كررت الزيارة أربع مرات في العام، نتوقع أن البعض منهم سوف تثار مشاعرهم، ويتابع تلك العلاقة. فالبرنامج يحاول أن يكسب المشاركين فيه».

وأى شخص يحاول أن يشكك في حاجة الوطن إلى انضمام المزيد من الأشخاص الذين يتولون الآخرين بالرعاية، عليه أن يلقي نظرة على منظمة الإخوة والأخوات الكبار أميركا، وهي أقدم وأضخم منظمة للنصح والإرشاد في الولايات المتحدة. وينتظر حالياً نحو ٣٥ ألف طفل اقترانهم بأخ كبير، أو أخت. وطبيعتهم التطوعية هي التي تجعل مثل هذه العلاقات على هذا القدر من الخصوصية. ويقول توماس مكينا المدير التنفيذي لمنظمة الإخوة والأخوات الكبار: «عندما يعلم الطفل أن «أخاه» الأكبر - أو «أخته» الكبيرة - يقوم بذلك بناء على رغبته، فإن لذلك الأمر قدراً كبيراً من التأثير».

وفضلاً عن الحاجة إلى المزيد من المتطوعين، فإنه يمكن لحركة الإصلاح التعليمي اللجوء إلى عملية تسويقية أفضل. ويقول دين كامن عالم الفيزياء - الذي أدّى انزعاجه من عدم اهتمام الشعب الأميركي بالرياضيات والعلوم إلى



التعليمية أكثر متعة، وأكثر صلة بحياة التلاميذ.

في كاليفورنيا نظمت مجموعة تطلق على نفسها اسم «رجال لوس أنجلوس المائة السود» برنامجاً للدارسين السود الشبان بهدف إلحاق عدد أكبر من الأطفال الأميركيين الذين ينحدرون من أصل أفريقي بالجامعات. وتقوم تلك المجموعة بإعطاء الأطفال الذين يحصلون على درجات متوسطة على الأقل دروساً منزلية، وإعدادهم إعداداً خاصاً لخوض اختبارات سات «SAT»، ومنحهم جوائز تشجيعاً لهم (أسوة بالرياضيين). وقد تكون تلك الجوائز سترات جميلة، أو حقائب مدرسية. ومنذ أن بدأ هذا البرنامج في عام ١٩٨٦، ارتفع معدل الطلبة السود في لوس أنجلوس الذين التحقوا بالكليات بنسبة أربعين في المائة ٤٠٪.

العلما، وعلماء، ومهندسون من إحدى وعشرين شركة — من بينهم IBM، وزيروكس، وبوينج، وجنرال موتورز، فضلاً عن سبع جامعات من بينها هارفارد وMIT — لمدة ستة أسابيع في تصميم إنسان آلي من مخزن ممتلئ بالمحركات والرافعات، وأدوات أخرى مقدمة من «يو.إس. فيرست»، ثم وضعت هذه المبتكرات في حالة مواجهة، وذلك في صندوق كبير ممتلئ بكرات المضرب في صالة ألعاب إحدى المدارس الثانوية في مانشيستر بولاية نيوهامبشير، تدار بأجهزة للتحكم. والفائز هو الجهاز الذي يجمع أكبر عدد من الكرات. وكان الفائز هو جهاز كليبتون لمدرسة ثانوية في ماساشوستس بالتعاقد مع شركة نيبرو.

والشركات التي ما زالت تتشكك حيال مثل تلك المسابقات، ما زال بإمكانها مساعدة المدرسين في جعل العملية

«بالدور» للأجهزة الكهربائية تقيماً لمهارات العاملين لديه البالغ عددهم ثلاثة آلاف عامل، واكتشف أن خمسمائة منهم يحتاجون حتى الآن إلى المساعدة في تعلم، مبادئ القراءة، وقد قامت الشركة بتلك المهمة.

والمدارس في حاجة ماسة إلى رؤوس أموال للحصول على التكنولوجيا الحديثة، وعلى الرغم من أن المنازل الأميركية تضم أكثر من ٣٠ مليون جهاز كمبيوتر، فإن هناك أقل من ١,٥ مليون جهاز كمبيوتر في المدارس الأميركية. وتقول جوسي ماكلود نائبة الرئيس في هاركورت براس جوفانوفيتش: «إننا في حاجة إلى التركيز على المواد التي تعكس عالم الطفل من خلال الجمع بين الرسم، وأحدث ما في تكنولوجيا الإليكترونيات. فيجب على الأدوات التعليمية أن تجذب الأطفال».

ومع ذلك فلن يكون مثل تلك الأساليب التكنولوجية الحديثة فعالة، فإنه يتعين تدريب المدرسين على استخدامها. وفي كتابه «المدارس الذكية، الأطفال الأذكياء»، يصف المؤلف إدوارد فيسكي مسألة تدريب المدرس بأنها «نقطة الضعف السوداء» في عملية إصلاح التعليم. ويتفق معه في الرأي رالف كولو رئيس مجموعة النشر التعليمية سيلمون وشوستر الذي يقول: «إذا كان بوسعي كتابة شيك، فإن المجال الذي أنصح القطاع الخاص بوضع أمواله فيه هو تطوير هيئة التدريس للسماح للمدرسين بأن يتغيبوا فترة ١٥ أو ٢٠ يوماً في العام

وربما تكون الخطوة الأرخص والأكثر فاعلية التي يمكن لمدراء الشركات تنفيذها، هي المشاركة في اجتماعات مجالس إدارات المدارس المحلية، والكفاح من أجل إقرار مناهج وكتب تعليمية من شأنها أن تعلم الأطفال المهارات التي يحتاج إليها قطاع الأعمال.

وتحاول شركة ميرك تحويل موظفيها الخمسة آلاف في نيو جيرسي — وخاصة الآباء منهم — إلى جماعة إنتاج ضاغطة، بمنحهم أدوات وورش. ويشير حاكم ولاية مين جون كاليرنان إلى أن معظم المدارس الأميركية ما زالت تهمل الأطفال الذين سيصبحون في نهاية الأمر العمود الفقري للاقتصاد، وهم ثلثا خريجي المدارس الثانوية الذين لن يحصلوا على درجة جامعية.

وبالنسبة لهؤلاء الطلبة يتعين على قطاع الأعمال أن يضغط على المدارس في كل مكان، للعمل بمنهج بديل يعرف غالباً باسم (٢ + ٢)، والذي سيجمع بين فصل دراسي عملي خاص خلال العامين الأخيرين للمدرسة الثانوية، مع عامين من الدراسة الجامعية أو التدريب الفني. ويقول جيمس بيكر معضو مجلس إدارة شركة إرفين لصناعة أجزاء السيارات: «إنه في أماكن العمل في المستقبل سيتعين على جميع العاملين أن يكونوا على درجة كبيرة من الثقافة، ويجيدون التعامل مع أجهزة الكمبيوتر». وفي الوقت الحالي فإن العديد من العاملين يفتقرون إلى هذا وذاك. وأجرى أولاند برهام من شركة

ومع ذلك هناك مراكز صغيرة للابتكار. تقوم بعض الولايات بتجربة مفهوم يطلق عليه مدارس الامتياز، وهي مدارس عامة يجري إعفاؤها بموافقة مجلس المدارس المحلية، ومجلس تعليم الولاية من الكثير من القواعد التي عفا عليها الزمن، والتي تعيق معظم الجهود الإصلاحية. وبمساعدة من منحة قدمها



المجلس الجديد لتطوير المدارس الأميركية، سيقوم فريق في مينيسوتا بافتتاح ثلاث من مدارس الامتياز في العام القادم. وقد وقع حاكم كاليفورنيا بيت ولسون لتوه على تشريع من شأنه السماح بإقامة مائة مدرسة من مدارس الامتياز.

والمجلس الجديد لتطوير المدارس الأميركية الذي يحاول جمع مائتي مليون دولار من مصادر أميركية خاصة للبدء في إنشاء جيل مختلف تماماً من المدارس اختار بلدة بينسونفيل بولاية إلينوي «البالغ عدد سكانها ١٧٧٦٧ نسمة»

يخضعون خلالها لدورة تدريب ليصبحوا أفضل من الناحية المهنية.

وهو ما تفعله بالضبط شركتان للأدوية. فشركة جلاكسو للعقاقير الطبية تنظم برنامجاً يمنح المدرسين أجازة للعمل في تطوير المناهج التعليمية، وأساليب تكنولوجية جديدة. وقد أسست شركة ميرك «معهد ميرك لتعليم العلوم» لتدريب وتزويد مدرسي العلوم من سنوات الحضانة إلى الصف الثامن، وذلك في نيوجيرسي، وبنسلفانيا. وسيسمح مركز جديد للمتعلمين بالاعتماد على أحدث أبحاث العلوم، والأدوات التعليمية. ويقول روبين هوجن - المدير التنفيذي للعلاقات العامة لشركة ميرك - إن: «النقطة الأساسية في إصلاح مسار التعليم تكمن في تحسين المدرس الذي هو أساس العملية التعليمية».

هل يمكن لقدر أكبر من المنافسة أن يحفز حتى على مزيد من الابتكار في المدارس الأميركية؟ البعض يعتقد ذلك. ويقول جوزيف اليراندي من شركة ويتاكر وهي شركة لإنتاج معدات الطائرات تتخذ من كاليفورنيا مقراً لها إن «أحد الأسباب التي تجعل من كولجيت بالموليف رائدة هو أنه في كل مرة ينظر فيها روبين مارك فوق كتفيه يجد ملتحقاً بالدراسات العليا وتحاول بريستول - مايزر جعله شخصاً أفضل. وهذا أمر جوهري، فالنضال الدائم من أجل الأفضل، هو الشيء الذي نفتقده في نظامنا».

إلكسندر، فالولايات المتحدة تنفق ٦٣٠٠ دولار على الطالب خلال العام الدراسي الواحد، وهو ما يفوق نفقات أية دولة أخرى عدا سويسرا. وقدر كبير للغاية من هذه الأموال يذهب إلى البيروقراطية الشرهة. ففي مدينة نيويورك يستخدم مجلس التعليم ٢٥٠٠ إداري بينما مدارس الأبرشية في المدينة التي تدار على نحو أفضل يعمل لديها أقل من خمسين من مثل هؤلاء المشرفين.

ولا ينبغي لهذا الأمر أن يستمر. ففي بالتيمور ألغى العمدة كورت شموك مائتي وظيفة إدارية على مدى السنوات الخمس الماضية، الأمر الذي حول مدينته من ثاني أعلى مدينة من حيث الإنفاق الإداري في ميرلاند، إلى ثالث أقل مدينة للإنفاق على الوظائف الإدارية. كما حول شموك أيضاً تسعاً من المدارس المائة، وسبع وسبعين في مدينته إلى مدارس تتيح اختيار نظام التعليم فيها، وتقوم شركة خاصة بإدارة المدارس العامة للحصول على أرباح. ويقول شموك : «إننا نريد للبيروقراطية التعليمية أن تدعم مدارسنا لا أن تتحكم فيها».

وفي حقيقة الأمر توفر لشموك أشياء قليلة لا تتوافر للعديد من العمدة الآخرين، وهي الرغبة الحقيقية في التغيير وسلطة الإشراف على ميزانية المدارس في المدينة والأكثر أهمية من ذلك، مساندة النقابات على كره منها. ففي العديد من المدن تحارب نقابات المدرسين الإصلاحات التعليمية، على الرغم من أن بعض

هذه البلدة بكاملها إلى مدرسة. فالتلاميذ يتعلمون الحساب في بنك بينسونفيلي، ويتعلمون الصحافة في صحيفة البلدة، ويتعلمون الفيزياء في المستشفى. وإلى الآن فإن مثل هذه التجارب الواعدة تظل بمثابة نماذج للإصلاح على سبيل الاستثناء.

والبعض يقترح توسيع نطاق الطلب على التغيير من خلال السماح للأباء باستخدام جزء من عائدات الضرائب التي تدعم المدارس العامة للمساعدة في إرسال أطفالهم إلى المدارس الخاصة ومدارس الأبرشية.

والرئيس بوش يحبذ اتباع مثل هذا الأسلوب الذي يطلق عليه «مشروع قانون GI للأطفال». ولكن على الرغم من ظهور إجماع وطني خلال السنوات الأخيرة على أنه يتعين السماح بأن يكون للأباء مزيد من فرص الاختيار داخل نطاق النظام العام فإن تلك المحاولة لتوسيع الاختيار ليشمل المدارس الخاصة، ما زال يدور حولها جدل كبير، ولا تجد من الساسة من يجروء على إطلاق إشارة البدء. والسيناتور الجمهوري ديفيد دوينبير عن ولاية مينيسوتا ينصح المشاركين في المؤتمر بقوله «الاندفاع نحو خيار المدارس الخاصة يعد بمثابة خطأ، وبدلاً من ذلك يتعين علينا حث الناس داخل إطار النظام العام للإصلاح».

ومفتاح إصلاح المدارس العامة لا يكون بإنفاق المزيد وإنما يكون في الإنفاق بصورة أكثر ذكاء كما يقول لامار

الخاص. وفي الوقت نفسه فإن مشروع أديسون الذي يأمل في افتتاح أولى مدارس بحلول شهر سبتمبر عام ١٩٩٦، قد يوفر على الأقل بعض بحوث التطوير القيمة. ويقول شميث: «إنه إذا ما قدمنا وأظهرنا أساليب مبتكرة وجديدة تبرهن على أنها عملية بتكلفة يمكن للمدارس العامة تحملها، فإن العديد من تلك المدارس سوف تستفيد مما نفعله».

والهدف من كل هذا الابتكار هو بالطبع تحقيق نتائج أفضل. ولكن ماهو هذا الشيء الأفضل؟ وكيف يمكننا قياسه؟ فم منذ عامين، اتفق البيت الأبيض، وحكام الولايات الخمسون على أنه يتعين على الولايات المتحدة أن تضع مجموعة من المعايير الوطنية في الرياضيات والعلوم، واللغة الإنجليزية، والتاريخ، والجغرافيا، وحملت المعلمين مسؤولية تحقيق تلك المعايير. ومنذ ذلك الحين قام المجلس القومي لمدرسي الرياضيات بوضع مجموعة جديدة من المعايير الخاصة بالرياضيات.

وتحت قيادة مساعد وزير التعليم ديان رافيتش تعكف بعض الجماعات المهنية الأخرى على وضع معايير في مجالات تخصصهم. ويتعين عليهم الانتهاء من ذلك خلال فترة من عامين إلى ثلاثة أعوام.

وإلى الآن ما زال من غير المرجح أن تلجأ الولايات المتحدة إلى نظام إجراء الاختبارات القومية للتأكد من أن الطلبة

الإداريين في مؤتمر فورتنشن رددو أن التغيير يمضي قدماً. ويقول مايكل ماساروتي - ناظر إحدى مدارس الأحياء في ويستمنستر بولاية كولورادو - إن: «النقابات في مفترق الطريق، فإما أن تتغير، أو لن يكتب لها البقاء».

ولا يوجد مشروع يحاول إعادة التفكير بصورة أكبر طموحاً في أسلوب عمل المدارس الأميركية غير مشروع أديسون. وهذا المشروع الذي وضع تصوره رجل أعمال في تينيسي كريستوفر ويتلي، يهدف إلى إنشاء سلسلة «متكاملة تكنولوجيا» من المدارس التي تخرج عن القوالب المألوفة، وهي لن تكلف الطالب أكثر مما ينفقه في المدارس العامة. ويأمل مشروع أديسون في الإبقاء على التكاليف منخفضة من خلال التعاقد مع المدرسين برواتب زهيدة. ويقول بينو شميث الذي استقال من رئاسة جامعة «بيبل» في يوليو الماضي، للإشراف على مشروع أديسون «إذا وفرت بيئة تساعد على النمو المهني والعقلي، فإنه سيكون من الممتع والمثير أن تكون جزءاً منها، مما يزيل القيود التي ترفع من شأن الروتين على حساب النتائج، وأعتقد أنه بمقدورك أن تتعاقد مع أشخاص رائعين برواتب منخفضة».

ولكي يحالفه النجاح سيتعين على مشروع أديسون أن يجتاز بعض العقبات غير العادية. وسيتكلف تصميم وبناء سلسلة من المدارس على مستوى البلاد ملياري دولار على الأقل، ويأمل ويتلي في جمع هذا المبلغ من مستثمري القطاع

والاعتراض الرئيسي على تلك الاختبارات تمتد جذوره إلى الالتزام القوي في الولايات المتحدة للإشراف المحلي على التعليم. وفي بلد يمثل تلك الضخامة والتنوع، يدور الجدل بأن إجراء اختبار موحد سيفشل حتماً في الأخذ في الحسبان الاختلافات الإقليمية العميقة.

ولكن ألبرت شانكر - الرئيس التقديمي للاتحاد الأمريكي للمدرسين - يسخر من هذا الاعتراض. ويتساءل قائلاً: «هل التنوع يعني أن الأجناس، والديانات، والشعوب المختلفة لن يكون لديها مستويات عليا في القراءة والكتابة والرياضيات؟ فالأمر يبدو لي وكأنه مجرد مبرر».

وللتمسك بالأخذ بمعايير قومية سيتعين غالباً على الزعماء السياسيين في واشنطن أن يستعدوا للقيام بإجراءات جريئة، ويقترح جون سيلبر رئيس جامعة بوستون إما وقف التمويل الفيدرالي عن الجهات التي لا تأخذ بهذه الاختبارات، أو مكافأة المدرسين والمدارس التي تهرن على كفاءتها، وذلك عن طريق زيادة الأجور، أو الإعفاء من الضرائب، أو منح علاوات اجتماعية، فأسلوب الجزرة أو العصا، هو الذي يُمكنك من فرض المسؤولية.

وفي النهاية يتعين على المصلحين في مجال التعليم أن يبدأوا التفكير بجدية أكثر في كيفية استخدام الوسيط المفضل لروس بيرو وهو التليفزيون. وأي شخص يبحث عن دليل للكيفية التي

يلبون تلك المعايير. والسبب الرئيس في ذلك يرجع إلى المعارضة الشرسة من جانب جماعة الضغط في مجال التعليم التي تتألف أساساً من النقابات. ويقول تشيستر فين - المساعد السابق لوزير التعليم خلال عهد الرئيس السابق رونالد ريجان والمؤسس المشارك لمشروع أديسون - : «مسألة الاختبارات والتقييم تحولت إلى منشار طنان في مبنى الكونجرس. فالوضع القائم في العملية التعليمية، لا يريد مقاييس للكيفية التي يسير بها».

والمشكلة ليست في نقص البيانات. فعلى مدى العشرين عاماً الماضية، جمع المعهد الوطني للتقدم التعليمي جبلاً من درجات الاختبارات، ولم يُسمح لهذا المعهد إلا بنشر المعلومات المتعلقة بالكيفية الجيدة لعمل طلبة الصفوف الأميركيين: الرابع والثامن والثاني عشر كمجموعة. ولذلك نعرف على سبيل المثال أنه في عام ١٩٩٠م، أظهر ٤٦ في المائة فقط من طلبة المدارس الثانوية فهماً راسخاً للأرقام العشرية والنسب المئوية، والكسور، والجبر البسيط. ولكن، وبمقتضى القوانين الفيدرالية، لا يمكن لهذه البيانات أن تقوم بعمل مقارنات فردية بين المدارس والتلاميذ.

وإجراء الاختبارات القومية على مستوى البلاد كلها أمر شائع في معظم الدول الصناعية الأخرى، فلماذا لا تطبق في الولايات المتحدة أهو الخوف من تحمل المسؤولية من جانب المدرسين والمشرفين؟

السنوات الثماني الماضية قامت بالتأمين عليها شركة واحدة هي شركة USSA، وشركة التأمين هذه لم تفعل ذلك من أجل تسويق منتجاتها (التي لا تباع إلا للمكاتب العسكرية والخاضعين لها)، وإنما لأن مديرها يتمتع بتوجه مدني، وهو الجنرال الجوي المتقاعد روبرت مكدرموت. ويقول شابيرو: «إنني أعلم أن هناك شركات أخرى مثل شركة USSA وينبغي علينا فقط أن نعتز عليها».

قام أعضاء منظمة «التعليم أولاً» - وهي منظمة في هوليوود أسستها ليندا جوبر وكارولي استينبرج ،

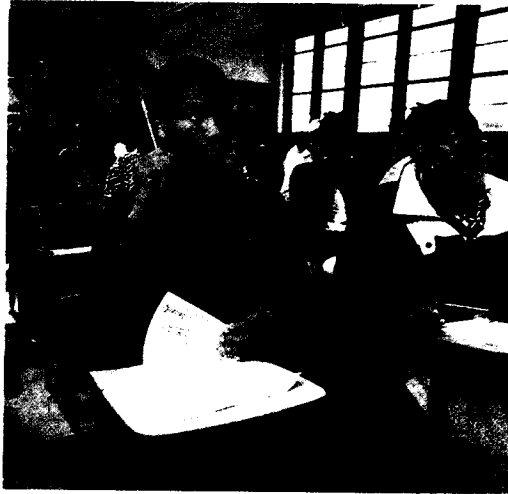
وهما من مدرسي مدينة نيويورك السابقين الذين تحولوا إلى منتجين في التليفزيون والسينما - بحث الكتاب والمنتجين ومدراء الشبكات التليفزيونية على إنتاج وعرض برامج تتضمن رسائل تعليمية إيجابية. وفي ربيع عام ١٩٩١، افتتحت الشبكات التليفزيونية أول أسبوع تعليمي يتضمن إذاعة برامج تزيد على السبعين ساعة، احتوت على مثل تلك الرسائل، وتم بث العديد منها في أوقات

يمكن بها للتليفزيون أن يغير من سلوك الناس، عليه أن يتحدث إلى أرنولد شاير، منتج المسلسل التليفزيوني الشعبي ريسكيو (إنقاذ)، فضلاً عن العديد من الأفلام التسجيلية، بما فيها الفيلم الذي عرض في سبتمبر عن إساءة معاملة الأطفال (الصمت المفزع). إذ إنه بعد عرض هذا الفيلم اتصل ١٢٥ ألف مشاهد

يتطلعون إلى المساعدة بخط تليفون ساخن أعلن عنه خلال عرض الفيلم. وقام شخص اعتدى على أطفال في لاس فيجاس، ومطلوب القبض عليه بتسليم نفسه للشرطة. ويقول توني دانزا بطل فيلم «تاكسي» الذي تحول إلى الإنتاج

: «إن التليفزيون أعظم أداة ، ولكننا لا نستغله».

والعقبة الرئيسية أمام بث عدد أكبر وأفضل من البرامج التعليمية، هي انخفاض العائدات. فالشبكات التليفزيونية ترغب في عرض البرامج التي سترعاها الشركات، والشركات ترغب في رعاية البرامج التي سيشاهدها الناس. وأربعة عشر من بين ستة عشر فيلماً تسجيلياً أنتجتها شركة شايرو خلال



والتليفزيون هو الذي يملك القوة
والمهارات لنقل نجاحكم إلى القاعدة
العريضة لأميركا.

وهي محقة في ذلك، وكلما كان ذلك
أسرع، كلما كان أفضل. والتساؤل الذي
شغل العديدين في واشنطن خلال العام
الحالي أثارته غيل مورسي مدرسة العلوم
في إحدى المدارس المتوسطة في ولاية نورث
كارولينا حين قالت: «كم من المؤتمرات
العديدة التي شاركتم فيها، وكم من
المؤتمرات الأخرى التي ستشاركون فيها
قبل أن نبدأ في إعادة تصميم أفكارنا، لكي
يكون بوسعنا تنفيذها في برامج محددة
بعد أن نخرج من هنا»، وهي تأمل في ألا
يحتاج الأمر إلى العديد من المؤتمرات
الأخرى.

المشاهدة الرئيسية. وسيبدأ الأسبوع
التعليمي الثاني في الثلاثين من نوفمبر.

وأنتج الأسبوع التعليمي الأول
برنامجاً خاصاً لشبكة «CBS» عرض في
شهر سبتمبر أطلق عليه اسم «العودة إلى
مدرسة ٩٢»، وقد ظهر فيه روبين وليامز
وآرنولد شوازينجر، ووبي جولد
برج، وعلى الرغم من مستواه المخبى
للأمال استطاع هذا البرنامج التليفزيوني
الوصول إلى عشرين مليون مشاهد،
وشجع عشرين ألف مشاهد على الاتصال
بخط ساخن، أقيم لربط المشاهدين
بمراكز تكافح الأمية، وحمل المراهقات،
وضعف الثقة في النفس، ومعدلات التسرب
المرتفعة من المدارس. وقالت جوبر أمام
المشاركين في مؤتمر فورتشن: «لقد
ناقشتم العديد من البرامج الناجحة هنا،
ولكن ما هو نظام التوصيل الذي سينشر
تأثيرها خارج مراكز الابتكار المحلية».

الطفل الصغير والتحليل النفسي

جيرار ببادو

محمد الدنيّا

من المتحدث؟ أهو طبيبها؟ لا، إنها محللتها النفسية!

من المؤكد أن فكرة سبر أغوار لا شعور الأطفال ليست جديدة بالفعل. فمذ ست وثمانين سنة، كان فرويد قد شرع باستكشاف حالات «استيهامية Fantasmes» عند الطفل «هانس». إلا أن استكشافه هذا كان مع صبي له من العمر أربع سنوات.

وإن كانت «فرانسواز دولتو» الوالدة الجليلة الأعظم للتحليل النفسي الطفولي، وهي أقرب إلينا زمنياً، فلأنها فسرت لغة الأطفال الصغار ورسومهم. ولكن من المؤكد أن الوقت ما زال مبكراً للبدء بالعلاج النفسي بواسطة قارورة الرضاع،

منذ أن ظهرت مفاهيم دولتو، والطفل الصغير في مفهومنا فرد كامل الشخصية، كما هو معروف. وعلى هذا الأساس، يعكف تلامذة فرويد على دراسته منذ أيامه الأولى. مع ذلك، تنطوي أبحاث المحللين النفسيين عبر مواجهة بعض الحالات التي يعيشها الطفل الصغير، كفقدان الوزن غير واضح الأسباب، والبكاء الدائم، والاضطرابات السلوكية، على نتائج مذهشة. ولكن، كيف السبيل إلى حل هذه الألغاز؟ بالإصغاء إلى هؤلاء الأطفال الصغار والتحدث إليهم، بمن فيهم حديثو الولادة «الولدان»، بل أيضاً بالكشف عن العلاقات المعقدة التي تربط الآباء بصغارهم وإيضاحها.

تفتح «سونيا» - لم تكمل بعد يومها السادس - المتكورة في حضن أمها، عينيها باتجاه ذاك الصوت القادم إليها من «شبح» أبيض، ضبابي، يجلس قبالتها.

العنوان الأصلي للمقال: Les Bébés et la Psychanalyse, L'express, 30 October 1992.

اللغة في مؤشرات أرى فيها رغبة من جانب
الطفل للتواصل مع المحيط. فمثلاً، يكون
الطفل مزكوماً لأنه لم يعد يريد أن يشتم
رائحة أمه. حينئذ، يقوم دور المحلل على
مفصلة هذه الأعراض مع سيرة حياة



الدكتورة «أنيك لي نستور»: «غالباً ما يفاجئني
الانفصال عن الواقع، القائم بين حقيقة الطفل والصورة
التي يخرعها أبواه عنه».

الطفل وأسرته. وللتعرف إلى هذه السيرة،
ينبغي مساءلة الأبوين. بعد ذلك، يطلب
إليهما أن يقصا على الطفل الصغير ما
يعرفونه عن ولادتهما هما، وعن الكيفية

بالنسبة لرضع لم ينطقوا بعد حروفهم
الأولى. مع ذلك، ينبغي الاعتراف بالواقع:
لقد تجاوز التحليل النفسي اليوم مرحلة
الأريكة المبتذلة، ليدخل عصر المهود.

إلا أن هذا التحول لا يجري خلف
الأبواب المنجدة في المكاتب الفاخرة
داخل الأحياء الراقية، بل في بعض
دور التوليد الاستشفائية الرائدة، أو
في دور الحضانة الاجتماعية النادرة
الخاصة بالأطفال «دون ثلاث
سنوات». وهكذا، عولجت الطفلة
«سونيا» في مستشفى «أنطوان
بكلير» (جنوب باريس)، في القسم
ذائع الصيت، الذي يرأسه
البروفسور «رينيه فريدمان»، أحد
أباء «أماندين»، أول طفلة أنابيب
فرنسية. هنا ولدت «سونيا». إلا أن
أمورها لم تسرع على ما يرام منذ الأيام
الأولى لولادتها، رفضت أن تتغذى،
ولم يزد وزنها، وبكاء طفلة النهار.
هذا دون أن يجد أطباء الأطفال أية
أسباب عضوية لمشكلاتها هذه. بعد
ذلك، وعقب موافقة والديها، أوكل
أمرها للطبيبة «المحللة النفسية».

لغة الجسد

تقول الدكتورة «ميريام سزجر»
: «لا أَدْخُل إلا عند معاناة الطفل الصغير،
وتتجلى هذه المعاناة في اللغة المتوافرة لديه
: لغة الجسد التي تتبدى على شكل
اضطرابات تنفسية، أو انعدام النوم، أو
هياج عصبي.. فضلاً عن أعراض أخرى
لا شأن للعلاج الطبي بها. وقد تتجلى هذه

ذاكرته». وإلى هذا الإرشاد تستند الطبية والمحلة النفسية «ميريام سزجر» في شروحاتها حول إدراك اللغة عند الأطفال الرضع. إلا أنها تركز أيضاً إلى أعمال «بوريس سيروولنيك» العلمية، والذي كان قد سجل صراخ الأطفال الصغار في إحدى دور الحضانة الاجتماعية بهدف سماعها من خلال مكبر صوت ذي تردد. وقد أكد بعدئذ أن الصراخات - منذ سن أربعة أيام - تتخذ شكلاً لحنياً، ويتجاوب بعضها مع البعض الآخر، مؤلفة نوعاً من «سمفونية المهود». واستخلص «سيروولنيك» مايلي: (يمثل كلام البالغين «الكبار» بالنسبة لهؤلاء الولدان معلومة هي على جانب كبير من الدلالة، يتجاوبون معها بأسلوب تغيير نمط صراخهم). ومن المؤكد أن الأطفال الصغار يدركون جيداً جداً ما يقال حولهم. وليس من شأن ذلك أن يتركهم قط لا مبالين.

ها قد وصلنا التحذير. فإن كان ثمة حقيقة تخرج من أفواه الأطفال، فمن الممكن أيضاً أن تصل إلى أذانهم. حذار إذن! وفي مركز سان دنيس للتحليل النفسي الطفولي، في ضاحية باريس الشمالية، تعمل «كلود بوكوبزا» - هي أيضاً - على تحليل علاقات القلق التي تربط الأمهات المعسورات بأولادهن. وكانت قد أشارت في هذا الصدد إلى امرأة فكرت بإجهاض نفسها. وتقول: «في مثل هذه الحالات، من الأفضل تجنب أن يسمع الرضيع أمه وهي تعبر عن دوافع

التي عاشها في أثناء فترة الحمل التي سبقت مجيء الوليد. باختصار، إنه اعتراف حقيقي من جانب الأم والأب على نحو أندر. إلا أن هذا الأمر الأمر ليس بهذه السهولة، إذ ينبغي على المحللة النفسية غالباً - هي أيضاً - أن تتحدث إلى الطفل الصغير كي تحل رموز قصة الأبوين وتقرنها مع منشأ الاضطرابات الملموسة في الأعراض. عرض لا يخلو من التشويش: المحلل يتحدث إلى الرضيع كما لو أنه قبالة شخص بالغ: «أترين، أمك لم تكن على وفاق تام مع أبيك. لم تكن تتمنى إنجاب طفل. لذلك، غالباً ما كانت مريضة خلال حملها. يبدو لي أنك أنت أيضاً كنت حزينة جداً لولادتك في مثل هذه الظروف. ولكن انظري، والداك كلاهما هنا الآن. وهما سعيدان جداً بأنك بنت صغيرة على هذا القدر من الجمال». والأكثر مفاجأة هو أن الطفل الصغير يتفاعل مع هذه الكلمات بين ذراعي أمه، بحركات فجائية، تنم - على ما يبدو - عن مشاعر توحى له بها حكاية سوابقه. فكيف نفسر ردود أفعاله هذه؟ هل يمكن أن نصدق فعلاً أن وليداً عمره بضعة أيام أهلاً لأن يفهم لغة الكبار؟

سمفونية المهود

كانت «فرانسواز دولتو» تؤكد أن بعض المحللين النفسيين أنفسهم كانوا يشكون في إمكانية التحدث مع طفل وليد. وتقول: «مع ذلك، إن الأشياء الأولى التي يسمعا منذ ولادته هي التي تؤثر فيه طيلة حياته، دون أن تمحى قط من شريط

الموت التي أحست بها حياله». باختصار، قد يحسن قول الحقائق كلها ! ولكن بحصافة.

ليس الطفل الصغير مجرد دمية حية يجتاز داخلها أنبوب هضمي. إنه - ومنذ أن تدب فيه الحياة - شخص غير منقوص، مسلح بقدرات السمع والشعورية. وهذا ما تشعر به الأمهات جميعهن خلال فترة الحمل، واللواتي يرين أن من الواضح أن الجنين - مثلما كان يؤكد «دونالد وينيكوت»، أبو التحليل النفسي الطفولي البريطاني - ليس كائنًا معزولاً عن العالم. إن في كيانه بداية الفردية والشخصية. يقول وينيكوت: «ليس الطفل طفلياً. إنه في مدرسة داخلية». إذن، علينا أن نحترم هذا التلميذ الداخلي، ومن باب أولى عندما ندعوه للولادة والإقامة في عالمنا.

ولكن مع الأسف، لا يولد الأطفال دائماً في أفضل العوالم. فالبعض يأتي عن غير رغبة الأبوين، وآخرون يجيئون بعد انفصالهما. فضلاً عن أجواء البطالة أحياناً، وضيق ذات اليد، مما يدفع عدداً من الولدان إلى دور الحضانة الاجتماعية. وفي إحدى هذه الدور، تمارس الدكتور «كارولين إلياشف» تحليلاتها النفسية على أطفال من عمر يوم إلى ثلاث سنوات، وحيث تستقبل رُضعاً مبعدين عن آبائهم. وفي مثل هذه الظروف، تستحيل دراسة التفاعلات بين الطفل والديه.. ووفقاً لما تقتضيه مناهج التحليل النفسي الطفولي. فما الذي تفعله «كارولين إلياشف»؟

تجيب: «أحدث مباشرة إلى الطفل. أحكي له قصته. في أثناء ذلك، يبدي ألمه من خلال ردود الفعل، وتعبير مختلفة، أعمل على ترجمتها إلى كلمات. ثم، ومن خلال كلماتي، يعود إلى عيش فترات انقطاع حياته. وهنا، أُرسي رابطاً مكان كل فترة انقطاع».

الابتسامة المستردة

قد يستغرب المتشككون، قائلين: كلام! كلام! ما الذي يؤكد أن الوليد يفهم لغة الكبار هذه؟ تضيف «إلياشف»: «إنه يفهمها، لأننا نحدثه عما عاناه. وقد عاش هذه المعاناة في جسده. ويدرك الطفل رسالتنا هذه بوضوح أكبر كلما اتسع كفه عن البكاء واستعاد بسماته». حالات المعاناة نفسها يشهدها - أيضاً - الرضع الذين تحللهم الدكتورة «ميريام سزجر» نفسياً في دار التوليد في مستشفى «أنطوان بكليز». إلا أن ثمار نجاحات التحليل النفسي لعمر الطفولة الأول يقطفها هنا الملاك الطبي. تقول طبيبة الأطفال الدكتورة «زورا شنايدر»: «غالباً ما نلاحظ لدى أطفال سن أربعة أو خمسة أيام اضطرابات عضوية بلا سبب طبي واضح لها، كفقدان الوزن، وعلل مختلفة، والتهاب مخاطية الأنف، والمغص. وبعد تقصي هذه الحالات، ننقلها إلى المحللة النفسية. ونؤكد أن الطفل يتجاوب مع هذا العلاج، حيث يميل إلى الشفاء من اضطراباته التي كان يعاني منها، ثم تتلاشى. بعد ذلك، تغيّر الأم أيضاً سلوكها، وتهدأ مخاوفها،

ويتبدد قلقها. وينتهي ما كان قائماً من توترات بينها وبين صغيرها». وتقول القابلة «أرونوفيتش» - العاملة في دار

لدى الرضع، بل تغيرت سلوكياتنا أيضاً. لقد بات كل واحد من هؤلاء الأطفال شخصية حقيقية في نظرنا. وهكذا، فإنني أتحدث إلى الرضع كما لو أنني أتحدث مع أشخاص كبار. وحتى عندما يتعلق الأمر بمجرد لسعة، تجدني أشرح لهم سبب كل واحدة من حركاتي، فيهدأ الصغار كما لو أن ذلك يخفف أو يسكن الأهمهم».

ها هما إذن «فرويد» و«لاكان» ممثلين بتلامذتهما، يدخلان دور الحضانة، ويتجولان حتى حول حاضنات الخدج! ولكن عن أي اكتشاف جديد يبحث هؤلاء في أعماق اللا شعور السحيقة؟ بعبارة أخرى، ما الفائدة التي سنجنيها من التحليل النفسي للوليد فيما يتعلق بالحياة النفسية بشكل عام؟ تجيب الدكتورة «كارولين إلياشف» قائلة: «كان المحللون النفسيون قد كونوا معارف حول سلوك الطفل. ولكن بقي عليهم أن يعرفوا أيضاً كيف يمكنون الطفل من مبادعتهم بمعارفه هو. وعندما نحكي له من أين أتى، ومن هو، ومن هما أبواه، يمكنه إدراك ذلك كله». فمثلاً: هناك الاسم، إذ ليس من قبيل المصادفة أن يسمي الطفل الآخرين ينادونه «جاك»، أو «روماريك»، أو «ماري» أو «بريسكا». تقول الدكتورة «إلياشف»: «لا يختار الأبوان الاسم اعتباطياً. فقد تسمى البنت باسم جدتها، والولد باسم عمه أو خاله، أو شخص



طفل صغير وجدته: كل مخلوق بشري هو ثمرة ماضيه

التوليد نفسها - : «كنت في البداية أقرب إلى التشكيك. إلا أن هذا العمل جعلنا على وفـاق مع التحليل النفسي، حيث لم نتخلص فقط من الأعراض التي كانت تجابهنا، سواء لدى الأمهات أم

عزيز. أو على العكس، قد يختار الاسم بعيداً عن كل مفهوم أسري، على نحو متعمد. حينئذ، يمكن أن يكون تعبيراً عن

— أن مصير الطفل يمكن أن يتأثر على نحو عميق جداً بنوع من «الوكالة الأبوية». ويعني ذلك أن الفرد غالباً ما يكون مكلفاً — عند ولادته — بمهمة

مفروضة عليه من أبويه. مثلاً: تاه زوجان في الرمال الصحراوية عقب سفرهما إلى الصحراء. ولما اكتشفتها إحدى الطائرات، فأنقذتهما، نذر هذان الشخصان على نفسيهما أن ينجبا ولداً. وجاء الولد. إلا أن نومه كان مضطرباً، وكان كثير البكاء ليلاً، مما أفسد حياة أبويه العاطفية.



الحوار الاسري : رعاية نرجسية هائلة

رفض لبعض أفراد العائلة. فضلاً عن ذلك، التسمية تعني التمييز، أي الفصل. ثم إن قطع الحبل السري هو الانفصال الثاني بين الأم وصغيرها». وهكذا، فإن اختيار الاسم هو أحد المؤثرات التي تترك معالمها على مصير الطفل.

الطفل الخيالي

ذلك لأن الكائن البشري هو ثمرة ماضيه. والإنسان هو وريث برنامج وراثي مسجل في صبغياته، حتى قبل أن يولد. غير أن شخصيته هي أيضاً محددة بالثقل النفسي للأجيال التي سبقتة. ويرى الدكتور «سيرج لوبوفيسي» — أحد أعمدة التحليل النفسي الطفولي المعاصرين

وأسرت الزوجة للمحلل النفسي أخيراً بأن صراخ طفلها البكاء جعلها باردة. في الواقع، كشف التحليل النفسي، في لا شعور الأم، عن أن الصبي الصغير كان «مكلفاً» بأن يُشخص عودة الحياة إلى الأبوين المستقبليين اللذين ظنا نفسيهما هالكين لا محالة في أثناء ذاك التيه الصحراوي، وفي نظر هذه الأم، لا يمكن أن يكون ولدها، والحالة هذه، إلا كاملاً. إلا أن الواقع غير ذلك، إذ كان يعكر صفو والديه وراحتهما كل ليلة ببكائه وصراخه. إذن، لم يكن يتوافق وصورة «الطفل الخيالي» الذي كانت الأم تحلم بإنجابه. أخيراً، عادت الأمور إلى مجرياتها الطبيعية، بعد أن تعلمت الأم — بفضل التحليل النفسي — كيف تتناول طفلها بين

ذراعيها وتضمه إلى صدرها، طفلاً بكاءً، لكنه «حقيقي»، وهو طفلها هي.

ماذا عن الآباء؟

إنه لدور مرهق ذاك الذي يمثله أولئك الولدان الذين يولودن في «لا شعور» الأمهات. إنهم في أذهان آبائهم أبطال صغار، حتى قبل ولادتهم، وهم أيضاً موضع تصوراتهم المثالية. وغالباً ما يحملون على أكتافهم الصغيرة قيم العائلة المنتقلة عبر الأجيال. هذا دون الحديث عن الحالات الاستيهامية * التي يلبسونها تحت تأثير العلاقات المتوترة التي كانت قد اتسمت بها حياة أمهاتهم بأمهاتهن هن. ليس لهؤلاء الأطفال الخياليين وجود إلا في نظريات التحليل النفسي. إلا أننا نجد آثار هؤلاء في العيادات أيضاً. تقول الدكتورة «أنيك لي نستور» — طبيبة الأمراض العقلية والنفسية الطفولية، المختصة بمعالجة الأطفال الأصغر — : «غالباً ما يفاجئني الانفصال عن الواقع، القائم بين حقيقة الطفل والصورة التي يخترعها أبواه عنه. حتى أنني أتساءل عن ماهية ما يمكن أن يجمد حياتهما عند هذه النقطة ليصفاهما على هذا النحو؟ حينذاك فقط ندرك بشكل خاص ثقل مآسي الأسرة، فيض من الجثث في لوحات الإعلانات!

عندما لا تتوافق الصورة التي يتخيلها الأب أو الأم والطفل الحقيقي، فذلك يعني أن هنالك اضطراباً مَرَضِيّاً. حينذاك،

يجري تصوير سلوك الطفل وأبويه تليفزيونياً من أجل تحليل علاقاتهم، وردود أفعالهم. ويمكن بعد ذلك قضاء ساعات عديدة في فك رموز رسائل موضحة على هذا النحو، كالكشف عما هو تصوري أو خيالي في سلوك أم تنبذ صغيرها، كي يتدبر أمره بمفرده، دونما مساعدة من جانبها، من أجل أن تجعل منه كائنًا منيعاً وقوياً، حسب اعتقادها، في حين أنها — هي — كانت على الدوام على جانب كبير من اللينة، ذات ضعف. إنه لموقف مأساوي، من شأن استمراره أن يدفع الطفل الصغير، بعد أن يصيبه العُصَاب، نتيجة ذلك، إلى أن يشيح بنظراته عن أمه دائماً، كي لا يراها. ولكن، متى نحكم أن هذه الاضطرابات قد زالت؟ تجيب الدكتورة «لي نستور»: «عندما يحل الآباء عقد الأبناء المحتجزين أُسرى لديهم. وحينما يحل التناغم بين الأبوين والطفل، لا يعود لأي منهم حاجة إلى العلاج».

من حسن الحظ أن المحلل النفسي لا يتدخل من أجل معالجة حالات العُصَاب فقط. فتجارب على صعيد الحياة النفسية الطفولية تمكنه — أيضاً — من أن يعلم الآباء كيف يتخلصون من القلق إزاء الأعراض الصغيرة التي غالباً ما تفضي بصغارهم إلى حالات من الإثارة والهياج، مثلاً هو ملاحظ في بعض أوجه الاستحواذ الاهتياجي، التي تنم عن تطور طبيعي لدى الطفل، إلى درجة يمكن معها

* من إستيهام Fantasma : حالة أو تصور خيالي قد يكون واعياً وأحلام اليقظة النهارية، وإنجازات فنية..، أو لا واعياً وأحلام، وأعراض عصائية...، المترجم.

تحدثه الخطوات فوق الثلج. وذلك هو مثال بين أمثلة أخرى عديدة. إلا أنه عند الإصغاء إلى الأطفال، يمكن اكتشاف حالات الاستيهام لديهم، التي تعد من حيث الظاهر بلا قيمة وشاذة في الوقت نفسه. غير أن هذه الحالات، عند استمرارها حتى سن المراهقة، يمكن أن تؤدي إلى ظهور الذهان فجأة.

ويقول الدكتور «لبوفيشي» «لا استيهام بلا تفاعل مع الأم؛ بل يبدو لي أن الطفل يرتب استيهامات أمه بدوره: «يجعلها» أمه. «يصنع» من والدته أمًا. باختصار، بدون الطفل، ليس هنالك أم. بداهة جليلة تبين تماماً عظمة التبعية المتبادلة بين الأم والطفل. عندما ينظر الطفل إلى أمه يرى ذاته في حدقتي أمه، ويرى أمه وهي تنظر إليه في اللحظة نفسها». من هنا العمق اللا نهائي لهذه الروابط البدئية التي كانت تسميها «ميلاني كلين» «الانصهار المحيطي Fusion-Oceanique».

أين دور الأب في كل ذلك؟ لم يعره التحليل النفسي اهتماماً كبيراً في هذا الإطار، إذ يبدو أنه ذو دور ثانوي. إلا أن الدكتور «لبوفيشي» راح يعيد إليه اعتباره، بالضرورة: «يجب ألا نكون واهمين. ففي الحضارة الغربية، الكثيرون من الآباء لا يمنحون إلا قليلاً من الوقت لأطفالهم. ومن حسن الحظ أن متطلبات حياة الأسرة تدفعهم إلى إعطاء مزيد من الاهتمام لصغارهم، والنظر إليهم ككائنات حية». إلا أن «الآباء الجدد»

القول: إن في عدم ظهور هذه الحالة لديه ما يثير القلق، على حد تعبير الدكتور «سيرج لبوفيشي». وهكذا، يتميز الأطفال - نحو ثلاث سنوات - بفترات كوابيس وقلق ناشئين عن الخوف من عزلتهم ليلاً. ومن المفارقات أن الكثيرين من الأطفال يغالبون خوفهم الليلي بإعمار ظلمتهم بأشياء تثير الخوف. ودمى تمثل حيوانات متوحشة. ويرى الدكتور «لبوفيشي» أن هذه المواقف العابرة هي نتيجة لقلق الانفصال عن الأبوين. وبهذا الصدد، ينصح الآباء بتقبل تلك الأشياء الصغيرة والمهمة التي ترافق نوم الطفل، كأن يترك باب حجرته مفتوحاً، ومصباح الليل الصغير مشتعلًا، و«بالأخص حكايات، الإغفاء، والقبيلات الدائمة».

ليس هنالك ما يقلق أيضاً في الميول الاستحواذية الصغيرة المفرطة، كالولع بجمع بعض الأشياء غير الاعتيادية، مثل الدبابيس. كما أنه أمر عادي أن يعاند الطفل في ألا يمشی على الخطوط المحددة على الرصيف، كما لو أن جهنم تقع عند حوافها. وفي هذا الإطار، يحذر الدكتور «لبوفيشي» قائلاً: «ولكن حذار، فهذه الميول المفرطة إذا ما ثبتت على استمرارها نزعت إلى إرساء حالات من العصاب النفسي الحقيقي. وسيغدو الإنذار حينها أشد خطراً». ويضيف: «شاهدت أكثر من طفل يعاني من حالات استحواذ قاسية، انتهت بالذهان في عمر البلوغ، حيث الأفكار الغريبة، كتلك التي تقوم على الاعتقاد دوماً بانعدام الصوت الذي

ومن هنا صراع التناقض الوجداني إزاء أب مثير للخوف، لكنه محترم ومحبوب. إلا أن الأمر هو أعقد من ذلك عند البنت الصغيرة، إذ عليها — هي أيضاً — الانفصال عن أمها. وهذه السيرة يداخلها شعور بالخيبة لانعدام عضو الذكورة، وهو ما يروق للأب مع ذلك، كأمها. ويفهم من استطاع ذلك. إلا أن الحياة ليست بهذه البساطة فعلاً، إذا ما نظرنا إليها عبر مشوار التحليل النفسي. مع ذلك، يبدو أنه لا بد من المرور بهذه المرحلة كي ينتقل الطفل إلى المراهقة، فالبلوغ.

إن طفل التحليل النفسي هو طفل البناء. على حد تعبير د. «لبوفيشي». ذلك أولاً وفقاً لبرنامج الوراثة، الذي يتكون تطوره البيولوجي على أساسه، ولكن ليس في معزل عن «الرعاية الوالدية النرجسية الرهيبة». وعبر هذا السبيل تحديداً تنقل الأم إلى الطفل صراعاتها — اللا شعورية بالتأكيد — وكذلك ثقافتها، و«موقعه في شجرة حياة الأسرة». ومن اللافت للانتباه أن الدكتور «سيرج لبوفيشي» لا يستخدم قط كلمة «حب» من باب الرصانة، دون شك.

حوار مع البروفسور لبوفيشي «نعم، إنهم يفهموننا»

في سلالة سيغفوند وأنا فرويد، وميلاني كلين، ودونالد وينيكوت. يعد البروفسور «سيرج لبوفيشي» أحد كبار منظري التحليل النفسي الطفولي. وفي

يتجاوزون هذا الواقع على نحو أفضل. إنهم يجيدون تماماً تنفيذ المهمات التغذوية، وغالباً ما نجدهم أكثر مهارة من شريكاتهم في ذلك. وتدل التجربة على أنه ليس هنالك ما هو أقوى فاعلية من أب يقوم بتبديل ثياب طفله. إن تطور الطفل ينبئنا بأن الأب مميّز عن الأم منذ الأسابيع الأولى من الحياة. ونرى أحياناً أطفالاً يبتعدون بنظرهم عن أمهم ليرتضوا باستمتاع، بتبادل النظرات مع أبيهم. إذن، فالأبوان شريكان يؤدي كل منهما دوره فيما يطلق عليه الدكتور «لبوفيشي» في كتابه «الطفولة المستردة» اسم «سيرة البناء الثلاثية»، أو تكوين الثالوث الأسري. كل ذلك بمباركة التحليل النفسي: «لا يمكن أن يتمخض مثل هذا التطور إلا عن تأثيرات إيجابية، وهو يمكن الطفل من المشاركة في نسج والدية الأب والأم، بمنحهما أدواراً متبانية».

ومن المؤكد أن لهذا الأمر واقعاً إيجابياً على تطور السلوكيات الاجتماعية لكل من الرجل والمرأة.

شجرة الحياة

وا أسفاً! يكبر الطفل. وتنبثق عقدة أوديب الشهيرة «سيقتل الأب على يد ابنه، الذي سيتزوج أمه» وفقاً للمأساة الإغريقية التي تكتمل فيها نبوءة وسيط الوحي المشؤومة. إنها الحكاية الرمزية التي اقتبسها فرويد وطبقها في منهجه التحليلي النفسي، وأولها الدكتور «لبوفيشي» على النحو التالي: «يريد الطفل الاستئثار بأمه. إذن، عليه أن يلغي أباه.

وفي ظرف كهذا، لا عجب ألا تستطيع الصغيرة النوم. كان عليها أن تبقى مستيقظة كي تقي الأم من مدانة زوجها. وبعد أن تعاملت بنفسها مع هذه الطفلة، سهلت لها قبول وجود رجل آخر بينها وبين أمها، ومنذئذٍ استقام نومها.

— الإكسبرس: كيف تفسرون أن الأجيال السابقة لولادة الطفل تؤثر

كتابه «الطفولة المستردة»، الذي صدر في «نوفمبر ١٩٩٢» يرسم لنا مراحل بحثه ومساهمته في اكتشاف الحياة النفسية لدى الطفل الصغير.

— الإكسبرس: أليس إدراكنا للطفولة مشوهاً بانطباعات حاجبة، كنتم قد أشرتُم إليها في كتابكم؟

.. سيرج لبوفيشي:

الانطباعات الحاجبة هي ذكريات ينتهي بها الأمر بالتراكم على السطح نفسه. ولا تعود بالضرورة إلى الفترة ذاتها. وعندما تحيا ثانية بعد قوات الأوان، وفقاً لمجريات ماضينا، فإنها لا تلون الطفولة على نحو مُرضٍ. وغالباً جداً ما تكون مشحونة بالشعور بالذنب.

— الإكسبرس: ما السبب في رأيكم أن الأهل يميلون غالباً إلى ابتكار «طفل خيالي» مختلف عن الطفل الحقيقي؟

.. سيرج لبوفيشي: هاكم هذه الحالة الحديثة: جاءتني سيدة بابنتها البالغة عاماً من العمر، والتي كانت تعاني من اضطرابات النوم منذ وصولها إلى باريس، وقد أُتيَتْ للانضمام إلى الزوج، والد الطفلة. وعرفت أن الصغيرة تحمل اسم جدتها، وأن أمها تنادياها «يا أمي».. بعبارة أخرى، كان على عاتق الطفلة أنت تحمي أمها. وكانت هذه الأم تشعر بالذنب لأنها تركت أمها كي تقترب من رجل.



أم وابنته ١ عندما يترسخ التناغم أخيراً

بدورها على حياته لاحقاً؟

لبوفيشي.. إن الطفل، عبر مجيئه إلى هذا العالم، هو ابن لأم وأب كانت لهما صراعاتهما مع آبائهما. فالأم التي عانت من صراع أوديبي — مثلاً — ستسعى لأن تنجب طفلاً يكون لأبيها. وسيمثل هذا الطفل جده لأمه، ويتعرض للعدوانيات نفسها التي واجهت — منذ عهد قريب — الأم وأبيها. وتلك هي حالة شائعة جداً. إل أننا نتخلص من هذا القدر على نحو

طبيعي. ولكن عندما تكون البنية شديدة الوثوق والتراضي، فإن الصراعات تنتقل من جيل إلى آخر، حتماً.

— الإكسبرس: هل تعتقدون بأن في وسع الطفل التأثير بلغة الكبار منذ ولادته؟

.. سيرجي لبوفيشي: لا أعتقد أن الطفل قادر على فهم الكلام، غير أنه يفهم مقاصد الكلمات والمؤثرات التي تتضمنها. فمثلاً، إذا ما ترسخ تواصل عاطفي بين المحلل النفسي والطفل، فإن هذا الأخير لا يفهم الكلمات، لكنه يستطيع أن يفهم ما أراد المحلل أن يرمي إليه.

الإكسبرس: هل يمكن بذلك النفاذ إلى حياة الوليد النفسية؟

.. سيرجي لبوفيشي: ليس هنالك منفذ إلى الحياة النفسية ذاتها، بل إلى الحياة النفسية بين الوليد وأمه. وعن طريق التقمص العاطفي، يمكن أيضاً التواصل مع الطفل الصغير. ولا أعتقد أبداً بما كانت تقوله «فرانسواز دولتو» حول فهم الوليد للغة. إن التواصل بين الأم والطفل يجري بشكل خاص عبر نبرة الصوت ونغمته، ومن خلال المؤثرات التي

تمررها على هذا النحو.

— الإكسبرس: هل سيستطيع التحليل النفسي برأيكم مجارة تطورات علم الأحياء التي تتناول عمل الدماغ؟

.. سيرجي لبوفيشي: أعتقد أنه لن يتسنى قط للتحليل النفسي الانتقال إلى المخبر، والعكس بالعكس. مع ذلك، لا يستطيع التحليل النفسي تجاهل المكتشفات المخبرية، سواء تعلق الأمر بتطورات البيولوجيا العصبية، أم بعلم النفس العصبي. ويمكن لهذا الأخير أن يفسر سلوكاً ما عن طريق آلية العمل الدماغية النوعية. إلا أن الإنسان أشد تعقيداً من عمل دماغه، مهما بلغ هذا الدماغ من التعقيد. كما أن لتاريخ الإنسان الشخصي دوره، هذا التاريخ الذي يتشكل وفق سيناريوهات بكورية جداً، لا مجال قط لغض النظر عنها.

إذن، فالتحليل النفسي يجد موقعه عبر هذه السيرورة، خصوصاً أن آليات عمل الدماغ تتبدل على إيقاعات الأحداث الخارجة عن ذواتنا. وعبر هذا التبادل، يمكن للتحليل النفسي وعلم النفس العصبي إيجاد أرضية الحوار. ذلك أن الدماغ غير كاف وحده لشرح الإنسان.

تطوير برامج تنمية الطفولة

روبرت مايرز — عبد الفتاح الصبحي

يقول روبرت مايرز Robert Myers مؤلف هذا الكتاب: إن رعاية الطفولة، والتنمية الاجتماعية والفكرية والبدنية للرضع والأطفال الصغار - وبخاصة فيما يسمى «العالم الثالث» - هي الاهتمامات الرئيسية لكتابه. فالمسألة المطروحة هنا هي خير وتنمية الأطفال في نيبال ونيجيريا ونيكاراجوا، وفي كل مكان من العالم ينجح فيه الأطفال في البقاء برغم أنهم يولدون وسط الفقر، ويعيشون في مواجهة أخطار جمة تهدد حياتهم. ويضيف المؤلف أن هؤلاء الناجين الصغار يزدادون عدداً، وهم في بقائهم يمثلون البهجة، والأمل في المستقبل، كما أنهم مشكلة يومية للأسر الفقيرة التي تعاني شظف العيش في سبيل البقاء.

ويوضح الكتاب الذي نشرته مؤسسة روتلج بالتعاون مع منظمة اليونسكو، وطبع في عدة دول خلال عام ١٩٩٢، أن من بين كل ثلاثة عشر طفلاً يخرجون إلى النور في عالم اليوم يتاح لاثني عشر منهم البقاء حتى يروا عيد ميلادهم الأول. ومن المتوقع أن يرتفع هذا العدد بحلول عام ٢٠٠٠. وينطلق المؤلف في كتابه من حقيقة أن منظمات دولية عديدة، وبعض الحكومات، تركز بشدة على تقليل نسبة الوفيات بين المواليد، بينما لا تبدي إلا القليل من الاهتمام بتنمية ورعاية الأطفال الباقين. ويتساءل مايرز: ماذا سيحدث للأطفال الذين يكتب لهم البقاء؟ إن الكثير من ظروف الحياة التي عرضت هؤلاء الأطفال من قبل لخطر الموت تضعهم الآن أمام خطر ضعف النمو في سنواتهم المبكرة. ويحاول المؤلف الذي يعمل منسقاً للمجموعة الاستشارية لرعاية وتنمية الطفولة أن يثبت أن علينا أن نمضي أبعد من البرامج الرامية أصلاً إلى البقاء، وأن نوجه المزيد من الجهد والاستثمار إلى البرامج المخصصة للتنمية والتطور والرعاية لسنوات الطفولة المبكرة. ويصف مايرز كتابه بأنه دعوة لإعادة بحث السياسات والسعي من أجل تعزيز رعاية وتنمية الطفولة المبكرة، وتقديم مزيد من الدعم للبرامج العاملة في هذا المجال. ويؤكد المؤلف - من خلال دراسات بحثية مكثفة، وعلى أساس تجارب عديدة تابعها عن كثب في بلدان العالم الثالث - أهمية الإسهام والمشاركة بين الوكالات، والحكومة والأسر. كما يستعرض الحاجات والإنجازات التي حققتها برامج تعزيز التنمية والتطور من أجل مساعدة الأطفال على معرفة إمكاناتهم الفردية والاجتماعية. ويختتم المؤلف كتابه بدراسة أولويات العقد القادم من السنين وما بعده.

وفيما يلي ترجمة كاملة للفصل الثاني من هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «أين نحن؟ وكيف وصلنا؟».



قبل أن نحاول وصف الوضع الراهن لبرمجة رعاية وتنمية الطفولة المبكرة بطريقة منهجية قدر المستطاع، فإن تقديم نبذة عن تطور هذه البرامج يتيح لنا وضع الحاضر في منظوره الصحيح. وعلى كل، فليست تنمية الطفولة، ولا رعاية الطفولة بأمور مستحدثة. إلا أنه مع تغير المجتمعات والظروف عبر السنين، تغيرت أيضاً أشكال الرعاية والتنمية. وكان من بين هذه التغيرات في الشكل نمو برامج الرعاية والتنمية التي تعتمد على المؤسسات. إن استعادة البدايات الأولى لبرامج رعاية وتنمية الطفولة إلى الذهن لا تذكرنا بتغير الأمور فحسب، بل توحى لنا أيضاً بالبطء الذي تتسم به خطوات تكيفنا مع

بعض الأوضاع، بينما نندفع متلهفين في بعضها الآخر.

بيئات متغيرة .. وحاجات متغيرة

تعود إحدى بدايات برامج رعاية وتنمية الطفولة، في العالم الغربي، كما نعرفها اليوم، إلى التغيرات التي صاحبت الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر. ففي ظل هيمنة المجتمع الزراعي والريفي الذي سبق التصنيع، كان الأطفال عادة يعيشون في كنف أسرة ممتدة. وكان أطفال الحقل هؤلاء يتهياون اجتماعياً

للعيش في عالم محدود، وغير متغير نسبياً، استقر فيه الاتفاق على قيم الجماعة بصورة عامة. ووفر المحيط الريفي للطفل مجالاً للاستطلاع، وبيئة حافزة لقدراته. وكانت مسؤولية رعاية الأطفال تقع بالكامل على عاتق النساء اللائي سمح لهن عملهن — عادة — بإرضاع الأطفال، والعناية بهم مباشرة خلال سنواتهم الأولى. وغالباً ما كانت الأسر كبيرة العدد، وكان من المتوقع أن يقدم الأطفال الأكبر سناً يد العون في

مهام رعاية الطفل. والواقع أن الأطفال سرعان ما كانوا ينخرطون في عالم اليافعين، ولم تكن لهم — إلى حد ما — «طفولة» منفصلة، كما هو الحال اليوم (أريز ١٩٦٢).

لا ينبغي تصوير أحوال الريف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصورة رومانسية. فلقد كانت الحياة كثيرة المطالب، وكان بقاء الإنسان يتهدده المرض باستمرار، أو نقص الطعام في بعض الأحيان. إلا أن «نمو» أولئك الأطفال الذين بقوا على قيد الحياة بعد شهورهم الأولى، كان أقل صعوبة من نمو الكثيرين من أقرانهم في البيئات الحضرية الجديدة. لقد كانت ممارسات رعاية الطفل التي تطورت عبر السنين ملائمة للتنشئة الاجتماعية في البيئات الريفية، ولم تكن على هذا القدر من الملاءمة بالنسبة للمدن.

وأدى التصنيع والانتقال نحو المدن إلى تغييرات في القيم، وظروف العيش، والاستعدادات الأسرية، وأنماط العمل. وحملت الأوضاع الجديدة معها الحاجة إلى رعاية أطفال الأمهات العاملات، وإلى إيجاد سبل لتشجيع الاستطلاع، وحفز قدرات الطفل بصورة كافية داخل بيئة طبيعية أكثر تقيداً. كما تطلب الأمر من الآباء والأمهات اكتساب مهارات جديدة، واستحداث نوع مختلف من التنشئة الاجتماعية.

واستجابة للظروف المتغيرة، بدأ ظهور نوعين من البرامج. فقد أنشئت

مجموعة من البرامج استهدفت أساساً رعاية الأطفال للقطاء أو المعوزين. وكانت برامج الرعاية الاجتماعية هذه — التي غالباً ما تديرها نساء الطبقة الراقية — برامج وقاية وكفالة، ولا تكاد تعني بغير سد الرمق وتوفير المأوى.

كما نشأ ضرب آخر من البرامج حاول في أغلب الأحيان تلبية حاجات الطبقة الوسطى النامية في المدن، أو أطفال الأمهات العاملات (فان دير إيكن ١٩٦٩). وأكدت هذه البرامج أهمية إثراء عالم الطفل، وحفز قدراته قبل التأكيد على الوقاية والكفالة، وكان القصد منها — بمعنى ما — أن تكون بديلاً عن الإمكانيات الخصبة التي تتيحها البيئات الريفية. لقد جرى إحضار الدمى وأنشطة اللعب إلى غرفة الدرس المحدودة من أجل حفز الأطفال، وإكسابهم القدرة على الممارسة، بينما حصل أطفال الريف على كل ذلك بطريقة أكثر عفوية. (وما دامت هذه النماذج ذات القاعدة المركزية تم جلبها من العواصم الغربية إلى المناطق الريفية في العالم الثالث اليوم، فمن الملائم أن نتذكر هذا المنشأ لكي نتحاشى تقديم عناصر أجنبية غير ضرورية).

إن التوازن بين التغييرات في القيم، وأنماط المعيشة، وهيكل الأسرة، والعمل المرتبط بالثورة الصناعية، وبين التغييرات الجارية اليوم في البلدان التي تشهد تحضراً سريعاً، وأحياناً في الدول التي تمر بطور التصنيع في العالم الثالث هو توازن واضح المعالم. لقد تحولت بلدان

وحدثت أيضاً ثورات في مجالات الانتقال والتنظيم. فلم يعد دور حافلات النقل يقتصر اليوم على مساعدة أهل الريف على زيارة المدن والهجرة إليها؛ إذ إنها توفر أيضاً إمكانية العودة المؤقتة أو الدائمة إلى القرى، حيث يمكن عرض أفكار جديدة، وأزياء حديثة. وقد يسرت الثورة في مجالات الاتصال والانتقال توسع التجارة والتنظيم الحكومي، بحيث بات الوصول إلى القرى أمراً مألوفاً. وتقوم هذه الوكالات التنظيمية بترويج سلعها التجارية أو الاجتماعية، مدعومة خلال ذلك من جماعات من الأفراد الذين يتمركزون في المدن، ويبتكرون منتجات جديدة للبيع، وأساليب حديثة لتصريف هذه المنتجات.

وهكذا لا ينحصر الأمر في الانتقال إلى المدينة، مع التغيرات التي ترافق ذلك، وإنما يشمل أيضاً وصول المدينة إلى المناطق الريفية، مع تغيرات مواكبة. واقترن بهذا الانتشار مجيء زجاجة الرضاعة للطفل، والببسي كولا، وسراويل الجينز الزرقاء، وأواني البلاستيك. وتجلب هذه التغيرات أيضاً وراءها الشك إزاء القيم القديمة، وأساليب العمل، بما في ذلك تربية الأطفال. وثمة تغير في معنى «الجماعة» وتشوش غير مألوف بشأن الولاءات. وتكمن دلالة ذلك كله في أنه حتى الأطفال الذين يظنون في المناطق الريفية يعيشون أكثر فأكثر، وبصورة تلقائية، داخل بيئات متعددة، ومتصارعة أحياناً. ورغم أن هؤلاء الأطفال يتأثرون

عديدة من أجل العمل بهمة لإنشاء بنية مماثلة ثنائية الشعب استجابة للتغيرات: نهج للرعاية الاجتماعية للفقراء يكفل لهم الوقاية في أحسن الأحوال، ونهج لإثراء الواقع الثقافي للطبقات المتوسطة، مع مزيد من التركيز على التنمية.

وخلال القرن العشرين، ومنذ عام ١٩٤٥ بخاصة، تجري تغييرات أخرى لم تكن قد برزت بوضوح في أثناء الثورة الصناعية. فقد ساعدت ثورة الاتصالات على خلق «القرية العالمية» (التي يدعوها المؤرخ الأفريقي كي زربو «السوبر ماركت العالمي»، كي زربو وآخرون ١٩٩٠). وتصل أجهزة راديو الترانزستور الآن إلى معظم أركان العالم، بل إن التليفزيون يصل إلى مناطق الريف بصورة لم ترد على الخاطر منذ خمس وعشرين سنة.

وشهد القرن العشرون أيضاً ثورة في مجال التربية، أو على نحو أدق، في مجال التعليم المدرسي. وتحظى بالتشجيع الآن معرفة القراءة والكتابة، التي زادت معدلاتها بصورة بالغة. ويكاد النمو في معدلات التوسع في التعليم المدرسي الابتدائي يماثل ذلك. ويتم إيلاء مزيد من التأكيد على اكتساب مهارات معرفية ترتبط بالتفكير التجريدي. وأثار وصول (إقحام؟) المدارس إلى المناطق الريفية منافسة مع الأشكال التربوية الأصلية، وجلب معه نوعاً جديداً من الشهادات التي ازداد الطلب عليها من أطفال الريف والمدن على السواء.

بثقافات وطنية وعالمية، إلا أن جذورهم تضرب في تربة ثقافة محلية قد لا تكون متأكدة من جذورها واتجاهاتها الخاصة.

وعموماً، فإن الأفكار المرتبطة بتنمية الطفولة المبكرة كانت بطيئة في التغير، بالرغم من زيادة فرص الحصول على المعلومات التي قد تساعد على ذلك. هذه هي الحال بالنسبة لمن يقيمون في المناطق الريفية، الذين يطلب إليهم استيعاب طرائق جديدة، بيد إنهم يقاومون التغييرات التي ربما كانت ضرورية لكي يشب ويعمل أطفالهم في عالم انتقالي، أو في العوالم المتعددة المحيطة بهم. إن ذلك هو الحقيقة فيما يتعلق بالمهاجرين إلى المدن الذين يحتاجون للتوافق مع البيئات الجديدة. وهو حقيقي أيضاً للمهنيين الذين يعيشون في الحضر، وموظفي المكاتب البيروقراطيين ممن يهتمون بالمناطق الريفية. فنظراً لأن هؤلاء قد نشأوا وتدريبوا في ظل تقاليد غربية (وربما حضرية)، فإنهم يتشبثون بالأشكال والمضامين الغربية بقوة، حين يغامرون بالذهاب إلى الريف، ويخفقون في استيعاب وتطوير القاعدة الثقافية الخصية، والأعراف، والتقاليد الأصلية التي حظيت بمكانة طيبة على مر الزمن. فإذا كان الأفراد يتسمون ببطء التكيف، فإن الثقافات أكثر بطئاً.

لنتأمل، على سبيل المثال، ثورة أخرى تحدث أمام أنظارنا: هي تحرير المرأة، والتغييرات المصاحبة لذلك في هياكل

الأسرة (تيلي وسكوت ١٩٧٨). إن تأثير هذه الثورة سنشعر به يوماً في كثير من بقاع العالم، إلا أنه قادم على الطريق. ومرة أخرى، تبرز الحاجة لتكييف طرائق التفكير الخاصة برعاية وتنمية الطفولة، التي تتأثر بهذه الثورة. لكن ردود فعلنا لا تزال بطيئة. ومن المفارقة، أن ردود الأفعال حينما تحدث قد تكون سريعة أو قوية أكثر مما ينبغي، بحيث تفشل في أن تأخذ في الحسبان الحاجة والرغبة في صون القيم الأساسية التي تعززت من خلال عملية التنشئة الاجتماعية السابقة.

إن إعادة حساب كاملة للتغييرات التي تؤثر في أساليب تفكيرنا تجاه رعاية وتنمية الطفولة المبكرة ينبغي أن تتعرض أيضاً لمناقشة تأثيرات الوفرة المتزايدة، والتوزيع المتغير للثروة والتأرجحات الاقتصادية التي تتطلب تكيفات صعبة، والتحولات الكبرى في الجغرافية السياسية في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن، التي أدت إلى استقلال دول كثيرة، وتعزيز اتجاهات المنظمات الدولية وسلطاتها في تقديم القروض. لكن الهدف من هذا الفصل ليس محاولة تقديم تحليل تاريخي شامل للتغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر في الطفولة (انظر وول Wall ١٩٧٥ و White and Levine وهوايت وليفين ١٩٨٦)؛ بل، بالأحرى، الإيحاء إلى القارئ بأن نماذج وأساليب تنمية الطفولة المبكرة تتطلب قسطاً كبيراً من التعديل في مواجهة التغييرات الكبيرة التي

الوعي بحقوق وحاجات الأطفال زيادة كبيرة عبر السنوات العشر الماضية (سمايك ١٩٨٩، ص ٥٣). وانعكس ذلك الوعي في اتفاقية حقوق الطفل التي أقرتها الأمم المتحدة بعد ذلك بعشر سنوات.

فماذا عن التغييرات في السياسات والبرامج منذ عام ١٩٧٩؟

على المستوى العام، فإن من الواضح أن زيادة الوعي ساعدت في وضع قوانين وسياسات وطنية جديدة. وقد تحقق تقدم جلي في مستوى البرمجة الهادفة إلى تحسين بقاء الأطفال، كما تحققت نجاحات أقل تواضعاً فيما يتعلق برعاية وتنمية الطفولة. وتواصل منظمات مختلفة تم تكوينها في أثناء العام الدولي للطفل نشاطاتها المثمرة والفعالة. ولا شك أن تقديم إجابة أكثر تفصيلاً بالنسبة لنتائج العام الدولي للطفل مسألة صعبة لعدم وجود آلية منهجية لمتابعة معظم الجهود التي بدأت عام ١٩٧٩. والأمر كذلك - خاصة - فيما يتصل بالمشروعات والبرامج التي بدأت من وجهة نظر تنمية الطفل، بالمقابلة مع تلك التي بدأت آخذة بعين الاعتبار مسألة بقائه. (يشرح المؤلف ذلك في الفصل التالي من الكتاب).

وفي الوقت ذاته، فإن من الواضح أنه بالرغم من أن العام الدولي للطفل ولّد مستوى عالياً من الحماس والنشاط، فإن الكثير من قوة الدفع التي تحققت في عام ١٩٧٩ فيما يتعلق ببرمجة رعاية وتنمية الطفولة، كان مصيره الضياع. فالحكومات الوطنية والمنظمات الدولية لم

حدثت، وفي ضوء ثنائية العوالم التي يعيش فيها الكثيرون من الأطفال «عرضة للمخاطر». وهناك هدف آخر هو الإشارة إلى التحدي الخاص بدعم التراث الثقافي، والقيم في أثناء تنفيذ هذه التعديلات.

لنلتفت، إذن، إلى الماضي القريب لنرى كيف يتم التوافق. فمع إعلان عام ١٩٧٩ عاماً دولياً للطفل، توافرت إمكانية لتفكير جديد ومبادرات جديدة من أجل رعاية وتنمية الطفولة. فماذا كانت النتيجة؟

العام الدولي للطفل:

هل كان نقطة تحول؟

لا ريب أن العام الدولي للطفل أثار حماساً واهتماماً جديدين تجاه الطفل. فقد شرع في تنفيذ أنشطة وصفية وتحليلية عديدة، على المستوى الوطني، الهدف منها تحديد الحاجات، وخلق الوعي، وتعبئة الناس حول فكرة الاهتمام بالطفل «ككل». وبدأ العمل في حشد من المشروعات التجريبية، أو الإيضاحية كانت بمثابة بداية مهمة نحو البرامج «غير الرسمية» الموضوع في سياق تنمية المجتمع. كما بدأ تنفيذ برامج تربوية للآباء والأمهات، وبرامج أخرى موجهة إلى رعاية الأطفال الصغار عن طريق إخوتهم وشقيقاتهم الأكبر سناً. وفي الوقت ذاته بذلت جهود ملموسة لتطوير المزيد من رياض الأطفال، ومدارس الحضانة الرسمية.

ماذا كان حصاد العام الدولي للطفل؟ إن نظرة تأمل للوراء خلصت إلى أنه ازداد

الصدر، التحصين، إلى جانب ملحقات الطعام، الخير الأسري والتربية النسوية، كموضوعات مصاحبة). وعلى أي حال، فإنه مع تطور الحملة، جرى التأكيد بصورة أكبر على التحصين، وإعادة التمييز الفمي، باعتبارهما محركي المبادرة. ولم تحظ العناصر الأخرى باهتمام أكبر إلا في الوقت الحالي، وفي إطار التأكيد أيضاً على البقاء والنمو. وقد تعاونت منظمات دولية وثنائية أخرى في حملة البقاء الدولية هذه، وتجاوبت الحكومات معها، إدراكاً منها لاستمرار ارتفاع معدل الوفيات بين الأطفال لديها، وشعوراً بالمنخا الدولي الذي يدعم تخفيض هذه المعدلات.

وفي الوقت ذاته، لم تترك المشكلات الاقتصادية المتفاقمة في معظم بلدان العالم الثالث خلال الثمانينيات فسحة للتوسع في أي نوع من البرامج. وعموماً، فقد أضرت التعديلات الاقتصادية التي باتت ضرورية بالقطاعات الاجتماعية في ميداني الصحة والتربية. ومع الاهتمام الذي حظيت به البرامج الصحية الموجهة لتحسين البقاء، فإن الدعم الواسع النطاق للبرامج التي تؤكد، أو ربما تشمل، الاهتمام بالتنمية السيكولوجية في سنوات الطفولة المبكرة، لم يتبلور كما كان ينبغي أن يحدث لو تمت متابعة توصيات ومبادرات العام الدولي للطفل.

لقد تحقق نمو، برغم هذه المعوقات، في برامج رعاية الطفولة، وفي القطاع قبل المدرسي في بلدان معينة. وليس من

تقم غالباً بمتابعة المبادرات الجديدة بتمويل خاص. كان هناك الكثير من التحرك إلا أنه لم يتم القيام بحملة منظمة ومستمرة لتوسيع مجالات تنمية الطفولة. وعلى المستوى الدولي، لم يكسب الأطفال «عقداً» من الزمن كما هي الحال بالنسبة للمرأة والمياه. كما لم يعهد إلى أي مؤسسة محددة من مؤسسات الأمم المتحدة بمسؤولية المتابعة، ولم تضطلع أي من هذه المؤسسات بتلك المهمة. وفي غيبة القيادة المطلوبة والاستمرارية، فإن الأنشطة الإعلامية المؤيدة، والمبادرات الرائدة المتصلة بتنمية الطفولة، سرعان ما ابتلعها تيار دولي قوي تركّز جل همه على الرعاية الصحية الأولية. وكانت تلك الحركة قد بدأت تكتسب قوتها في عام ١٩٧٨ خلال مؤتمر «آما - آتا»، عند بحث مسألة «الصحة للجميع».

ومع بداية الثمانينيات، أعادت الأوساط الدولية اهتماماً متزايداً للرعاية الصحية الأولية، وبقاء الرضع والأطفال، في الوقت الذي بدأ فيه تنفيذ توصيات مؤتمر آما - آتا. وبدأ صندوق رعاية الطفولة التابع للأمم المتحدة - اليونيسيف - مع منظمة الصحة العالمية، ثورة بقاء وتنمية الطفل (CSDR)، التي وإن اشتملت على «التنمية» في عنوانها، فإنها ركزت بشكل ضيق على البقاء. لقد تم حصر مبادرة الـ CSDR أولاً في كلمة

Gobi-FFF المركبة من أوائل حروف الكلمات (مراقبة النمو، إعادة التمييز الفمي Oral Rehydration، الرضاعة من

أساس البراهين التي يمكننا عرضها، يبدو أن :

١ — التغطية فيما يتعلق بالبرامج المحددة، والمنظمة، في غالبية البلدان لا تزال منخفضة نسبياً. ويصح ذلك خاصة على البلدان الواقعة جنوبي الصحراء.

٢ — هناك مشروعات وبرامج كثيرة تواصل دورها كأشطة تجريبية أو إيضاحية، وهي ذات سمة تجديدية، ومؤثرة، ومن المفيد تكرارها، إلا أنه لم يتم توسيع نطاقها بطريقة ذات مغزى.

٣ — توزيع البرامج، ولا سيما البرامج المعتمدة على مؤسسات، لا يزال محابياً للمدن عادة، في أثناء تطوير هذه البرامج.

٤ — الوصول إلى الأطفال الذين لم يبلغوا السنة الثالثة من العمر وبخاصة من هم بين سن سنة واحدة وثلاث سنوات، لا يزال يمثل تحدياً. وما انفكت الرعاية اليومية التي تأخذ في اعتبارها حاجات الأطفال والأمهات العاملات معاً ذات مستوى منخفض، سواء في الاتساع أو النوعية.

٥ — برامج مساعدة وتعليم الآباء والأمهات نمت بصورة ضخمة في بعض البلدان، إلا أنها تكاد تكون غائبة في بلدان أخرى، وبخاصة فيما يتصل بالعناصر السيكولوجية للتنمية المبكرة. وهناك اتجاه في هذه البرامج يفضل فرض المعرفة على إعادة البناء والتوسع.

٦ — العديد من البرامج «التطوعية»

الواضح ما إذا كان العام الدولي للطفل قد بث في الأفراد الذين كرسوا سلفاً أنفسهم للعمل في هذا المجال مزيداً من العزم للمضي قدماً في مواجهة الكثير من الاحتمالات، أو ما إذا كان توسع الجهود قد تحقق بصورة منفصلة عن العام الدولي للطفل كرد على الضغوط المحلية. لكن الموقف في عام ١٩٨٩ كان أفضل كثيراً منه في عام ١٩٧٩. ولما كانت تنمية الطفل عملية تفاعلية ومتعددة الأبعاد، فإن برامج بقاء الطفل كان لها تأثير على تنمية الطفل كذلك.

لكن.. إلى أين وصلنا؟

رعاية وتنمية الطفولة

في ١٩٨٩ : بانوراما

إن الصورة العامة التي نخرج بها من أي محاولة لوصف برامج رعاية وتنمية الطفولة المبكرة في عام ١٩٨٩، صورة غائمة نوعاً ما، وتحتوي على تناقضات واضحة. فمن ناحية، يبدو أن خطوات ضخمة، قد قطعت في العشرين سنة الأخيرة، وبالتحديد في السنوات الخمس أو العشر الماضية. وكما يظهر من الإحصاءات التي سنقدمها في مكان لاحق من هذا الفصل ومن «حالة الممارسة» في الفصلين الخامس والسادس، فإن بعض البلدان حققت خطوات مثيرة، وهناك أمثلة لا تعد لبرامج تجديدية، وأحياناً واسعة الانتشار. لكن هناك انطباعاً عاماً آخر يتضح لنا أيضاً — وهو أن الوضع بعيد لا يزال عن أن يكون كافياً. وعلى

اجتاز الآن نقطة الحماس، ودب الوهن في الروح التطوعية التي اتسمت بأهمية حاسمة في دفع هذه البرامج نحو الانطلاق. ومن ناحية أخرى فإن هذه البرامج لم يعترف بها باعتبارها مطالبات بوضعها مطالبات جديدة من قبل الخزينة العامة؛ وهي تتعرض لخطر التلاشي.

٧ - نوعية البرامج، غالباً، ما تكون هزيلة، ولذلك فإن تأثيرها على الأطفال هو محدود للغاية. ويظل تجمع العناصر في برامج الرعاية المتكاملة للطفل بمثابة تحد لنا، رغم بعض أوجه النجاح وزيادة الوعي.

إن هذه النقاط قد تساعد في شرح نتيجة مفادها أن المجال ينمو بصورة مهمة، إلا أنه ما زال هشاً للغاية، ويحتاج إلى اهتمام أكثر، من أجل الحفاظ على المكاسب وملء الثغرات الكبيرة على السواء.

أهي مهمة مستحيلة؟

من المستحيل، حالياً، تقديم وصف تفصيلي شامل لرعاية وتنمية الطفولة في العالم الثالث. وهناك على الأقل سببان رئيسيان لذلك. الأول، أن جانباً كبيراً من رعاية الطفولة يتم بطريقة غير رسمية إلى حد أنه لا يندرج في أي فئة إحصائية. ولا يغيب هذا الجانب عن اهتمام المنظمات الوطنية والدولية المعنية برعاية وتنمية الطفولة فقط، وإنما يخفق أيضاً في الظهور كنشاط إنتاجي في الأجهزة الوطنية للمحاسبة الاقتصادية.

وحتى بين البرامج الأكثر تنظيماً، فإن التنوع كبير إلى درجة لا تستطيع معه مجموعة واحدة من الإحصاءات أداء عمل صائب. فمن أجل تغطية هذا المجال بصورة مضبوطة، لا ينبغي أن يورد المرء معلومات عن عدد المراكز العاملة فحسب، بل وعن الزيارات المنزلية، وبرامج تربية الآباء والأمهات، وبرامج رعاية الطفولة المرتبطة بمشروعات إيجاد الدخل للنساء، وبرامج الرعاية والتنمية في إطار الجهود الاجتماعية الأوسع، وبرامج العجز التي تشمل صغار الأطفال. وعلاوة على ذلك، فإنه إذا تبنى المرء وجهة نظر شمولية حقيقية تجاه التنمية، فينبغي أن تدرج برامج الصحة والتغذية، والتعليم المبكر، والرعاية بأسرها في الحساب. وسوف تغدو المهمة شديدة الوطأة حين يفكر المرء في أن المنظمات المختلفة، العامة والخاصة، العاملة على مستوى الجماعة، والمنطقة، والبلد بكامله مسؤولة عن برامج تؤكد جوانب التنمية المختلفة.

لنكن أكثر تواضعاً في تحديد مهمتنا، بحيث نركز على البرامج المنظمة في رعاية وتنمية الطفولة، ونترك جانباً برامج الصحة والتغذية أحادية الاهتمام (حتى لو كان لهذه البرامج تأثير لاحق على التنمية). إننا سنركز على البرامج التي تصنف باعتبارها برامج رعاية الطفولة، وتنمية الطفولة، وبرامج ما قبل المدرسة الابتدائية، أو تلك التي تشمل جانباً واحداً منها كعنصر رئيسي. ويعكس ذلك رغبتنا في إبراز البعد النفسي الاجتماعي لتنمية

الطفل. وحتى بعد ذلك، تبقى المهمة معقدة، إذ يندر أن يجد المرء معلومات عن البرامج المختلفة معاً، وفي مكان واحد.

ويوضح مثال من ساو باولو، بالبرازيل، تعقد وصف برامج الطفولة المبكرة. فقد وجد كامبوس وروزميرج (١٩٨٨)، في دراستهما الشاملة، أن في منطقة ساو باولو الحضرية الكبرى، أربعة برامج رئيسية تديرها وكالات اتحادية (وطنية)، وستة تديرها وكالات حكومية، وثلاثة تديرها وكالات تابعة للبلديات. وتعمل كل من هذه الثلاث عشرة منظمة عامة بشكل مختلف إلى حد ما. وكان أبرز الأشكال الرئيسية المختلفة يتمثل في «دار الحضانة الكاملة» التي تعنى بالأطفال منذ المولد وحتى سن ست سنوات، و«المدرسة الكاملة لأطفال ما قبل سن الدراسة الابتدائية» (من سن سنتين حتى سن ست سنوات)، وفصول ما قبل المدرسة الابتدائية (لأطفال سن خمس وست سنوات)، والمدرسة الطارئة لمن هم دون سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية (وهي أشكال أقل التزاماً بالرسميات من المدرسة الكاملة، وهي أيضاً للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سنتين وست سنوات)، ودور حضانة طارئة (منذ مولد الطفل حتى سن ست سنوات). إن معظم المجموعات الإحصائية لم تتضمن هذه البرامج الطارئة كما يطلق عليها. وفضلاً عن النماذج السالفة الذكر كانت هناك أيضاً «متنزهات أطفال» (وهي نموذج ظل باقياً منذ الثلاثينيات، ويعنى

بالأطفال من سن ثلاث سنوات إلى سن الثانية عشرة)، ومراكز رعاية الطفولة لدى المؤسسات الخاصة (وتعنى بالأطفال منذ مولدهم حتى سن ست سنوات). ويضاف إلى ذلك مجموعة كبيرة من البرامج الخاصة التي تشكل حوالي ثمانية وثلاثين بالمائة من التغطية الكاملة.

مثال آخر: كان العام الدولي للطفل في الهند حافزاً لتحقيق مشروع هائل قامت به وزارة الخدمات الاجتماعية، لتقديم صورة إحصائية عن «الطفل في الهند». وأخيراً تم في عام ١٩٨٥ طبع تقرير يضم ألفاً وخمسمائة صفحة، ويحوي معلومات شاملة عن برامج التغذية، بما في ذلك رضاعة الأطفال، و«خدمات رعاية الطفولة»، و«رعاية المعوقين من بداية العمر حتى سن ست سنوات». وتضمنت الخدمات الاجتماعية المشروعات المركزية التي ترعاها الدولة من خلال الهيئة الموحدة لتنمية الطفولة، ودور إيواء مركزية حكومية للأطفال المعوزين، ومشروعات مركزية حكومية لتعزيز الرعاية، ودور حضانة تدار من قبل الحكومة المركزية، وحكومات الولايات والبلديات، ووكالات القطاع الخاص، وخدمات تقدمها منظمات فريدة في نوعها مثل هيئة الشاي، والبن وغيرها من الهيئات. وفي الوقت الذي نشر فيه التقرير كانت خلاصته الوافية قد تجاوزها الزمن في بعض الجوانب الأساسية. كانت الهيئة الموحدة لتنمية الطفولة ICDS قد نمت بسرعة خلال الفترة من ١٩٨٠ وحتى

١٩٨٥. وتحققت عدة تحسينات في الوضع الصحي والغذائي للطفل الهندي في تلك الفترة. وعلى أي حال، فقد أتاح هذا النشاط إطاراً ممتازاً للمراقبة المستمرة للبرامج الرامية إلى تحسين أوضاع الطفل الهندي.

إحصاءات وانطباعات

بالرغم من عدم وجود مصدر يمكن الحصول منه على صورة كاملة، فإن ثمة مصادر عدة يستطيع المرء أن يتوقع أن يحصل منها على فكرة عامة عن الوضع الحالي لبرمجة رعاية وتنمية الطفولة المبكرة. إننا سنقوم بفحص أرقام وردت في وثائق منظمتي اليونسكو واليونيسيف، وهما أكبر وكالتين متخصصتين في تنمية الطفولة بين وكالات الأمم المتحدة.

اليونسكو

إحصاءات تربوية : وردت في مطبوعة اليونسكو الدورية للإحصاءات التربوية معلومات عن (التربية التي تسبق المستوى الأول). تشمل طبعة ١٩٨٨ «جدول ٣،٣» أرقام المسجلين لغالبية البلدان، وهي أرقام تغطي الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٥ (أو ١٩٨٦ في بعض الحالات). وتشير معطيات اليونسكو إلى «رياض الأطفال والحضانة والرضع» الملحق بالمدارس الأعلى مستوى. وقد استبعدت مراكز الحضانة المخصصة للعب الأطفال، إلخ حيثما

أمكن. ورغم أن أرقام اليونسكو تغطي أنواعاً متنوعة من البرامج، إلا أنها لا تقدم لنا دائماً البرامج غير الرسمية بحيث إن غالبية الأرقام الواردة تشير إلى البرامج المنظمة الخاصة بالأطفال من سن ثلاث إلى ست سنوات. وتبعاً لذلك، فإن أرقام اليونسكو تزودنا بالحد الأدنى، أو بأقل فكرة عن تغطية برامج الطفولة المبكرة.

ونتيجة لأن البرامج السوارة في إحصاءات اليونسكو تتنوع كثيراً من بلد إلى آخر (فمثلاً، كتابات تحفيظ القرآن الكريم في المغرب، مدارس المجتمع المحلي في كينيا، مدارس الصفوة للأطفال قبل الدراسة الابتدائية النظامية في النيجر)، فإن من المستحيل فهم معنى المقارنات بين البلدان. وعلى أي حال، فمن الممكن النظر إلى نمو هذا الجزء من برمجة الطفولة المبكرة داخل كل بلد على مدى السنوات الخمس أو الست التي أعقبت العام الدولي للطفل. ويقدم لنا تحليل المعطيات من هذا المنظور مايلي:

- مع استثناءات قليلة، فإن التغطية قد ازدادت خلال هذه الفترة، برغم الظروف الاقتصادية الصعبة. وكانت البلدان التي لم تشهد نمواً هي أنجولا، وموزمبيق، وإيران ولبنان وهي بلدان مزقتها الحروب. وهناك بلد آخر ذكرت التقارير أن التغطية فيه كانت أقل بعض الشيء هو كوبا. أما الدول النامية الأخرى (وهي قرابة مائة بلد أخرى شملتها المعطيات) فقد أظهرت بعض التوسع على الأقل.

١٠٣٣,٥١٣ طفلاً في ١٩٨٤. (ومن الواضح من هذه الإحصائية أن الأطفال المشاركين في المدارس غير النظامية التي تسبق المرحلة الابتدائية التابعة للهيئة الموحدة لتنمية الطفولة غير مدرجين في الإحصاءات الخاصة بالهند، وقد قدرت التغطية في المراكز التي تسبق سن الدراسة الابتدائية في ذلك البرنامج بحوالي ثلاثة ملايين طفل في عام ١٩٨٥: اليونيسيف ١٩٨٨).

وزاد التسجيل في أندونيسيا من ١,٠٠٥,٢٢٦ طفلاً في ١٩٨٠ إلى ١,٢٥٨,٤٨٦ طفلاً في ١٩٨٥. البرازيل: انظر أعلاه.

ولم تقدم معطيات عن بنجلاديش، وباكستان، ونيجيريا.

وتقدم إحصاءات اليونسكو أيضاً أحد الأرقام عن النسبة المئوية للأطفال المسجلين من البنات. وتبلغ هذه النسبة في التعليم الذي يسبق المستوى الأول في جميع البلدان خمسة وأربعين بالمائة أو أكثر، فيما عدا ثلاثة بلدان هي المغرب، وعمان، ونيبال. ويشير ذلك إلى احتمال حدوث تأثير متساوٍ بالنسبة لبرامج التعليم المبكر.

ويصعب بدون معرفة حجم فئة العمر المماثلة الحصول على فكرة جيدة بشأن ما تعنيه الأعداد المتضمنة في وثيقة اليونسكو. ولدى مقارنة فئات السكان، فإن جمهورية الدومينكان، مثلاً، التي يبلغ عدد سكانها ٦,٤ مليون نسمة،

- كان التوسع في بعض الحالات، لافتاً للنظر بصورة كبيرة، إلا أن ذلك تحقق بالإشارة إلى قاعدة صغيرة جداً. فمثلاً:

- في بوركينا فاسو حدثت زيادة بخمسة أضعاف (ولكن ارتفع عدد إجمالي المسجلين من ٧٣٢ طفلاً فقط في ١٩٨٠ إلى ٣٧٥١ طفلاً في ١٩٨٦).

- في عُمان حدثت زيادة بستة أضعاف (من ٣٩٦ طفلاً إلى ٢٥٤٢ طفلاً).

- وفي جمهورية الدومينكان كانت الزيادة أعلى منذ ذلك بقليل، فقد بلغت خمسة أضعاف (من ٢٧٢٧٨ طفلاً إلى ١٢٥٧٨٠ طفلاً).

- في بعض البلدان ذات الأعداد الكبيرة نسبياً من الأطفال المشاركين كانت الزيادة مع ذلك سريعة: البرازيل أفادت في تقريرها بمضاعفة التغطية، من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٦ (من ١,٣٣٥,٠٠٠ طفل إلى ٢,٦٩٩,٠٠٠ طفل).

- تايلاند قفزت تقريباً ثلاثة أضعاف (من ٣٦٧٣١٣ طفلاً إلى ١,٠٠٩,١٣١ طفلاً في الفترة ذاتها).

- ومن بين البلدان الكبرى:

الصين سجلت زيادة تقترب من ١١,٥٠٧,٠٠٠ طفل في عام ١٩٨٠ إلى ١٦,٢٨٩,٨٠٠ طفل في ١٩٨٦ (ولا تزال هذه التغطية متدنية نسبياً).

الهند، أفادت بزيادة في المشاركة من ٩١٨٢٣٨ طفلاً في عام ١٩٨٠ إلى

وأعداد المسجلين من الأطفال في التعليم الذي يسبق المرحلة الابتدائية ١٢٦ ألف طفل، تظهر في صورة أفضل قليلاً من الصين التي يبلغ عدد المسجلين لديها أكثر من ستة عشر مليون طفل بينما يبلغ عدد السكان ١,٢ بليون نسمة.

أعداد المسجلين بالتعليم قبل المدرسي في أميركا اللاتينية

يمكن الحصول على فكرة أفضل عن التغطية، بالقياس إلى عدد الأطفال تحت سن ست سنوات من الإحصاءات التي جمعها مكتب اليونسكو الإقليمي لأميركا اللاتينية (كالفو ١٩٨٨). ويبين الجدول ٢,١ في هذا الفصل «نسبة التسجيل» لعامي ١٩٨١ و ١٩٨٥، في بلدان معينة. وتشير الإحصاءات إلى :

- أن نسبة مئوية عالية نسبياً من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين أربع وست سنوات تدخل ضمن أشكال غير محددة من التعليم قبل المدرسي.

- إن نسبة مئوية منخفضة نسبياً من الأطفال تحت سن أربع سنوات مسجلة في برامج التعليم قبل المدرسي.

- حدوث ميل عام للتوسع، من واقع النسب المئوية، خلال فترة السنوات الأربع (لاحظ أن كوبا في هذه الإحصاءات، تظهر نمواً، بينما أظهرت انخفاضاً طفيفاً في المجموعة التي سبق ذكرها).

وفيما يتعلق بمنطقة أميركا اللاتينية

ككل، قدرت اليونسكو أن «التعليم الأولي» (قبل المرحلة الأولى للأطفال منذ ميلادهم إلى سن خمس سنوات)، زادت تغطيته من ٧,٩ بالمائة في عام ١٩٨٠ إلى ١٥ بالمائة في ١٩٨٦ - بمعدل نمو يبلغ ١٩ بالمائة سنوياً خلال تلك الفترة (تيدسكو ١٩٨٩، ص ١١).

مسح دولي.. قامت اليونسكو في عام ١٩٨٨ بإجراء مسح خاص لرعاية الطفولة المبكرة والتربية في الدول الأعضاء (فيشر ١٩٩٠). وقد طلب إلى الذين أرسل إليهم الاستبيان أن يضمنوا إجاباتهم كلاً من البرامج الرسمية وغير الرسمية لرعاية الطفولة المبكرة والتربية (وليس فقط التعليم الرسمي قبل المدرسي). لكن نسبة الإجابة على الاستبيان كانت ٥٤ بالمائة فقط، ولم يرد عدد من أكبر دول العالم ازدهاماً بالسكان (ومنها البرازيل، وباكستان وبنجلاديش ونيجيريا). وعلاوة على ذلك، جاءت النتائج واضحة التحيز بفعل إجابات من الدول الصناعية والدول العربية. ويضاف إلى ذلك أن مستوى التفاصيل الخاصة بالإجابات كان مختلفاً بصورة هائلة، على غرار أنواع البرامج المتضمنة. ورغم أن المسح يقدم بعض التوصيفات الوطنية الهامة، فإن من الصعب محاولة استخدام العطايات لرسم صورة عامة لرعاية الطفولة المبكرة والتربية.

ويؤكد المسح الدولي النمو العام، وأحياناً الكثير، لمؤسسات رعاية الطفولة المبكرة، والتربية، ولأعداد الأطفال

آسيا

- تشمل التغطية في الصين، التي يبلغ عدد أطفال التعليم قبل المدرسي فيها ١٦,٣ مليون طفل، أربعة وعشرين بالمائة من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث وست سنوات. وخلال فترة ثلاث سنوات من ١٩٨٦ - ١٩٨٨، توسع أحد برامج تربية الآباء والأمهات من الصفر تقريباً إلى ١٣٠ ألف مدرسة.

- تشمل التغطية في سري لانكا خمسة عشر بالمائة من الأطفال منذ مولدهم، وحتى سن خمس سنوات، ضمن عدة برامج متنوعة لرعاية وتنمية الطفولة المبكرة.

— مع نهاية عام ١٩٨٨، كانت التقديرات تشير إلى أن التغطية في الفلبين ستشمل أربعة وعشرين المائة من الأطفال في سن التعليم قبل المدرسي، والذين يبلغ عددهم ١١,٥ مليون طفل (منذ مولدهم وحتى سن خمس سنوات).

- يوجد في مراكز الرعاية الرسمية النهارية في فيتنام ثلاثون بالمائة من جملة الأطفال منذ المولد وحتى سن ثلاث سنوات، وخمسة وثلاثون بالمائة من مجموع الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث وست سنوات.

- يتم في الهند تغطية خمسة وثلاثين بالمائة من مجموعات التنمية التي يبلغ عددها ٥١٤٤ عن طريق الهيئة الموحدة لتنمية الطفولة.

— يندرج أربعة بالمائة من مجموع

المسجلين في الفترة من ١٩٨٠ - ١٩٨٨. كما يؤكد التغطية المنخفضة نسبياً في غالبية بلدان العالم الثالث، والتحيز الحضري في عدد كبير من الأماكن. فضلاً عن ذلك، يشير المسح إلى أن أكثر من نصف البرامج المنوه عنها كانت برامج ذات رسوم.

اليونيسيف

يتمثل أحد مصادر المعلومات التي يمكن للمرء أن يتوقع الحصول منها على صورة عامة لوضع برمجة رعاية وتنمية الطفولة المبكرة في التقارير السنوية الصادرة عن اليونيسيف، وفي تحليلات الموقف التي تغطي وضع النساء والأطفال في العديد من البلدان التي يعمل فيها اليونيسيف.

وبهدف استكشاف إمكانات هذا المصدر، فقد تمت مراجعة جميع التقارير السنوية لليونيسيف عن عام ١٩٨٨، وكذلك ٤٦ تحليلاً للموقف صدرت بين عامي ١٩٨٦ و ١٩٨٨. وكانت النتيجة الأولى، والأساسية، لتلك المراجعة هي أن الإحصاءات متقطعة ولم تعرض بطريقة منهجية. والواقع، أنه ليس من المفروض على المسؤولين الميدانيين لليونيسيف تقديم معلومات عن برامج رعاية وتنمية الطفولة. ولذلك، فإن حصيلة المراجعة كانت شذرات شائقة من هنا وهناك، تساعد في تكوين انطباع، إلا أنه لا يمكن جمعها في كل متماسك. وعلى سبيل المثال، فقد تم جمع النقاط التالية الخاصة بآسيا وأفريقيا من التقارير.

وجود معلومات عن برامج التربية للآباء والأمهات واليا فعين. وفي بعض الأحيان كان يرد وصف لأحد برامج تنمية المجتمع أو لبرنامج تكاملي للبقاء والتنمية متضمناً أحد مكونات رعاية وتنمية الطفولة.

وقد ورد ذكر برامج تدريبية يشترك فيها اليونيسيف، إلا أنه لم تكن هناك نبذة عامة. كما أثير اهتمام للجهود التي تدعم هذه النشاطات، لكن ذلك اقتصر على المرات القليلة جداً التي كان فيها عنصر تنمية الطفولة في مثل تلك البرامج محور بحث على وجه التحديد.

بعض الاستنتاجات العامة

١ - تدعم مراجعة وثائق اليونسكو واليونيسيف الرأي القائل بأن المجال قد اتسع بصورة كبيرة منذ ١٩٧٩، ومن الممكن أن تكون الأرقام قد جرى التقليل من أهميتها.

٢ - ترسم الإحصاءات أيضاً صورة نابضة بالحياة للنمو المتفاوت. ولا يدهشنا أنها تثبت أن بلدان أميركا اللاتينية والبلدان الآسيوية حققت تقدماً كبيراً من حيث البرامج المنظمة أكثر مما حققت البلدان الأفريقية.

٣ - ثمة استنتاج آخر نخلص إليه من مراجعة المعلومات المتاحة مفاده أنه ليس من المهم أن يكون بلد ما غنياً، أو يتمتع باقتصاد عريض حتى يعير رعاية وتنمية الطفولة المبكرة أولوية كافية، ويتكفل بتنفيذ برنامج واسع أو مجموعة من

الأطفال في لاوس ممن تتراوح أعمارهم بين أربع وست سنوات ضمن برامج مراكز الطفولة المبكرة.

أفريقيا

- تغطي البرامج في كينيا ١١ بالمائة من مجموع أطفال البلاد ممن تتراوح أعمارهم بين ثلاث وخمس سنوات.

(ويبدو أن ذلك تقليل من الحقيقة، إذ إن هناك مصدراً آخر يبين أن التغطية شملت أكثر من عشرين بالمائة عام ١٩٨٧ Riak et al (١٩٨٩).

- لم يكن هناك سوى واحد بالمائة فقط من أطفال بنين، الذين هم في سن التعليم قبل المدرسي، ضمن أي نوع من البرامج المنظمة النهارية لرعاية وتنمية الطفولة.

- تغطي بتسوانا ٢,٦ بالمائة من مجموع أطفالها الذين تتراوح أعمارهم من سنتين ونصف السنة إلى ست سنوات في مرحلة التعليم قبل المدرسي.

وتكشف تقارير اليونيسيف عن معلومات أخاذه فيما يتعلق ببرامج معينة يشارك فيها الصندوق. غير أن هذه التقارير نادراً ما تضمنت نوع المعلومات التي تتيح للمرء وصف الصورة الأكبر للبرنامج في بلد واحد بطريقة منهجية. ولم يتيسر الخروج بفكرة واضحة عن قدرة مختلف الأطراف الفاعلة - الحكومة، المنظمات غير الحكومية، والمنظمات الدولية - في المساعدة على تنظيم مبادرات الرعاية والتنمية. كما كان من النادر

وتخدم فئات مختلفة من العمر، وتقوم على تنفيذها منظمات حكومية وغير حكومية متنوعة. وينبغي أن يشمل الحصر البرامج غير الحكومية، مثل برامج الرعاية النهارية المنزلية، أو برامج التربية التي تجمع بين الوالدين والتي تعمل على أساس تطوعي أو شبه تطوعي، حيث يمارس القائمون بالرعاية عملهم بعيداً عن أي نظام بيروقراطي. وينبغي أن تنشأ مجموعة التصنيفات الخاصة بكل بلد محلياً حتى تعكس الوجه التنظيمي لذلك البلد. وتقدم النماذج التي سبق عرضها عن ساو باولو، بالبرازيل، وعن الهند أمثلة للأسلوب الذي يمكن العمل به.

إن ثمة حاجة أيضاً لفكرة أكثر تنظيماً عن من هم الفاعلون الرئيسيون في هذا المجال. فمن السهل أن تمر البرامج التي تضطلع بها المنظمات غير الحكومية دونما تسجيل، رغم أن العمل الذي تقوم به جماعات كنسية وغيرها من المنظمات غير الحكومية قد يكون ذا أهمية بالغة في محيط معين.

ولربما تكون أكثر الطرائق دقة واكتمالاً في وصف رعاية وتنمية الطفولة في بلد معين تلك الطريقة التي تتحقق من خلال مسح العينة المنزلية، وليس من خلال مؤسسات استطلاع الرأي. وهناك بلدان عديدة يمكنها القيام بذلك بالفعل، بما لديها من أطر لأخذ العينات وقدرة بحثية جاهزة على المسح الجدي. لقد جرى اختبار فائدة هذا الأسلوب في دراسة متعددة البلدان تتم حالياً،

البرامج. وتعد الهند وكينيا مثالين جيدين بخاصة للبلدان ذات الدخل الفردي السنوي المنخفض نسبياً بينما توجد لديها برامج مكثفة للغاية لرعاية الأطفال قبل سن المدرسة. وفي أميركا اللاتينية، عموماً، حدث انخفاض جذري في مستوى المعيشة خلال الثمانينيات، لكن «التعليم الأولي» في المنطقة توسع بسرعة. أما في المكسيك، حيث تشكل مشكلة الديون العالمية إحدى أخطر المشكلات في العالم، فقد ازدادت التغطية لسنوات ما قبل المدرسة الابتدائية بنسبة تسعة بالمائة سنوياً خلال الفترة من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٨.

وراء التخمينات

لقد خلصنا، من خلال المراجعة، إلى عدة استنتاجات عامة جداً. أما ما يتعلق بالجزء الأكبر، فإن التفسيرات ينبغي تحاشيها استناداً إلى النقص في اتساق المعلومات. ويكشف التحليل عن حاجة واضحة لإيجاد نهج أكثر تنظيماً لمتابعة تقدم برامج رعاية وتنمية الطفولة المبكرة. كما أن هناك حاجة إلى طريقة تساعد في تسجيل تغطية لضروب المبادرات المختلفة ونوعيتها، والتي تعد كافية، حين تؤخذ معاً، لإعطاء وصف عن الجهود المبذولة لتقديم الرعاية المنظمة وتعزيز التنمية المبكرة.

وكخطوة أولية بسيطة، ينبغي وضع مجموعة عامة من التصنيفات التي تغطي مدى برامج رعاية الطفولة المبكرة،

وينظمها الاتحاد الدولي لدراسة
التحصيل المدرسي (انظر أولمستد
١٩٨٩).

وحالما يتم تنظيم وصف عام لأشكال
البرامج والتغطية والأطراف الفاعلة، يمكن
البدء بالنظر إلى نوعية البرامج بطريقة
أكثر منهجية. ومرة أخرى، قد يتطلب
الأمر قاعدة لأخذ العينات، بحيث تكون،
هذه المرة، من المؤسسات. إن المدخلات
المؤسسية ومعايير محتوى البرنامج،
المحددة محلياً، يمكن مراقبتها. (طرح
في المسح الذي أجرته اليونسكو أسئلة
حول طاقم العاملين، والأخصائيين،
وتدريب المدرسين، وأهداف رعاية وتنمية
الطفولة المبكرة، ومضمون فصول رعاية
وتنمية الطفولة المبكرة، وكذلك عن
التجهيزات والمباني. وعلى كل، فقد كان
ذلك على مستوى عام ولم يمثل المسح
بالضرورة ما كان يحدث فعلاً في
مؤسسات الطفولة المبكرة).

ويبدو الاهتمام بالنوعية ذا أهمية
خاصة عند بحث كيفية توصيل القيم في
عملية التنشئة الاجتماعية الأولى. فإذا
كان يتعين على المرء أن يخمن، جاز له
القول إن برامج الطفولة المبكرة غالباً ما
تأخذ إشارة البدء من النماذج المستوردة
التي تعزز تحولات القيم الفردية، الغربية
ذات التوجه الإنتاجي. فهل ذلك هو ما
نريد الوصول إليه؟

وبعد هذه التوصيفات التنظيمية

والبرامجية، التي تعنى أساساً بالمدخلات
والتغطية، ثمة حاجة أيضاً لمقاييس
خاصة بالأثر الذي يحدثه البرنامج. ففي
مجالات أخرى لا يمكن إعطاء بانوراما عن
المؤسسات والبرامج فحسب، بل وعن
مراقبة التقدم الحاصل في المجال من
خلال مؤشر ما مثل تقليل معدل وفيات
الأطفال، أو سوء التغذية من الدرجة
الثالثة. ولم يتوصل مجال تنمية الطفل
بعد إلى اتفاق حول مقياس بصدد «أين
نحن؟». وهي مسألة يعالجها المؤلف في
مكان لاحق من الكتاب، داعياً إلى إيجاد
«صورة عن استعداد الطفل - Child Readiness Profile».

ويختتم روبرت مايرز هذا الفصل من
مؤلفه قائلاً:

لقد عرضنا في الجزء الأول أساساً
منطقياً للاستثمار في برامج رعاية وتنمية
الطفولة المبكرة. وقدما انطباعاً عاماً عن
البيئات والحاجة المتغيرة المرتبطة بنمو
البرامج المنظمة لرعاية وتنمية الطفولة،
كما قدمنا معطيات توحى بأن التغطية
البرامجية قد ازدادت بصورة كبيرة،
ومتمايزة، إلا أنها تظل منخفضة نسبياً
في معظم بلدان العالم الثالث. وتم التأكيد
على الحاجة إلى طريقة أكثر منهجية
لمراقبة هذه البرامج والوضع العام لتنمية
الطفولة. ونحن نتحول الآن، في الجزء
الثاني، لكي نفحص بدقة ما يعنيه
الاستثمار في مجال رعاية وتنمية الطفولة
المبكرة وكيف يمكن عمل ذلك.

ثقافة روسيا الجديدة

جون كوهان

د. سعد بن طفله العجمي

خصوصية العقلية الروسية

في رحلة معاودة الاكتشاف الجديدة، يصارع الروس سؤالاً عمره عدة قرون حول ما سيكون عليه مصيرهم القومي.

بالتوسع خارج إمارة موسكو في القرن الخامس عشر.

والحقيقة ، أنهم يبدون كمن يجد متعة في المجهول، أو كما كتب نيكولاي جو جول في القرن التاسع عشر في روايته «الأرواح الميتة» حين وصف روسيا بعربة الخيول المسرعة نحو المجهول. والآن، وبعد سبعة عقود من الجهود القاهرة لتطويع العقل الروسي ليتناسب مع الشيوعية التقليدية المتشددة، شدّ الروس الرحال مرة أخرى فهم يعدون بشكل سريع جداً كما لو أن رحلتهم هذه بلا نهاية، فالمهم هو استمرار الرحلة.

«لا يمكن فهم روسيا بالعقل ، كما لا يمكن قياسها بوحدة قياس عادية : فلروسيا وضع خاص - كل ما يمكنك عمله هو أن تؤمن بروسيا». فيودور تيوتشيف .

ليس باستطاعة أمة ما أن تتجدد كلية : فكينونة الأمة هي ما يوجد في أذهان شعبها. وما غرس في روسيا من أفكار عبر القرون بواسطة الجغرافيا وتعدد الغزوات القبلية والقوافل لا يتغير بسهولة تغير الرياح السياسية. وفي رحلتهم لمعاودة الاكتشاف الجديدة لم يدرك الروس جيداً: من هم، أو وجهة مصيرهم القومي، وذلك منذ أن بدأت إمبراطوريتهم

الفكر الماركسي- اللينيني، ولكنهم لم يتوقفوا عن الاعتقاد بأن التاريخ يسير بشكل دائري وليس بخط مستقيم. فإن أنت سألت بائعة فودكا عجوزا على قارعة الطريق عن فرص نجاح يلتسن، فسوف تذهب بذاكرتها قديماً نحو بيرسترويكا غورباتشوف المشؤومة وتسترجع المحاولة الفاشلة التي قام بها نيكيتا خروشوف لتحطيم قبضة الماضي الستاليني.

وإن سألت أحد المثقفين فإنه سيعود إلى أبعد من ذلك في التاريخ الروسي مقارناً سياسات يلتسن بالحملات الفاشلة للإصلاح التي قادها القيصران بطرس الأكبر وألكسندر الثاني.

إن أية محاولة لفهم للشخصية الروسية لابد أن تبدأ بالأرض الروسية التي تغطي حوالي سدس الكرة الأرضية. فالمؤرخ فاسيلي كلوتشفسكي يعتقد بأن المساحات الروسية الشاسعة من السهول والغابات ولدت «شعوراً شبيحاً هادئاً ونوماً عميقاً، يصاحبه شعور بالعزلة يفضي إلى التجريدية، واستغراق حزين في التأمل دون تفكير واضح المعالم». فالروس يبذلون كمن هالهم الحجم الشاسع لبلادهم مفضلين أن يجلسوا حول مدفأة ويفتحوا زجاجة فودكا متأملين في الحياة بدلاً من الخروج لحرث حقول لا نهاية له في الأفق. ويؤكد أحد كبار المعماريين في موسكو بأن هذا الشعور الأفقي كامن في العقلية الروسية إلى درجة أنه من النادر أن تجد خطوطاً

ولكن بوريس يلتسن يؤكد أن لرحلته هدفاً وهو أن يحوّل الروس إلى ديموقراطيين عصريين والتحول نحو اقتصاد سوق حر، وذلك من شأنه أن ينقل روسيا إلى مصاف الدول في المجتمع الدولي. ولكن بعض المسافرين في رحلة يلتسن هذه يخشون وجود مطب كبير على طريق هذه الرحلة، والبعض الآخر يعاني من غثيان السفر خلال صراهم مع أفكار جديدة مثل الديمقراطية والخصخصة. أوفي أثناء محاولتهم فهم الفرق بين السمسرة والعمولة (وللعلم فاللغة الروسية ليس لديها مرادفات لهذه المفاهيم المستوردة).

أما البعض الآخر من المسافرين فهم يصرخون بيلتسن مطالبين بإلهاب خيول العربّة بالسياط للإسراع في هذه الرحلة. ولكن بالرغم من مطبات هذه الرحلة، فعلى كل مواطن روسي أن يعمل على إحداث تغييرات ذاتية بداخله، وتغيير أرضية تفكيره لمجاراة النظام الجديد إذا ما أريد لعملية الإصلاح أن تستمر، وفي نفس الوقت فإن عربّة الخيول الروسية مثقلة بحقائب روسية من نوع معين.

عذب الماضي

إن الشعب الروسي يعاني الآن من مشكلة كبيرة في قراءة خارطة طرق الماضي. ففكرة الحتمية التاريخية قد تكون طبعت في أذهانهم من خلال تعاليم





يصرخ المخرج «يفجينى
سلافوتين» - ٤٤ عاماً -
:«العالم على وشك الانتهاء ،
وتبدو كمن يريد أن يشرب
شايًا» . كان يصحب ممثلين
إلى مشهد مهم في دراما
وجودية تلقي فيه امرأتان
إحدهما من المدينة والأخرى
فلاحه في صراع قوة يحدد
مصير العالم، ويقول المخرج
سلافوتين بأن المشاهدين
يجب أن يصدقوا بأن هذه
المسرحية الأخلاقية هي قصة
حياتهم الحقيقية، ففي
مسرح سلافوتين الطلابي في
جامعة موسكو يصور
المخرج أكثر الأحداث
اضطراباً في مرحلة احتضار
الاتحاد السوفيتي على
أشكال ملهارة مسرحية. وقد
كان لنجاحه في تحويل
الصيرير والصراخ إلى حكايات
غنائية إقبال جماهيري كبير،
ويردف قائلًا: «إن هذا
مسرح للآمل وليس للنهايات
الحزينة».

عمودية في العمارة الروسية، كما أن
العامل الجغرافي قد تملك حكام روسيا
بحيث إنهم أوجدوا أكثر النظم مركزية في
التاريخ الإنساني ، وفي واقع الأمر، فإن
فكرة تنفيذ أوامر موسكو في أقصى بقاع
الإمبراطورية كانت وهماً مدروساً
ومنتشراً، وفكرة قرية «بوتمكين» للعائلة
الإمبراطورية كان القصد منها تضليل
«كاترين العظمى» عما يدور في باقي
أرجاء الإمبراطورية، أما في أثناء المرحلة
السوفيتية فقد أغرقت الأجهزة الإقليمية
موسكو بإحصائيات مبهمة جعلت من
الصعب معرفة حقيقة الوضع
الاقتصادي في روسيا حتى يومنا هذا،
وقد أبدى فريق يلتسن بعض المؤشرات
البراغماتية الصحية باعترافهم بأن أحد
الحلول لمشاكل روسيا يعني إعطاء
صلاحيات اتخاذ القرار للأقاليم.

النقولب النفسي

كان المؤرخون ولدة طويلة يعتقدون
بأن النظام الشمولي (التوتاليتاري) قد
تعاقب في روسيا لأن طبيعة شعبها
الاستسلامية تحرمهم من التمتع بمزايا
الديمقراطية، ويفند هذا الاعتقاد نظرة على
حدة المناقشات الحامية التي تدور في
قاعة مجلس نواب الشعب الروسي،
فالروسي أكثر من ديمقراطي، بل إنه في
أعماق قلبه فوضوي، ولقد عاش حكام
روسيا في فزع مستمر من الثورات
العفوية مثل تلك التي هزّت المرحلة

أيها الأب المبجل سيرجيوس» وقد يبدو هذا المنظر مثيراً للتساؤل بالنسبة للزائر حين يرى قديساً يحتل مكاناً لصور أكبر من الحجم الطبيعي لماركس ولينين، بل إن زيارة الداعية الأميركي - وليس الروسي - «بيلي جراهام» جذبت جمهوراً غفيراً بجانب منصبه معلنين تكريس حياتهم للمسيح وليملاؤوا فراغاً روحياً خلفه انهيار الشيوعية.

ولو رفعنا الغطاء عن التدين التقليدي الهش لوجدنا تحته خرافات وثنية، فكثير من الروس يشعلون الشموع في الكنائس هذه الأيام بنفس الطريقة التي كانوا يعبرون بها عن ولائهم للحزب الشيوعي سابقاً، قاصدين بذلك الاحتياط فمن يدري؟ كما أن الإيمان بالمعجزات يبدو قوياً في بلد كان يؤمن إيماناً تاماً بالتفكير العلمي، وإلا فكيف نفسر الإقبال الكبير على الأطباء الروحانيين أمثال «أنا تولى

القيصرية وأشعلت الثورة البلشفية، وبعد مجيء الشيوعيين للحكم فقد كانت هناك محاولات للثورة عليهم مثل تلك التي قادها بخّارة «كرنستات» وفلاحو «تامبوف». ولم تتوقف الثورات على امتداد التاريخ الروسي، بل إن بعض كتب التاريخ القديمة تصف كيف أن أسلاف الروس توسلوا إلى «الفايكنج» أن يحكموهم لأن لديهم «أراضي شاسعة وغنية، ولكن لا يوجد فيها نظام يحكمها»

وربما تلعب السماء دوراً على الأرض الروسية، مما يولد أفكاراً بالخلود لدى الروس، فبعد عقود من الإلحاد الرسمي، بقي الروس شعباً روحانياً خالصاً، ففي الذكرى الستمئة لوفاة «سيرجيوس» قديس «رادونيز» وضعت لوحة كبيرة بهذه المناسبة على واجهة المتحف التاريخي في الساحة الحمراء بموسكو، وقد كتب على هذه اللوحة: «ادع الله لنا



فلاديمير إيفانيو شكن (مزارع):

بينما كان يستعرض بفخر المناحل وبيوت الأرنب التي صيغها للتو، كان المعماريون يدرسون خطط ترقيم كنيسة القرية التي حوّلت إلى مخزن، ويقول إيفانيوشكن (٤٣ عاماً) بأن ذلك سيكلفه كثيراً، ولكنه أمر يستحق التكلفة، فالأمر لا يعني المحافظة على المزرعة فقط ولكنه يعني المحافظة على التراث، وتبعد قرية «ستاروي ليسكوفو» ١٨٠ ميلاً من موسكو حيث كانت قديماً مقاطعة لعائلة روسية من النبلاء يديرها جد «إيفانيوشكن»، وتشتهر هذه القرية بخيول السباق الأصلية، إلا أن سبعة عقود من الحكم السوفيتي أدت إلى إهمال الأرض، ولكن الأحفاد مصممون على إعمارها بالرغم من أنهم لا يزالون يستأجرون الأرض فيها. ويقول إيفانيوشكن بتصميم بأنهم سوف يحولون المكان إلى جنة سرعان ما تصبح ملكاً لهم.

كاشبيروفسكى» و«الآن تشوماك» والذين يسحران جمهورهما في جلساتهما التليفزيونية منذ عدة سنوات؟ بل إن بعض أهل موسكو المتحضرين هرعوا لشراء نسخ رائجة من المجلات والصحف، ووضعوا جرار الماء بجانب شاشات التليفزيون ليمتصوا الأشعة الروحانية من الكهان عبر أجهزة الفيديو. ويستمر بحث الروس عن نسخة علمانية لمحبوبهم القديس «نيكولاس العجيب»، فقرون من الإحباط لم تزعزع ثقتهم بظهور قيصر عظيم يوماً ما ليحل كافة مشاكلهم بسرعة وسهولة، وبما أنه لم يأت أحد بمواصفات هذا القيصر العظيم حتى الآن، فسرعان ما يضيق الروس ذرعاً بمن يمتلك زمام الأمور. فيغرقون في السلبية واللامبالاة أو يعلقون آمالهم على «ساموز فاننازي» أي العديد من المقلدين لقيصرة التاريخ الروسي الذين يظهرون فجأة من المجهول لتحدي مراكز القوة والقرار، وقد تقمص يلتسن هذا الدور عندما قاد الحرب الشعبية ضد «غورباتشوف»، ولكن على يلتسن أن ينتبه الآن من ظهور شخص ذي لسان معسول يلتف حوله الغوغاء والمتذمرون لهجوم جديد على الكرملين.

ويعتبر الغرب الروس شعباً كسولاً لا يعمل بانتظام، ولكن نظام عمل الروس الذى قد يحير الآخرين له منطق خاص تمتد جذوره إلى عمل الفلاحين الموسمي المكون من مرحلة طويلة من الخمول يتبعها فترة قصيرة من النشاط والبذر والحصاد، ولقد شرح ذلك الروائي الكبير

«ليوتولستوي» بقوله: «الروس يضعون السروج على خيولهم ببطء شديد ولكنهم يمتطونها بسرعة هائلة». ويضيق الروس صبراً بالروتين اليومي والعمل المبرمج، مفضلين القيام بالعمل بسرعة ونشاط فجائين، وهذه الطريقة في العمل سميت خلال الحقبة السوفيتية بـ «ستورموفشينا» أي العمل العاصف.

وبالنسبة للروس، فكلما كبرت المهمة كان ذلك أفضل، ففي وقت من الأوقات فكر العلماء السوفيت بجديه في إمكانية تحويل مجاري أنهار سيبيريا كما حاول الاقتصاديون مراراً تقصير خطط التنمية في خمس سنوات أو حتى خمسمائة يوم، وقد كان لهذه الاستراتيجية نتائجها المثمرة: فالروس بنوا مدينة سانت بطرسبرج الجميلة بعد أن كانت خراباً، وجمدوا المستنقعات وأطلقوا أول قمر صناعي في الفضاء، ولكن لم يعادلوا تلك الإنجازات الكبيرة بإنتاج تموين كاف من الصابون وورق الحمام.

لعبة الغاء اللوم

حين تسير الأمور على غير ما يرام، فلا أحد يفكر قط بإلقاء اللوم على نفسه، بل على عكس المسيحية الغربية فإن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية لا تركز كثيراً على مفهوم الذنب الشخصي، ولقد كان أول قديسين من السلافين الشرقيين - بوريس وجلب - شهيدين سلبيين



فيلاديمير زاخاروف، أحد كبار كنيسة سانت سيرجي يتابع بفخر شعائر «المعمودية» لصبي في السابعة من عمره، حيث يحني الصبي رأسه ليقوم قديس بقص خصلة من شعره في إناء الماء المقدس، يتبع الصبي بعد ذلك ستة من أقرانه لأداء شعائر المعمودية، وبالرغم من أن زاخاروف (٤٦ عاماً) ليس قديساً إلا أنه أحد كبار رجال كنيسة سانت سيرجي المكلف بالإشراف على مشاريع الصدقات في الكنيسة الأرثوذكسية. وشعائر المعمودية منتشرة هذه الأيام في روسيا، إلا أن الكثيرين ممن يؤيدون شعائرها لا يفعلون ذلك لأسباب روحانية، ولكن لأسباب عملية اقتصادية بحثة، حيث يقدم إلى موسكو كثير من الفقراء للاستفادة من مشاريع الصدقات البطيرية الجديدة الممولة في أغلبها من قبل كنائس أجنبية.

للمكيدة السياسية. وقصتهما تعطي صورة واضحة عن معاناة البراءة في عالم ظالم بقيت معالمها في النفسية الروسية حتى يومنا هذا، وغالباً ما يلجأ الروس إلى تبرير فشلها الشخصي بأنهما كانا ضحيتين بريئتين لقوى فوق إرادتهم، ويلقي الروس باللوم دوماً على «هم» بغموض وإبهام: وقد تشمل كلمة «هم» هذه الأقرباء الأناثين والجيران المتطفلين، والرأسماليين الجشعين والبيروقراطيين الفاسدين والحكومة.

ويؤد هذا الاعتقاد الشخصي الكامن في الأمة كلها شعوراً وطنياً ثورياً يستند على نزاهة روسيا من ارتكاب الخطأ، ولعل أوضح أشكال هذا الشعور اليوم يتمثل في حركة الفاشية الجديدة» باميات» والتي تريد أن تبرىء الروس من فظائع المرحلة الشيوعية، فحركة باميات تدعي بأن ثورة ١٩١٧ البلشفية نظرت لها وقام بها الماسونيون واليهود، والواقع أن البحث عن كبش فداء يُلقى عليه اللوم هو شعور قومي كان موجوداً قبل محاكمات ستالين الاستعراضية، ولكن انهيار الاتحاد السوفييتي خلف جولة جديدة من أصابع الاتهام واللوم، والعجيب أن الديمقراطيين والمحافظين قد اتفقوا هذه المرة على من يلقي باللائمة عليه : ميخائيل غورباتشوف .

ويعتمد أي نظام حكم في روسيا على فهم روسي فريد للظلم، أو كما توضحه طرفة روسية تقول إن الفلاح الروسي إذا مارأى جاره يمتلك خنزيرين بينما يمتلك

الضرائب في أميركا، وطريقة تخلص الألمان من القمامة، كما لو أن الممارسات الغربية هذه هي النموذج الذي يجب الاحتذاء به في كل شيء. وكما ذكر المؤرخ الثقافي جيمس بيلينجتون في كتابه «التمثال والفأس» فإن «الروس يريدون دوماً خلاصة الحضارات الأخرى دون عناء المرور بالتطور التدريجي، واستيعاب هذه الحضارات».

وكما أخفق تقليد ما للغرب في روسيا، هرع دعاة السلافية إلى التذكير بخطر الأفكار الدخيلة التي كانت في رأيهم وراء الثورة البلشفية.

ولعل العودة إلى ارتداء لباس المرحلة القيصريّة، وإقامة الحفلات لأحفاد النبلاء القدماء، هي مؤشر حنين شديد لروسيا التي رحلت منذ أمد طويل، ودليل توفيق إلى إمبراطورية تشع نوراً وتفاوُلاً لدعاة السلافية، بالقدر الذي كانت فيه رمزاً للظلام والتشاؤم بالنسبة للشيوخ. ويستلهم التقليديون أقوال قادة ما قبل الثورة أمثال بيوتر ستوليين، والذي اغتيل خلال توليه رئاسة الوزراء في عهد القيصر نيكولاس الثاني الذي طرد معارضيه الراديكاليين بقولته المشهورة: «يريدون فوضى عظيمة، ونحن نريد روسيا عظيمة».

والروس قد يتسولون أو يستعرون أو يسرقوا بضائع وأفكاراً أجنبية، ولكن الغالبية العظمى منهم لا يريدون العيش خارج روسيا، فالمهاجرون منهم غالباً ما يصارعون حنيناً دائماً للوطن، ومع أنهم

هو خنزيراً واحداً، فإنه أحب إلى نفسه أن يرى أحد خنزيري جاره يذبح على أن يقوم هو بتربية خنزير آخر. والحقيقة أن مثل هذا التفكير المساواتي العفن موجود في العقلية الروسية قبل مجيء الشيوعية، ولعل مثل هذا التفكير يفسر نظرة الروسي العادي المريبة إلى سماسة التجارة الجدد الذين يجولون في المدينة لاصطياد زبون لتثبيت حوض استحمام في منزله أو حتى بيع صديريات الأثداء للنساء.

فالمواطن الروسي العادي يرحب بهذه الوفرة المفاجئة في البضائع، ولكن يعتقد في نفس الوقت أن من الإجحاف أن يعيش شخص ما على شراء بضائع نادرة في السوق لبيعها بأسعار خيالية ومرتفعة بالنسبة لمعظم المواطنين.

الموروث السلافي

وقد أدى موقع روسيا ما بين أوروبا وآسيا إلى نوع من مشكلة الهوية بالنسبة للروس، فهم غير متيقنين إن كانوا مجتمعاً غربياً أم شرقياً، ولكن لا فتات «الكوكاكولا» المكتوبة بالأحرف السيريلية ودُمي «باربي» المنتشرة في موسكو. هذه الأيام تشير إلى انتصار أصحاب التوجه الغربي في الجدل الذي عمره قرن من الزمان على نظرائهم أصحاب النزعة السلافية، وكثيراً ما يردد الوزراء والبرلمانيون الروس كيف يقوم الهولنديون بحلب الأبقار، وكيفية جمع



أناتولي بيرزلوف «٤٤ عاماً» -
طبيب أمراض عصبية.

يفتح الصبي عينيه المرهقتين
في اللحظة التي اقترب فيها أناتولي
بيرزلوف مدير أول مركز تاهيل
للشلل المخي في موسكو - قائلاً:
«لا بأس عليك الآن يا بني». وقد
كان لهذه العبارة الآن أثرها على
الصبي الذي نهض من سريره
رغم آلامه، وليست هذه الحالة
الأولى التي يؤثر بيرزلوف -
البروفسور السابق للأمراض
العصبية - في مرضى حالات
الشلل المخي، فقد أثر في الكثيرين
منذ أن أصبح مديراً للمركز الذي
افتتح قبل ٢١ شهراً، ولعل
احترامه وحنانه على مرضاه هما
أفضل العلاج بالنسبة له، فأمثاله
من الأطباء نادرون هذه الأيام في
مصحات روسيا الوطنية، التي
تزداد سوءاً. ويقول بيرزلوف إنه
عندما أتى للمركز قرر ألا يعالج
المرضى، ولكن أن يقوم بخدمتهم
كما أقوم بواجباتي تجاه خالتي،
واعتبر كل مشاكلهم مشكلتي
الشخصية».

مدركون - بحرج - لتخلفهم الاقتصادي
والاجتماعي، إلا أنهم يؤمنون إيماناً
راسخاً بتفوقهم الروحاني، إذا ما قورنوا
بالمادية الطاغية في الغرب. ولعل ذلك
ينعكس بصورة جلية في رواية إيفان
كونتشاروف الكلاسيكية التي كتبها في
القرن التاسع عشر بعنوان «أبلوموف»،
حيث يقدم شخصية الألماني - ستولر -
كنموذج للحيوية والحرفية، بينما يقدم
الشخصية الحاملة لـ «أبلوموف» الروسي
الذي يفوز في أحداث الرواية بمسابقة
الثقافة، وعلى الرغم من أن «أبلوموف»
كسول يقضي معظم النهار في فراشه إلا
أنه يحوز على إعجاب القراء بشخصيته
المحببة الباسلة في كفاحها لإثبات تفوقه.

والواقع أن صراع الشرق والغرب
لا يعني كثيراً بالنسبة للمواطن الروسي
العادي، فالمواطن العادي يعتقد بأن هذا
الجدال هو شأن الإنتلجنسيا، وهي
مجموعة من المثقفين تعتبر أحد
الخصائص الفريدة للمجتمع الروسي،
فقليل من الدول تهتم بكتابها وعلمائها
وفنانيها وشعرائها كما في روسيا، حيث
تتمتع هذه النخبة بمكانة اجتماعية
عظيمة. وقد لا يكون هذا التشريف
للانتلجنسيا دوماً في محله، فبالرغم من
أن المثقفين الروس يرون أنفسهم كمرجع
اجتماعي للمعرفة والحكمة، إلا أنهم لم
يُعرفوا بقدرتهم على استقراء المستقبل،
فكثير من المثقفين الذين هتفوا لثورة
١٩١٧، أصبحوا أول ضحاياها في
زنايات سجن «لوبيانكا»، كما أنهم



ليونيد كيزلمان (٤٨ عاماً - عالم اجتماع) : يعرف هذا الرجل كيف يفكر الروس، فهو يعد أحد رواد علم الاجتماع وواحد من أفضل خبراء الرأي العام في روسيا، ففي بلد كانت الإحصائيات فيه أحد أسرار الدولة إلى وقت قريب، يعد هذا الرجل مرآة يستطيع الروس من خلالها رؤية أنفسهم، ويقول كيزلمان بأن المعلومات شيء مهم جداً للناس، وقد كانت الدولة في السابق تتلاعب بأراء الناس بحجب المعلومات عنهم، فقد كانت تعي الدولة بأن الشخص الذي يمتلك المعلومات لا يمكن التحكم بأرائه وتوجهاته بسهولة.

أما اليوم فإن استبيانات كيزلمان تنشر في ١٨ صحيفة، وتذاع في أرجاء البلاد جميعاً، وعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية الخانقة في روسيا، إلا أن كيزلمان لا يزال متفائلاً حيث يقول: «لا أعتقد أن هناك قوة تستطيع أن تغير إرادة شعب يريد التغيير نحو الأفضل. وبالطبع فإن كيزلمان يستمد رأيه هذا من آراء الروس المنعكسة في استبياناته.

روسيا كلية إلى أمة تعمل ببطاقات «الوقت» مشغولة بالبناء ولا تنتظر مجتمعة حول فنجان من الشاي، ترى هل يمكننا اعتبارهم روساً إن هم فعلوا ذلك؟

ويبقى هناك «ميزة شيطانية» في الشخصية الروسية يصعب التنبؤ بها، وكثيراً ما انعكست هذه الميزة في الرغبة في خلط الاستقراءات بالأعمال الباسلة، ويتوق الروس دوماً إلى قيادة عربية خيولهم القومية بأقصى سرعتها مجبرين الأمم الأخرى - على حد قول جوجول - «أن تنظر إليهم شزراً مفسحين الطريق للعربة الروسية». أما الآن فإن التاريخ قد رمى الكرة في الملعب الروس معطياً الروسي فرصة «فريدة» من نوعها.

يواجهون اليوم أزمة من نوع جديد بعد الثورة الديمقراطية، فهم يخافون أن يهْمشوا في مجتمع أصبحت التجارة فيه أهم من الثقافة.

وإذا ما استمرت التحولات الإصلاحية الحالية فمن الممكن أن تفتح روسيا الباب على مصراعيه، مما قد يفقدها كثيراً من غموضها، فمن المحتم أن يحصل اتزان نتيجة لتكيف الروس مع مؤسسات سياسية جديدة وحقائق اقتصادية جديدة، فأطفال البريستوريكا قد ترمرموا في مرحلة الإصلاح، وبدأوا يتصرفون كمن يعيش في عالم مختلف عن ذاك الذي يعيش فيه آبائهم، ولربما كانوا أقرب إلى أطفال ثقافة الفيديو في العالم، منهم إلى الروس الذين يكبرونهم سناً، ويبقى من الصعب أن نتخيل تحول

علم التنويم وماضي الصدمة

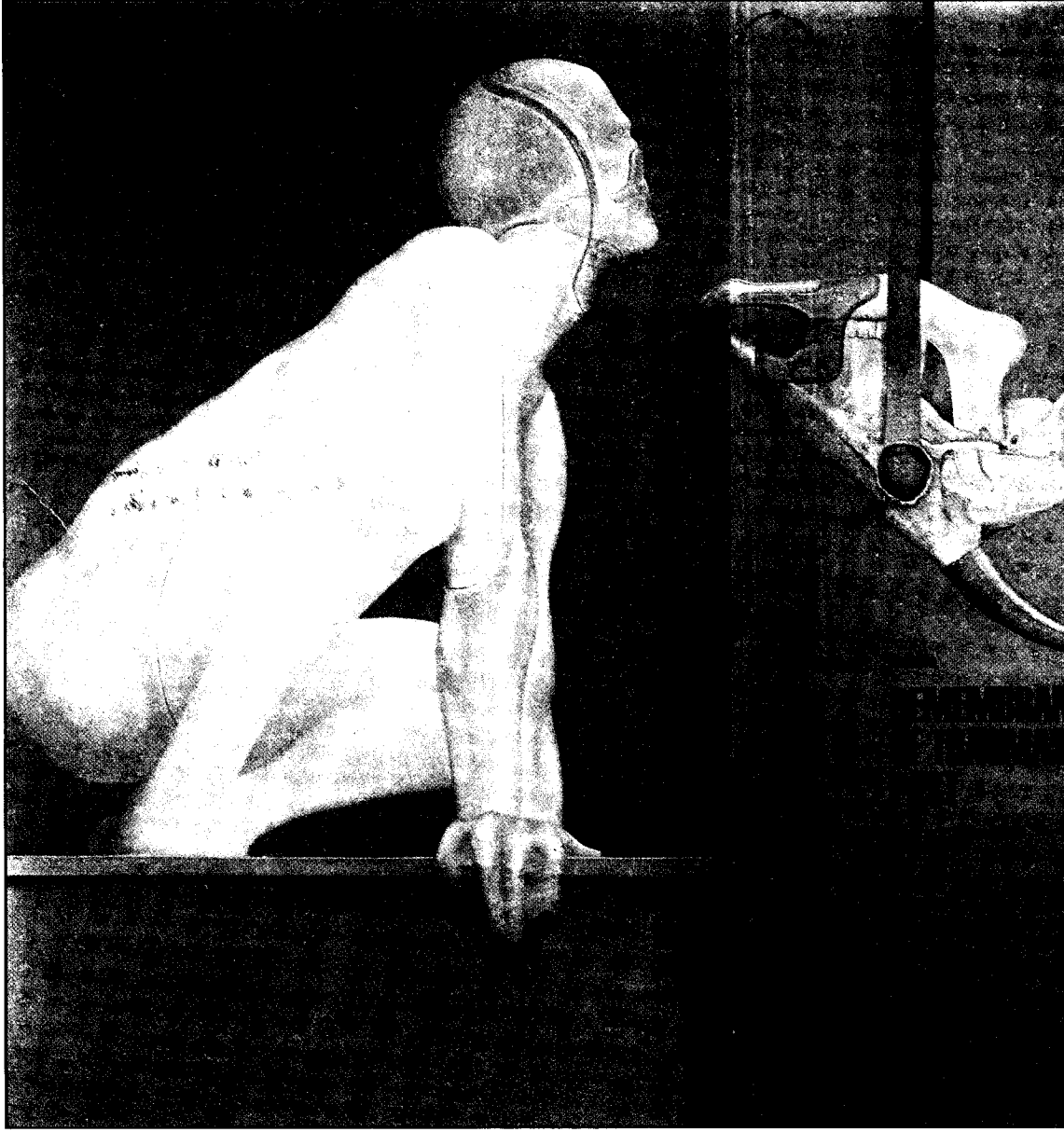
ساره سولوفتش

فاطمة عشرى

لورفعنا الغطاء عن تلك القرون التي مرت من زماننا، بدءاً من فساد
العصور الوسطى السياسي في أوروبا حتى عظمة روما القديمة وفخامتها،
فإن حيواتنا السابقة وقصص الحب والموت ظلما قد تواصل بقاءها كذكريات
للروح الطوافة.

العصر اليوناني القديم، قالت جان بصوت يشبه الهمس: «إنني أرى أعمدة». ارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة وبدأت كما لو كانت تتعرف على المرأة التي كانت تعرفها في حياتها في ذلك العصر واسمها ملوديا «اسمها كلوديا وقد أنجبنا طفلاً بعد زواجنا اسمه سيروس، أنا جندي وقد قتلت في إحدى المعارك وأنا لا أعيش معها الآن» وبنفاذ صبر طلب منها ويز أن تتخطى زمن الوفاة سريعاً، وإذا بجان تقول دون تفكير «لقد طعنت في المعركة، إنه قريب مني، إنني أرى الجندي الذي قتلني، إنني أنظر في عينيه» ديا إلهي!... هل هذه هي الخطوة التالية في تطور التحليل النفسي؟ لقد علمنا فرويد أن نعود للوراء إلى طفولتنا المبكرة. بينما أعادنا أوتو رانك إلى رحم أمهاتنا. والان تأخذنا

لو أن عيني «جان» كانتا مفتوحتين لأبصرتا سماء ميامي ملبدة بالغيوم، لكن عينيها الزرقاوين الحادثين كانتا مغمضتين بشدة بينما صوت الطبيب النفسي والمنوم المعنطيسي بريان ويز يقودها إلى مشهد آخر مختلف تماماً. فبعد أن هبطت درجات السلم المظلم، دخلت جان إلى حديقة رائعة ممثلة بالزهور والأشجار. طلب د. ويز من جان النظر إلى أسفل قدميها هل كانت ترتدي صندلاً من جلد حيوان؟ من الواضح أنه لم يكن يشير إلى تلك المرأة المتأنقة الجالسة في الركن والمرتدية الجاكت الأحمر والبنطلون الأزرق والبلوزة البيضاء. تفتح جان فمها لتتكلم، لكنها لا تتفوه بشيء. بعدها وببطء وصعوبة تبدأ في استعادة قصة حياتها كرجل عاش في



صدماتها تواصل الحياة كـ «ذكريات الروح». فالرجل الفرنسي الذي كان يعاني من آلام مستمرة في الرقبة تخيل تحت تأثير التنويم المغناطيسي أنه يحيا في القرن التاسع عشر وأنه أعدم بالمقصلة ،

مجموعة صغيرة لكنها متنامية العدد من المحللين النفسيين إلى ما هو أبعد من ذلك. فمن خلال التنويم المغناطيسي وتوجيه التفكير يستطيعون أن يعودوا بمرضاهم إلى خبرات حياة وموت سابقة يزعمون أن

فاختفت كل آلامه.

وفي الوقت الذي ينظر فيه النقاد إلى هذه الممارسات على أنها سوء استخدام للتنويم المغناطيسي يؤكد من يمارسونه أنهم يعالجون الكثير من الأمراض ، كالصداع النصفي والأرق والربو والمخاوف المرضية، في ساعات فقط لا سنوات في حالة استخدام أساليب التحليل النفسي التقليدية. وهم يبنون تأكيداتهم هذه على فن التنويم المغناطيسي القائم من آلاف السنين. فبفضل مساعدة فن التنويم المرضى على استكشاف قدرتهم الذاتية على اشفاء أنفسهم، كما يقول أنصاره، فإنه يستطيع أن يساعد في إغناء المرضى عن استعمال المسكنات وفي مقاومة الإصابة بالعدوى وفي توسيع الأوعية الدموية. وطبقا لنظرية أخرى في هذا المجال فإن التنويم المغناطيسي يعمل على تبديل الإدراك بحيث لا يستجيب العقل للألم أو الغثيان ، بل إن هناك أفكارا تطرح الآن تقول إن التنويم المغناطيسي ربما فتح طريقا مباشرة إلى Limbic System ، وهو مخزن العقل للانفعالات والذاكرة . وبذلك يكون التنويم المغناطيسي مؤثرا لدرجة أنه يجعل الحياة كالبصلة التي يمكن تقشير طبقاتها بحيث تبدو الكينونة أو الحياة فيها واضحة للمرضى الذين لا يدركونها، وتبدو الحياة السابقة من خلال التنويم المغناطيسي وكأنها شيء سابق التوقع .

ومع هذا فإن بعض المنومين يؤيدون بقوة التحول التدريجي بدلا من التحويل

المفاجيء ، ويعتقد بعض المحللين أن هذه الذكريات القديمة تلقي الضوء على ما تم دفنه واختزانه وذلك في أثناء عملية التنويم المغناطيسي .

يقول جاريت أوبنهايم (محلل نفسي) إنه لشيء قيم حقا أن يسألني المرضى إذا كان ما يرونه شيئا حقيقيا أم ضربا من الخيال. وهذا في حد ذاته مفيد من الناحية العلاجية لأنه يعبر عن مشاكلهم واحتياجاتهم.

هناك السيدة برايدي مورفي وهي أيرلندية عاشت في القرن التاسع عشر والتي كانت تظهر كلما كانت السيدة فيرجينياجي تقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي في أوائل الخمسينيات كانت السيدة تايجي تصف الحياة في القرن التاسع عشر في أيرلندا وتعطي تفاصيل حية ودقيقة عن هذه الحياة في الوقت الذي كان موري بيرنستاين، وهو جار السيده تايجي ويهوى ممارسة التنويم المغناطيسي، قد وضع كتاباً عن التنويم المغناطيسي جذب انتباه العاملين في هذا المجال في ولاية كاليفورنيا والذين أسسوا جمعية مكونة من ٧٠٠ عضو.

يحدثنا براين ويز، خريج جامعتي كولومبيا وويل بدرجة امتياز ورئيس الأطباء النفسيين في كلية الطب في ميامي، عن جان التي كانت تجد صعوبة في البلع، كانت جان في حياتها السابقة تعيش كخادمة في أحد بلدان الشرق الأوسط، وتحت تأثير التنويم المغناطيسي رأت جان

عام ١٨٦٣ قبل الميلاد، أيضا ذبحت كاترين كما حدث مع شاب في هولندا عام ١٤٧٣، كما أنها ماتت بسبب وباء في أسبانيا في القرن الثامن عشر. وبدأت حالتها في التحسن جلسة وراء جلسة.

وبعد فترة وفي الجلسات اللاحقة بدأت كاترين تتحدث إلى د. ويز بصوت أجش، وبدأ هذا الصوت يردد «والدك وابنك هنا، وستتذكر والدك باسمه وستحمل ابنتك نفس الاسم من بعده، أيضا سيكون موته بسبب مرض في القلب، كما أن قلب ابنك لشيء مهم وسيتحول عن مكانه ليصبح كقلب الدجاجة، لقد ضحى كثيرا والدك كثيرا من أجلك، إنه يريد أن يثبت لك أن الأدوية تأثيرها محدود. بالفعل كان والد د. ويز- ويدعى ألفين - يهودياً متديناً وبسبب تدينه كان أقرب إلى الاسم اليهودي أفرون ، ولقد مات بسبب مرض في القلب، وبالفعل أطلق ويز على ابنته اسم والده. أما الشيء الأكثر دقة فهو أن كاترين قد تحدثت عن المأساة الكبرى في حياة د. ويز وهي موت ابنه الأول آدم فقبل أحد عشر عاماً ، تحول وضع قلب آدم ليصبح كقلب الدجاجة وأجريت له عملية القلب المفتوح ولكنها لم تنجح، وعليه فقد قرر د. ويز أن يتحول إلى الطب النفسي . وكما قالت له كاترين فإنه كان على قناعة تامة بأن الدواء الحديث ذو تأثير محدود.

لقد تحدث هذا الرجل المتخصص في كيمياء العقل عن المعلومات التي أدلت بها مريضته وكيف أنه من الصعب تجاهلها،

نفسها وهي تقود عربة مليئة بالقش المبلل وقد سجنت في هذه العربة وأصابها الاختناق، وفي أثناء جلوسها على أريكة العلاج في حضور د. ويز، ولأول مرة منذ سنوات، تختفي أعراض الأزمة وتنام خلال ساعات الليل بدون استيقاظ للبحث عن هواء تستنشق.

يكرر ويز هذه القصة وقصصا أخرى مثل قصة زوجته كارول والتي كانت متعلقة بأحد رجال العصور الوسطى في أوروبا وكانا يلتقيان في أحد المعابد، وفي أثناء إحدى جلسات التنويم المغناطيسي تخلصت كارول من الصداع الذي كانت تعاني منه قبل حدوث الطمث.

في أحد أيام عام ١٩٨٠ جاءت كاترين وهي شابة في مقتبل العمر لمقابلة د. ويز بناء على توصية من أحد الأطباء. كانت كاترين تعاني من مخاوف مرضية تمنعها من النوم ، وبعد ١٨ شهرا من العلاج النفسي التقليدي الذي لم يؤد إلى نتيجة ، قرر د. ويز أن يخضعها للعلاج بالتنويم المغناطيسي. وبالعودة للماضي تذكرت كاترين أنها قد غرقت في أحد حمامات السباحة عندما كانت في سن ٥ سنوات، وعندما كانت في سن ٣ سنوات تذكرت ليلة عصبية عندما تعرضت للتحرش الجنسي من قبل والدها المخمور، كان هذا في غرفة نومها وفي الظلام، عندها طلب منها د. ويز أن تعود بالذاكرة للوراء عندما بدأت هذه الأعراض في الظهور، لاحظتها فقط فتح فيضان الذاكرة وتذكرت كاترين أنها قد غرقت في فيضان

لقد كان لها تأثيرها على أفكاره في هذا الشأن.

اليوم أصبح د. ويز من أكبر العاملين في هذا المجال ، ولديه قوائم انتظار من مرضى من جميع أنحاء العالم ممن يتطلعون للعلاج على يديه بطريقة التنويم المغناطيسي.

وفي سنة ١٩٩١ نظم د. ويز ندوة لمدة أربعة أيام عن التنويم المغناطيسي وتحليل الحياة السابقة استقطبت اهتمام أطباء القلب وأطباء الأمراض النفسية وغيرهم من العاملين في مجالات العلاج المختلفة. ومنذ أن ظهر كتابه في عام ١٩٨٨ والرسائل والمكالمات الهاتفية تنهال على د. ويز من الأطباء الآخرين يخبرونه بممارستهم لهذا النوع من التحليل مع مرضاهم ولكن بطريقة سرية.

وفي العام الماضي قام د. ويز بتشجيع طبيب نفسي آخر هو د. روبرت جارمون من جامعة سبرنج ليك في نيوجرسي والذي كان أحد مرضاه - وهو رجل أعمال ناجح يعاني من أعراض الذهان وجنون العظمة وذلك عند اكتمال القمر - وتحت تأثير التنويم المغناطيسي بدأ الرجل يتحدث عن شخص كان مجنونا في الجيش الأميركي في أثناء الحرب العالمية الثانية وأسر خلف خطوط الأعداء وبدأ استجوابه وأخذ بواسطة الجنود الألمان إلى أحد الأنهار ومع اكتمال القمر وانعكاس صورته على سطح النهر تم إعدام هذا الجندي رميا بالرصاص.

وفي نفس المكان الذي أطلق فيه

الرصاص على الجندي (حسب رواية د. جارمون فإن هذا الجندي قد قتل عام ١٩٤٤ ، قبل أن يولد المريض بأربع سنوات) استطاع المريض أن يذكر اسم المجند والبلد الصغير في ولاية مينيسوتا حيث تربى وتلقى تعليمه.

قامت زوجة المريض بسؤال الجامعة التي تخرج منها المجند وبالفعل حصلت على معلومات بأنه تخرج من نفس الجامعة عام ١٩٣٩ ، بعدها بدأت صحة المريض في التحسن بعد عشرين عاما من المعاناة كلما اكتمل القمر، وشفي المريض وأصبح إنسانا طبيعيا.

مريضة أخرى في الثلاثينيات من العمر، ذهبت لدكتور جارمون تشكو من ورم مؤلم في مبيضها الأيمن وتوقف الحيض لديها مما دفعها للاعتقاد بأنها حامل، فذهبت «آن» للطبيب الذي أكد لها أنها ليست حاملا. وتحت تأثير التنويم المغناطيسي، تحدثت «آن» عن فتاة أخرى تدعى إليزابيث في التاسعة عشرة من عمرها تعيش في العصور الوسطى وحامل في طفل لكنه ليس في مكانه الصحيح، وكان لابد من إجهاضها لإنقاذ حياتها، ولكن القس رفض عملية الإجهاض مما أدى إلى وفاة إليزابيث. قامت آن بوصف وفاة إليزابيث، وبعدها مباشرة عادت إلى حالتها الطبيعية لتشكر د. جارمون على أنها قد تخلصت من آلامها وفي نفس الليلة اتصلت بدكتور جارمون لتؤكد له أن الحيض قد عاد إليها.

ويتحدث د. نورمان شيلي طبيب أمراض عصبية من ولاية ميسوري ، عن أسلوب جديد يقدمه في عالم التحليل النفسي. وتعتمد نظريته على استدعاء اللاشعور الذي يخفف من آلام المريض وإحساسه بالذنب. فبدلاً من أن تقول لقد فعلت كذا في عام ١٩٦٩ فإن الأسهل أن تقول إن فلاناً فعل كذا في عام ١٦٠٠ مثلاً، وللتدليل على هذا الرأي، يسوق د. شيلي هذه الحادثة : جاءته مريضة مصابة بالشلل نتيجة إصابة بالحبل الشوكي، لم تستطع المريضة تذكر أي شيء عن الحادثة التي تعرضت لها ، وكانت تعتقد أنها أصابت نفسها بالخطأ عندما كانت تنظف بندقية زوجها فانطلقت منها رصاصة لتصيبها. وبعد تعرضها للتنويم المغناطيسي ذكرت المريضة قصة مختلفة تماماً. قالت إنها أن بولين زوجة الملك هنري الثامن والذي أصدر أوامره بقطع رأسها، وبعد أن عادت هذه المرأة إلى حالة الوعي ، فسر لها د. شيلي ما حدث لها من أنها قد تعرضت للموت بسبب إطلاق زوجها الرصاص عليها بعدها مباشرة تذكرت النقاش العنيف الذي دار بينها وبين زوجها قبل أن ترى كل شيء أسود أمامها وتروح في غيبوبة، بعدها أحست بتحسن وطلبت الطلاق من زوجها .

من ناحية أخرى ترى بعض الدراسات أن التنويم المغناطيسي قد يجعل الذاكرة قابلة للتحريف. تقول إليزابيث لوفتس، الأخصائية النفسية في جامعة

واشنطن والمتخصصة في الذاكرة ، إن هناك عدة دراسات أثبتت أن المرضى القادرين على استدعاء حياتهم السابقة هم الأكثر تعرضاً للتنويم المغناطيسي ، وأن التعقل والاتزان هنا لا يدخلان في الاعتبار مادام المريض يثق في الشخص الذي يعالجه . ويؤكد هذه النظرية د. نيكولاس سبانوس، أستاذ علم النفس بجامعة كارلتون بأوتاوا، عندما يقول إن تحليل الحياة السابقة هو نوع من توضيح ما يعانيه كل منا.

كتب د. سبانوس في مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي يقول إن الارتداد إلى الحياة السابقة يتأثر بشكل مباشر بتوجيه المريض من قبل المنوم المغناطيسي بما يتناسب مع اهتماماته، ويمضي د. سبانوس أبعد من ذلك فيقدم مثلاً، إذ لاحظ أن أحد المرضى استدعى حياته السابقة كيوليوس قيصر مشيراً إلى أنه عاش سنة ٥٠ بعد الميلاد وكان إمبراطوراً لروما، ولكن هذا غير صحيح حيث إن قيصر مات سنة ٤٤ قبل الميلاد ولم يتوج أبداً إمبراطوراً لروما ، وزيادة على هذا فإن معرفة التنويم المغناطيسي لم تبدأ إلا بعد العام ٥٠ بعد الميلاد.

شخص آخر استدعى حياته السابقة كشخص عاش في ولاية ميسيسيبي عام ١٨٧٠، وهذا التاريخ سابق كثيراً على ظهور منطقة الميسيسيبي كولاية ، أيضاً الشخص الذي قال إنه عاش في ألمانيا عام ١٨٦٦ وهو تاريخ سابق على وجود ألمانيا كبلد.

المغناطيسي بالنسبة لجميع المرضى حتى هؤلاء الذين لا يعانون من شكوى في حياتهم السابقة.

إننا لسنا بحاجة لإثبات أن كل التفاصيل التي ذكرها المريض صحيحة، فإذا كانت هناك درجة من الدقة فإن هذا وحده يكفي، تماماً كالشخص الذي يتذكر زيارته لحديقة الحيوان، فما الفرق إذا تذكر هذا الشخص أنه رأى اثنين من الدبة القطبية أو ثلاثة، وعلى ذلك فربما كانت زوجة جان والتي عاشت في العصر اليوناني القديم لم يكن اسمها كلوديا وربما لم تمت وهي ممسكة بيده كما ذكرت في روايتها، من المحتمل أن تكون المرة الوحيدة التي رأت فيها الشاب اليوناني كانت من خلال صفحات مجلة (ناشيونال جيوغرافيك) ولكنها على الأقل قد استوعبت هذا الدرس في تناسخ الأرواح، لقد كانت في كل حياتها السابقة تموت أولاً تاركة رفيقها، أو رفيقتها ولكنها هذه المرة أخبرت طبيبها عن العلاقة الجديدة التي بدأتها، وأنها لن تعيد حياتها بالشكل السابق، ستكون موجودة دائماً، ولن نترك الحياة وتموت كما كانت تفعل في السابق.

وقد وجد الدكتور سبانوس بعد مزيد من التدقيق والبحث في قصة «برايدي مورفي» التي تحدثت بلسانها السيدة فرجينيا تايجي في أثناء تنويمها مغناطيسياً وجد أن السيدة تايجي عاشت مع عمة لها أيرلندية- اسكوتلندية وكانت تحكي لابنة أخيها قصصاً عن العصور القديمة.

ويشرح لنا د. ويز نظرية الفيلسوف والطبيب وعالم النفس السويسري تيودور فلورندي الذي عاش في القرن التاسع عشر والتي تقول إن العقل البشري يشبه المكتبة المليئة بالسنين والصور والحوادث والأحداث والكتب والأغاني وعروض التلفزيون، فكل شيء نراه ونسمعه محفوظ داخل هذا العقل، لا شيء يفقد، فقط بعض الأجزاء تختفي من الشعور ولكن باستدعاء اللاشعور يمكن للإنسان أن يتذكر كل شيء.

وهناك تخصص جديد الآن يعرف بعلم النفس المناعي ويبحث في تنظيم الإنسان لمناعة الذاكرة لديه - تماماً كما يقوم جهاز المناعة لديه بمقاومة أمراض السرطان أو أي أمراض أخرى. ويقول د. ويز إنني أثق الآن أكثر في علم التنويم

بالتريوت والكومبيوتر القتال بأجهزة ذممة العوا

ستيف هـومر

د. يوسف يعقوب سلطان

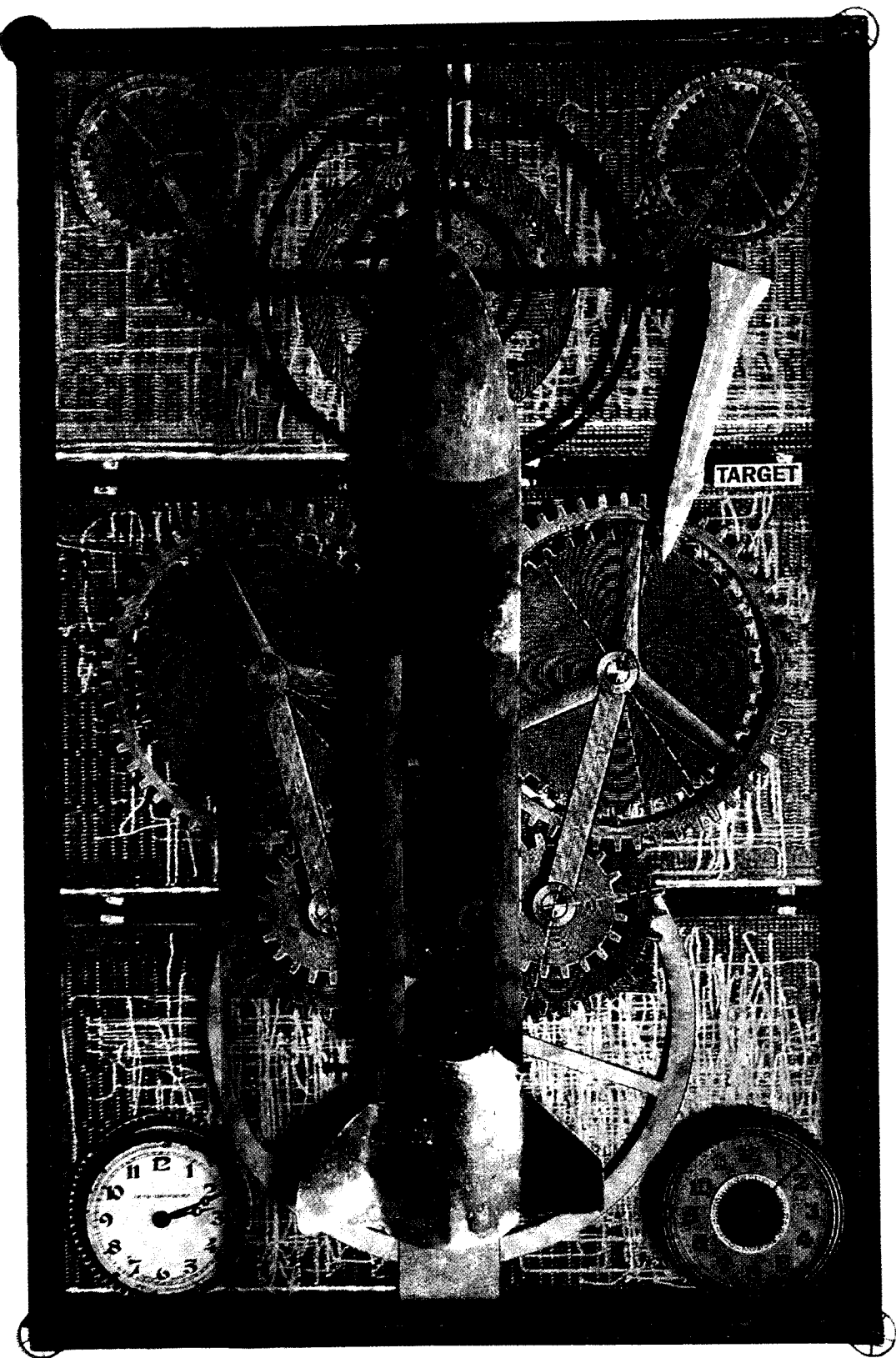
العسكرية وهي شركة رايتيون (Raytheon) ودخل الخدمة في أواسط الستينيات من هذا القرن، بهدف إسقاط الطائرات، لا الصواريخ. واحتاج الأمر إلى إجراء تعديلات جوهرية لتطوير أنظمة التحكم بالصواريخ حتى يتمكن من القيام بدوره الجديد في الخليج، ليتعامل مع صواريخ تزيد سرعتها بمقدار الضعف تقريباً على سرعة الطائرات، ويقتضي مسارات قذائف من ارتفاعات شاهقة وشديدة الانحدار. وفضلاً عن ذلك لم تكن المبرمجات الأصلية للرادار تسمح باستعراض السماء من زاوية يكفي ارتفاعها لتحديد موقع الصواريخ المهاجمة، كما أنها لا تصنف الأجسام التي تقطع مثل هذه

بدأت أجهزة الكومبيوتر، التي تعزز حياتنا اليومية، في التقدم. فهل في مقدورنا أن نتخلص منها، أم أن علينا ان نتعايش مع قصورها؟

في ٢٥ فبراير ١٩٩١، فشلت بطارية صواريخ باتريوت (Patriot) المضادة للصواريخ، بضواحي مدينة الظهران بالملكة العربية السعودية، في اعتراض صاروخ سكود (Scud) موجه، مما أدى إلى قتل ٢٨ جندياً أمريكياً. وقد أخطأ صاروخ الباتريوت إصابة الهدف بسبب خطأ صغير في برمجة الكومبيوتر والتي وضعت كفرضية منذ ٢٥ سنة خلت.

لقد تم تطوير نظام باتريوت بواسطة إحدى الشركات المتخصصة في الصناعة

العنوان الأصلي للمقال : Battling With Veteran Computers, New Scientist. 14 November 1992.



المسارات شاهقة الارتفاع كأهداف محتملة.

وبينما نجحت بطاريات باتريوت في إسقاط صواريخ سكود في مناسبات كثيرة، إلا أنها أخطأت إصابة عدد لا بأس به أيضاً، وإن كان العدد المحدد لهذه الصواريخ ما يزال موضع جدل. وعندما أجرى مكتب التدقيق الحكومي للولايات المتحدة الأميركية تحقيقاً في حادثة الظهران، اكتشف خطأ تردد صداه في عالم مملوء بأجهزة كومبيوتر قديمة تستخدم مبرمجات قديمة.

يقتفي نظام الباتريوت أهدافه بقياس وقت ارتداد نبضة الرادار بدقة. وفي أثناء تتبع الباتريوت لهدفه فإنه يستخدم راداره للتحقق من أنه يقترب من الهدف أكثر أو أنه يتبع مساراً يعترض طريق الهدف. ويستلزم ذلك وجود ساعات دقيقة وثابتة داخل الصاروخ وجهاز الرادار الأرضي الذي يوفر نقطة التثليث لضبط العمليات.

وتعتمد أجهزة التوقيت في أجهزة الباتريوت الثابتة على ساعة رقمية يخصص لها في الكومبيوتر ٢٤ قطعة ثنائية لتسجيل الوقت. ولقد حدد المبرمجون الذين وضعوا هذه البرامج مقدار عشر ثانية لتسجيل التأخير في النبضات المرتدة.

لكن بينما كانت «رقيقة» التوقيت (Timing chip) دقيقة تماماً، لم يكن

المسجل بهذه الدقة، نظراً لمحدودية الدقة التي يتيحها المسجل ذو الأقسام الأربعة

١٩٦ الثقافة العالمية

والعشرين. وفي النظام الثنائي، يعتبر العشر (١/١٠) من الأرقام الصماء حيث يمثل مجموع سلسلة لا متناهية تبدأ على النحو التالي: $1/16 + 1/32 + 1/256$ + وهذه المحددات تعني أن الوقت المخزون سينحرف بمقدار ٢٤٣٣. ثانية عن الوقت الحقيقي لكل مائة ساعة، وهو بالتأكيد انحراف صغير لا يتعدى جزءاً من المليون. لكن هذا الانحراف البالغ الضالة كان كافياً ليحدث ما حدث. فقد ظلت أجهزة الرادار الأرضية، والمحمولة على الباتريوت في الظهران في حالة تشغيل مائة ساعة تقريباً بعد نصبها في مواقعها. وعندما أطلق الصاروخ لاعتراض مسار صاروخ السكود، ترتب على خطأ الوقت المخزون للصاروخ المنطلق أنه أخطأ السكود المتحرك بسرعة كبيرة بمقدار ٥٠٠ متر.

وهناك عاملان أساسيان نجم عنهما هذا الخطأ:

أولهما المحدودية النسبية لكفاءة المكونات المعدنية للكمبيوتر المتاحة في ذلك الوقت، علماً بأن أجهزة الكمبيوتر المتاحة حالياً يمكنها أن تجري عمليات الضرب لأعداد من ٦٤ جزءاً. أما العامل الثاني فيرتبط بالفرضيات التي وضعها المبرمجون الذين فضلوا استخدام نظام الكسر العشري على النظام الثنائي لسهولة عمله سواء بالنسبة لهم أو لجهاز المعالجة.

لقد كتبت برامج كومبيوتر الباتريوت بلغة المُجمِّع (Assembler). وهي لغة

برامج متقدمة غير مربحة قيد الاستعمال. وفي حالة هذه الشركة، نشأت هذه المشكلة حول برنامج يسمى (CIGS) (يتعلق بنظام تحكم لاستعلام العملاء)

وهذا البرنامج، الذي نشر لأول مرة عام ١٩٦٩ هو نظام برامجي ثانوي يعمل في الوقت الواقعي، أي أنه يتعامل مع المدخلات والمخرجات لحظة حدوثها بهدف معالجة الملفات أو البيانات من أجهزة الصرف النقدي الآلية، وأنظمة حجز وكلاء الشحن وشركات الطيران. ويعتمد على هذا البرنامج آلاف من المستخدمين في كافة أرجاء المعمورة في تنظيم أعمالهم، مثل البنوك وشركات الطيران، وخطوط السكك الحديدية وشركات توليد الطاقة، الخ.

ويتيح هذا البرنامج للمستخدمين فرصة المشاركة في البيانات المخزونة إلا أنه يضمن في الوقت ذاته عدم تداعي أو فقدان هذه البيانات عندما يستعلم عنها عدة مشتركين، وفي آن واحد (قد يصادف من دون تحكم هذا البرنامج أن أحد المستخدمين يحاول تغيير معلومة ما، بينما يحاول آخر وفي نفس الحين حذفها مما يترتب عليه إرباك الجميع). وفي عام ١٩٨٨، وبعد سبعة تطويرات للبرنامج وإجراء تعديلات عليه، أعلن ديف بولين (Dave Pullin) مدير أعمال مبرمجات شركة «آي بي أم» في المملكة المتحدة أن هذا البرنامج قد أصبح «مقيداً بالحبال» وبصورة كبيرة. ولقد أمضت أجزاء من هذا البرنامج في الاستخدام ولدى تسع

للأجهزة تزيد بمستويين فقط عن شفرة اللغة الثنائية. وترشد هذه اللغة أجهزة الكمبيوتر لكي تستعمل سجلاتها ومواقع الذاكرة بها خطوة خطوة. وفي ظل هذه اللغات، يتبع المبرمجون المختلفون مسارات مختلفة تماماً ليصلوا إلى النتيجة ذاتها. ويحتمل أن تؤدي الشفرة الناتجة إلى متاهة معقدة تتشتت هنا وهناك، لا شيء إلا لأن هذه المسارات قد راقت للكاتب المبرمج كفكرة جديدة. إن مثل هذا «التشفير الأسباجيتي» كان شائعاً في المراحل الأولى للكمبيوتر، قبل أن يدرك المهتمون بشؤون الكمبيوتر أنه قد يؤدي إلى مشاكل جمة إذا ما حاول مبرمجون آخرون فهم المبرمجات وتحديثها.

ويؤدي بنا ذلك إلى أن نتساءل: كم عدد النظم العسكرية الأميركية الأخرى التي قد تعاني من المشكلة ذاتها؟ تقول سالي أولبنسكي من مكتب مساعد مدير التدقيق العام «لا توجد لدي إجابة محددة، ولكن نظام برمجة المؤسسات بالكمبيوتر بدأ العمل به منذ السبعينيات، وبالتالي فلا بد أن تصبح أنظمة عديدة قديمة بعد مرور عشرين سنة».

لم تكن المعاناة من التقادم من نصيب المؤسسات العسكرية فحسب كما اكتشفت شركة «اي. بي. أم» (I.B.M.) وهي إحدى أكبر الشركات العالمية في إنتاج أجهزة الكمبيوتر، فحتى مجال استخدام الكمبيوتر في الأمور الحياتية اليومية، قد ينتهي الأمر بالاضطرار للإبقاء على

للبرنامج بهدف استكمال عمليات خاصة. وفي واقع الأمر أن هؤلاء المستخدمين قد استخدموا شفرة المعكرونة لتطوير النسخ القديمة من البرنامج لتؤدي دور البرنامج المعدل. إلا أن التركيبة الداخلية للبرنامج المعدل لا تسمح بمثل هذه التعديلات الإضافية. وقد يؤدي استحداثها إلى نتائج غير متوقعة أو مرغوب فيها. وعلى الرغم من أن الشركة كانت تملك حقوق التصرف، إلا أنها لم تجرؤ على التنبيه على زبائنها الرئيسيين بعدم جدوى ذلك.

إلى الجحيم والنفور للدعم

توصلت شركة أي بي أم إلى أن الحل يتمثل بإضافة مجموعة من الوظائف إلى نسخ البرنامج المعدلة وبتشجيع المستهلكين لإجراء التعديلات التي يتيحها لهم الحق القانوني (لنهايات المجالات فقط - Terminals) ويجري العمل حالياً لتطوير نسخة معدلة أخرى تحت رقم (٣،٢). كما تؤكد شركة أي بي أم على التزامها بدعم النسخ المتقدمة حتى تتداعى كلية. وسوف يتم إخطار الزبائن بالحلول للتغلب على أي صعوبات أو فيروسات قد يواجهونها. كما سيزود الزبائن بالتطورات حالما يحتاجونها. وتحت الشركة على التحول إلى النسخة الأحدث حيث ستقدم الدعم اللازم.

وقد شاركت شركة الأجهزة

عشرة سنة من دون تطوير أو تحسين. يحتوي البرنامج سابق الذكر على مليوني سطر من الشفرات (Code) لذا، كان من الواضح أن حجمه لا يسمح بمحوه وإعادة كتابته بالكامل. لذلك، قررت شركة أي بي أم أن تعيد بناءه وإضافة بعض الأقسام إليه لتسهيل عملية صيانتها، إذ إن البرنامج كان مكتوباً بأقسام كبيرة أطلق عليها اسم مجالات (Domains)، وهو مدخل منسق تركيبياً للبرمجة. ويمثل كل مجال قسماً كبيراً من البرنامج، يعتمد على نفسه إلى حد ما، ويمرر قيماً ناتجة من حساباته إلى مجالات أخرى. وكما صرح بولن فإن كل مجال من هذه المجالات يدرى واجباته جيداً، وإنما الحاجة تأتي من عدم قبول أعمال الآخرين في داخل المجال. فإذا لم ينفذ هذا العمل، فسينتهي المطاف، لا محالة، إلى شفرة تقترب من شكل المعكرونة. وسينتج عن ذلك آثار جانبية غير متوقعة. وفي نسخة البرنامج المعدلة والتي تحمل رقم (٣،١)، قامت شركة أي بي أم بتنظيف حدود المجالات، وأكدت أنه لا يمكن الاتصال بداخل أي من المجالات الأخرى. كما افترضت الشركة بأن هذه النسخة المعدلة تتميز بسهولة الفهم والحفظ والتوثيق والصيانة.

وعندما تسلم المستهلكون في يونيو ١٩٨٩ نسخة البرنامج المعدلة، تعالت صيحات التذمر من المستخدمين الذين وصفهم بولن بأنهم قد حشروا أنوفهم وأفتوا بأبعد مما يجب في الشفرة الداخلية

الحسابية (Computiny Devices) وهي شركة للمبرمجات بشرق سسكس بالملكة المتحدة، في الأعمال العسكرية منذ عام ١٩٦٢ حيث اعتمدت على أجهزة حاسوبات أصبحت الآن متقدمة. وفي معظم الأحيان، تحدد مواصفات الأنظمة العسكرية قبل خمس سنوات من دخولها الخدمة حيث تبقى في الاستخدام لمدة تربو على العقدين. ويوضح كريس هيبدن (Chris Hepden) مدير مبيعات الأجهزة الحاسبة أن الأنظمة المستخدمة في السبعينيات والثمانينيات كانت تبني حسب مواصفات لأجهزة حاسوب متخصصة، لذا فلقد استلزم الأمر أن تتم كتابة المبرمجات خصيصا لهذه الأجهزة، ويمثل تطوير مثل هذه النظم مجال عمل مستقلا، لا يشبه نمط شراء معالج للكلمات. وقد تنشأ آثار غير متوقعة من أبسط التغييرات، لذا يجب ضبط مثل هذه الأنظمة وبدقة متناهية. وعلى الرغم من اعتقاد هيبدن أن البرمجة المركبة، مع إتاحة مناطق مستقلة في البرنامج، مدروسة بعناية، إلا أن ذلك يستوجب عناية أكبر في التصميم، وجهدا أكبر في كتابته، إلا أن صيانة وتطوير البرنامج يصبح أكثر سهولة على المدى الطويل. ويضيف هيبدن أن الاستعانة بالأساليب الجامدة للمبرمجات المركبة قد تنتج برامج على درجة منخفضة من الكفاءة وتعمل ببطء كبير، تستوجب الحاجة إلى حاسة تمييز ورؤية نافذة لإنتاج شفرة جديدة. إلا أن هندسة المبرمجات، كما هو

في هندسة أجهزة الحاسوب، تتطلب وتعتمد على تركيبة مادية بسيطة.

لا تتقادم المبرمجات فقط وتصبح عاجزة، بل تتأثر أيضا أجهزة الحاسوب التي تشغل هذه المبرمجات، وتظل الحاجة قائمة لصيانة هذه الأجهزة التي قد تعمل لفترات طويلة. وتنتهج شركة الأجهزة الحاسبة مداخل عدة في سبيل صيانة أجهزة الحاسوب البالية. ويتمثل أحد هذه المداخل فيما يطلق عليه «الشراء مرة في العمر»، حيث تزود الحواسيب برقائق كافية عند تركيبها لتسد أي حاجة مستقبلية غير متوقعة. وحيث إنه يتم التزويد بمثل هذه الأنظمة المركبة على أساس عقود طويلة الأجل، لذا يميل الموزع إلى مراقبة قطع الغيار وإلى إحاطة المستخدم بالمشاكل التي تتعلق بالحصول على القطع اللازمة للتشغيل. وفي عصرنا هذا، يهدد التطور المتسارع في مجال الحواسيب والمبرمجيات وقد يعرقل تنفيذ مثل هذه الاستراتيجيات والتوجهات. ويعبر هيبدن عن ذلك بالقول: إن استمرارية التزويد بقطع الغيار كان من أوائل اهتماماتنا وبصورة دائبة، إلا أن التغير المتسارع والتحول الكبير في تكنولوجيا الحواسيب يسبب تقادم أجزاء الحاسوب ومكوناته وبصورة متسارعة ومواكبة أيضا.

ما زال الجهد المتمثل في تطوير الأجهزة القديمة بحيث تجاري متطلبات العصر من الأمور الجديرة بالاعتبار والتمحيص،

فضاء عملاق وحاسوبات صغيرة

على الرغم من التطوير العصري لمكوك الفضاء، فإن التحكم فيه يتم بواسطة جهاز للحاسوب على متنه يقل في قوته كثيراً عن أجهزة حاسوب مكتبية عصرية عديدة. وعندما بدأت رحلات المكوك الفضائي في أبريل ١٩٨١، استخدمت خمسة أجهزة للحاسوب على متنه من نوع أي ب أم آب ١٠١ ب (IBM/ AP 101.B) يعود تاريخها إلى منتصف

السبعينيات وتعمل على نفس نمط قاذفة القنابل ب ١ (B1) ولقد جابهت وكالة الفضاء الأميركية مشكلة توافر قطع الغيار بالسرعة المطلوبة، إلا أن الوكالة لم تستعجل اتخاذ قرار إبدال هذه الحواسيب، إذ إنها وعند إطلاقها في الفضاء على متن المكوك تحتاج إلى وقاية خاصة ضد الذبذبات الشديدة والتسارع العظيم في أثناء الإطلاق والهبوط، كما تتطلب حماية من الإشعاع في أثناء وجودها في الغلاف الجوي. وفي النهاية، اختارت الوكالة وفي عام ١٩٨٤ أن تطور أجهزتها إلى أجهزة أخرى مشابهة وهي أي بي أم آب ١٠١ أس (IBM / AP-101 S) وبالرغم من أن هذه الحواسيب قد

دخلت الخدمة في العام المنصرم فقط إلا أنها قد ضاعفت من ذاكرة وسرعة الأجهزة المتقدمة، وإن كان ذلك بمثابة تحسين ضئيل بالمقارنة مع التطوير الكبير الذي توخته الوكالة. واليوم، يتم

إذ إن اتخاذ قرار اقتناء جهاز جديد يعتبر أمراً خطيراً وحاسماً. ذلك لأن المبرمجيات التي استخدمت أو تستخدم على جهاز حاسب قديم، والتي أثبتت جدارتها على مدى الزمن، قد تشكل استثماراً كبيراً. هذه المبرمجيات في أغلب الأمر لن تتوافق مع الأجهزة الجديدة. وقد يحتم تغيير جهاز الحاسوب ضرورة استبدال كافة أدوات وأجهزة الإدخال والإخراج مثل شاشات الحواسيب، الطابعات، وسائل التخزين، إلخ، وهذا يقود - حتماً - إلى تكاليف مصروفات إضافية، وانقطاع عن العمل. إضافة إلى ذلك، فقد يضحي الحاسوب أداة للتحكم في أنظمة مهمة ضرورية وحيوية لا تتحمل الانقطاع أو التوقف لأي فترة زمنية.

تواجه وكالة الفضاء الأميركية - ناسا (NASA) أعقد وأصعب مشاكل تنجم عن أي حاسوب في العالم على الإطلاق لذلك يستوجب أن تضع هذه الوكالة مواصفات لاحتياجاتها من أجهزة الحواسيب لسنوات قادمة من الاستخدام، فعلى سبيل المثال تواجه الوكالة مشكلة إصلاح أجهزة الحواسيب أو تعديل مبرمجياتها عندما تكون هذه الحواسيب تدور في مدارات مختلفة في الفضاء. وفي المركبات الفضائية، كما في المكوك الفضائي، هناك أهمية حيوية وقصوى تتعلق بضرورة تشغيل الحواسيب بصورة منتظمة وبأداء كفاء للمحافظة على حياة ومتطلبات رواد الفضاء.

شركة فيرانتتي أرجوس (Feranti Ar- 500) دخلوها إلى الأسواق بأول جهاز حاسوب في العالم يستخدم معالج بيانات من أشباه الموصلات (Semiconductor Processor) مقارنة مع نظام الصمامات الحراري الزيوني.

ولقد اتخذ مجلس توليد الكهرباء المركزي البريطاني (Central Electricity Generating Board) قرارا حاسما، لذا فمنذ ١٩٦٠ يتم تنظيم شبكة توزيع الكهرباء بزواج من الحاسوبات أرجوس ٥٠٠، تعمل ٣٦٥ يوما في السنة. وعلى أية حال، فإن إبقاء هذه الحاسوبات عاملة على مدار السنة لا يخلو من المصاعب والتحديات.

لقد أعدت مبرمجات الأنظمة المبدئية بلغة تسمى أبريل (April) إلا أن هذه اللغة قد تلاشت منذ أمد بعيد. ولم تكن المشكلة في ندرة هذه اللغة أو في مدة استخدامها، بل كانت في نقص الوثائق. فبعد ثلاث سنوات من استخدام النظام، قرر المجلس المركزي تطوير مبرمجاته الخاصة به. ويقوم على صيانة هذه الأنظمة حاليا مبرمج يعمل على مجمع النظام لمدة عشرين عاما. وعندما سُئل ديريك روبرتس (Derek Roberts) رئيس مجموعة آليات التحكم في المجلس: ماذا قد يحدث لو لقي هذا المبرمج حتفه؟ أجاب بعد فترة من التفكير: لا نود أن نفكر في هذا الاحتمال.

ولحسن الحظ فإن مثل هذا الموقف لا يشكل خطورة كبيرة على الشركة. ففي

تركيب خمسة حواسيب جديدة لها ذاكرة كلمات لا تتعدى ٢٦٢ ألف كلمة من ٣٢ قطعة لكل كلمة بالذاكرة. وهو ما يقابل ميجابايت واحدا على قياسات الحاسوب الشخصي (Personel Computer).

وفي صدد البحث عن طرق مواءمة المبرمجات القديمة مع الأجهزة الحديثة، تدرس شركة الأجهزة الحاسبة البريطانية ما يسمى «بالمشابهة» أو «المحاكاة» Em-ulation والتي تهدف إلى تشغيل المبرمجات بحيل تجعل الأجهزة الحديثة تتصرف وكأنها أجهزة قديمة متداعية. وتتمثل هذه الميزة في أن المحاكاة يمكنها كذلك تشغيل البرامج الحديثة وبفضل هذا الأسلوب أمكن المساعدة في إحياء نظام للحواسيب ذوي أهمية حيوية وجوهرية لسلامة الاقتصاد البريطاني، تستخدمه الشركة القومية لشبكة التوزيع الكهربائي التي كانت تحتاج إلى نظام حاسوبي يفنقر إلى قطع غيار عديدة لم تكن متاحة آنذاك.

ولقد نمت، وبسرعة كبيرة، شبكة توزيع الكهرباء القومية في مطلع الستينيات حيث اشتملت مسؤولياتها على توزيع الكهرباء من مصادر القوى إلى كافة أرجاء بريطانيا، وقد اعتمد نظام التحكم القديم على أجهزة قياس ميكانيكهربائية يسمح للمشغلين بمراقبة النظام في أثناء العمل. وتم التخطيط على أن يعتمد نظام التحكم في مقره الجديد بشارع بارك في لندن على أجهزة القياس هذه أيضا وفي مرحلة التصميم أعلنت

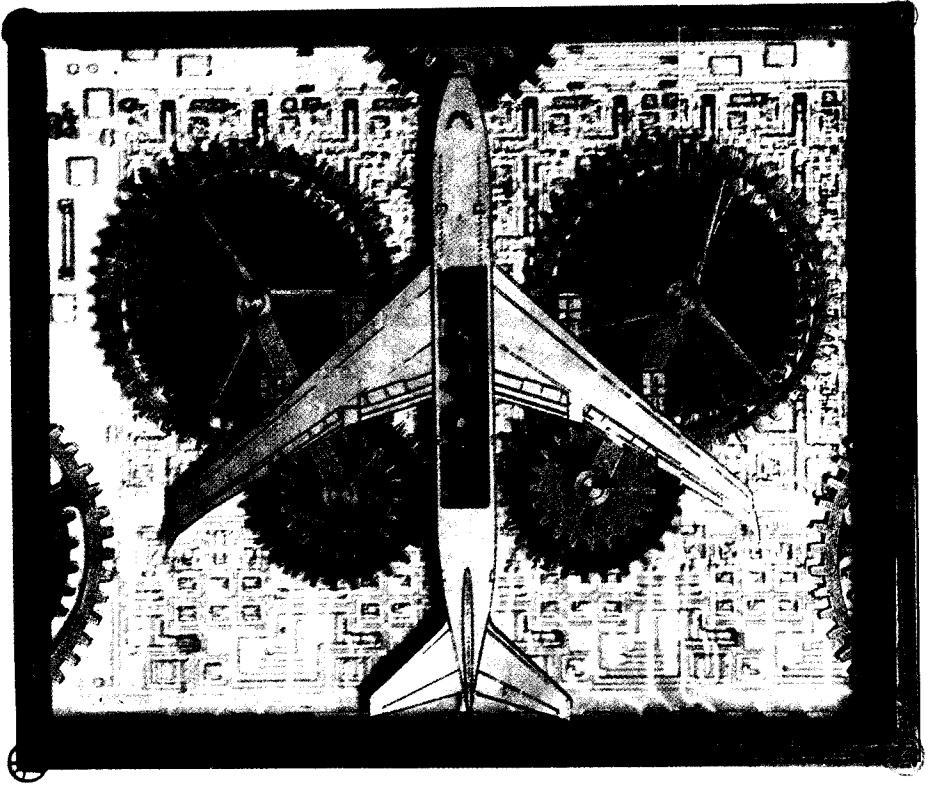
(millseconds)، وهي سرعة تفوق سرعة الأقراص الجامدة في أغلب الحواسيب الشخصية.

إلا أن أكبر المشاكل تقع في ذاكرة النظام الرئيسية التي تستخدم كمخزن رئيسي. فقد استخدمت هذه الذاكرة مغناطيسيات حديدية صغيرة جداً لاختزان المعلومات حيث يتصل كل قرص حديدي بسلكين، يكشف أحدهما عن استقطاب الحقل المغناطيسي للقرص، ويمكن قلب هذا الاستقطاب بواسطة السلك الآخر، وبينما قدم هذا النظام خدمة أصلية خالصة لعدة سنوات، إلا أنه أضحى ومنذ أواسط الثمانينيات محل شكوك، حيث تم إحلال ذاكرة عصرية من نظام يستمد فكرته من أشباه الموصلات ذات كفاءة تشغيل أسرع بعشرين مرة، وتشغل مساحة أصغر. والجدير بالذكر أن النظام الجديد تحتم تشغيله بنفس سرعة المخزن الرئيسي ومعالج البيانات الأصلي، وإلا فقدت بقية أجزاء النظام القدرة على الاتصال معها بكفاءة. ولقد صمم خبراء الاليكترونيات في شركة فيرانتى (Feranti) وحدة تقوم بمحاكاة مخزن المغناطيسيات الحديدية ووحدة المعالجة المركزية في مبرمجات، حيث تقوم هذه المبرمجات باستقبال المدخلات الأصلية وتحويلها إلى مخرجات موحدة ومتماثلة، إلا أن هذه الوحدة تعمل على أجهزة حواسيب حديثة.

ومن المتوقع أن يتولى في ربيع ١٩٩٣ مركز جديد في مقاطعة شيشاير (Che-

أواسط الثمانينيات واجه نظام أرجوس مشكلة في مسيطرة التغيرات في شبكة توزيع الكهرباء القومية، وفي قاعدة البيانات للوصلات بين محطات القوى المختلفة، وبين المحطات الفرعية وخطوط القوى التي فاقت تعقيداتها قدرة الذاكرة الداخلية للأجهزة، إذ تتكون حدود ذاكرتها الداخلية من مواقع كل منها ٤٨ بيت وعددها ٦٤ ألف موقع، وهو يعادل ٣٨٤ كيلو بيت. وعليه، فلقد قرر المجلس المركزي دعم أجهزة الأرجوس بأنظمة حاسوب دقيقة من نوع دي إي سي فاكس (DEC VAX) يمكنها محاكاة وظائف الأرجوس.

يختلف نظام أرجوس المعمول به حالياً عن الأنظمة التي كانت في الخدمة في ١٩٦٦. ففي بادئ الأمر كان الاختزان الرئيسي للمعلومات يتم على نظام مغناطيس يحفظ على أسطوانة. ويتركب هذا النظام من أسطوانة دوارة سطحها مغطى بمادة ممغنطة يمكن الكتابة عليها والقراءة منها في جهاز التسجيل. وكانت أول أسطوانة ذات سعة ٢٥٦ كيلو بيت، وهي سعة اختزان تقل كثيراً عن أغلب الأقراص الممغنطة. وقد استبدلت بهذه الأسطوانة نظام اختزان للمعلومات يسمى نظام بوروز (Burroughs) يمكنه الاحتفاظ بالمعلومات على قرص مفرد قطره حوالي ٨٠ سنتيمتراً. وبينما يمكن اختزان ٢ ميجابيت من المعلومات فقط على هذا القرص، إلا أن وقت الاتاحة يقع بين ٥ و ١٥ جزء من الألف من الثانية



من الحواسيب. وإذا ما نجمت مشاكل متعلقة بالبرمجيات فسينبغي لها العديد من المبرمجين القادرين على تفهم واستيعاب هذه المشاكل وحلها. وإذا ما تطلب الأمر إبدالا في قطع الحواسيب، فلا مراء أن الشركة ستلاقي الترحيب، جل الترحيب من مختلف الموردين.

لا يقتصر استخدام أنظمة فيراتي على قطاع الكهرباء فقط، بل وتستخدم أيضا في التحكم بالعمليات في المنشآت الصناعية، الكيمائية، تدريب المحاكاة، وحتى في محطات الطاقة النووية. ولقد توصلت شركة فيراتي إلى حلول لمشكلة تقادم وتداعي الأجهزة باستخدام مجموعة محاكاة مطابقة في الأداء للأنظمة

shire) البريطانية مسؤولة شبكة التوزيع. ويبدو أن نظام أرجوس سيظل في الخدمة. فبينما تخطط الشركة القومية لشبكة توزيع الكهرباء للتحويل إلى نظام جديد، إلا أنه يمكنها العودة مرة أخرى إلى الأرجوس إذا ما برزت أي مشكلات أو عقبات. فقد يكون نظام الأرجوس متداعيا ومحدود الكفاءة، إلا أنه قد أثبت قدرته على العمل واكتساب الثقة والمصادقية.

لقد تعلمت الشركة القومية لشبكة توزيع الكهرباء من مشاكلها وأخطائها، ولذلك فلقد تبنت سياسة لشراء أنظمة حاسوبية تعتمد على نظام تشغيل يدعى نظام يونكس (Unix). حيث يتيح استخدام هذا النظام تشغيل عدة ماركات

القديمة، والتي تتيح استمرار استخدام المبرمجات القديمة والفرعيات الأصلية. فعلى سبيل المثال، يتيح هذا الأسلوب استمرار استخدام قارئء أشرطة قديم، يحمل برنامج عمل معيناً. ويمكن أيضاً تخطي نظام الأرجوس كلية، واستعمال نظام جديد، وفي هذه الحالة يستخدم النظام القديم كلوحة توصيل فقط لقنوات الكشف والتحكم. ومن عيوب هذا الأسلوب أن وحدات أو مكونات المحاكاة تُصنع بصورة متخصصة جداً، وعلى هذا يكون سعرها مرتفعاً، سيما عندما نكتشف أن أجهزة أرجوس ٥٠٠ المستخدمة بالعشرات وليست بالآلاف.

ولقد بدأت تبرز مشاكل مشابهة في أنظمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأجزاء التي نتحكم بها في مجالات متعددة. فعلى سبيل المثال، تحلق مئات من الطائرات التجارية عبر المحيط الأطلنطي باستخدام القبطان الآلي، والذي قد يزيد عمر تصميمه على عمر العديد من الركاب.

ففي حين يمكن استبدال أجزاء كثيرة من نظام معلومات الطائرة أو تطويرها، فإن القبطان الآلي لكل نوع من الطائرات قد صمم بعناية فائقة، اذ يتميز كل نوع بخصائص أداء مختلفة تماماً عن نظرائه، بما في ذلك الاستجابة للارتفاع والانخفاض وعوامل الطقس ودرجة انثناء الأجنحة عند التحميل والاستجابة لمختلف أوضاع المحركات، إلخ. وتعتبر عمليات القبطان الآلي أساسية لمنح شهادة الكفاءة والسماح بالتحليق

للطائرات، لذا تحجم الشركات عن تطوير أو العبث بنظام القبطان الآلي، إذ يتطلب ذلك إجراء فحص شامل وتجارب كاملة على الطائرة برمتها مرة أخرى.. وقد حاولت بعض الشركات تطوير قبطان آلي شامل وعام يمكن تركيبه واستخدامه في أي طائرة وبرمجته حسب مواصفات وخط سير هذه الطائرات، إلا أن هذه الجهود لم تحصد النجاح المطلوب.

عمر الطائرة

ماسبق ذكره يفيد أن شركات الطيران التجارية، لاسيما المتخصصة بالالكترونيات الطيران، يتوجب عليها ان تقدم الدعم المطلوب فعلى سبيل المثال، تقوم شركة هوني ويل (HONEYWELL) بتصنيع أنظمة التحكم لحساب أغلب شركات الطيران التجارية الحالية، بما فيها نفاثات البوينغ ٧٢٧، ٧٣٧، ٧٤٧ وعددها ٥ آلاف طائرة، تزيد سنوات خدمة بعضها عن الثلاثين عاماً. وتبعا للقانون الأميركي، فإن على هذه الشركة أن تقدم ما يثبت صلاحية الأدوات والأجهزة والآلات التي زودت بها الطائرات ما دام هناك ثلاث طائرات من نفس النوع تحلق في أي مكان في العالم. وقد يكون مثل هذا الالتزام طويلاً الأجل. فحيث تضم شركة هوني ويل شركة سبري لأنظمة الطيران (Sperry Flight Sytem Company)، فإنه يتحتم عليها تزويد طائرات داكوتا المروحية

الجهاز لهذه البيانات وفهم ماذا يحدث من حوله، وعندما حوصرت المشكلة، أمكن القضاء عليها مباشرة بواسطة تطوير نظم مبرمجات أكثر حداثة.

لامراء، أن الأمر يتطلب أن نعتمد على مبرمجات قديمة وأجهزة متداعية كما أننا مازلنا نستخدم الجسور القديمة، بعضها عمره يربو على عدة عقود، إلا أنها مازالت تدعم الطرق الرئيسية. وكما لا تسمح الظروف بقيادة حاملة وزنها ٣٥ طناً على جسر يتحمل ٢٠ طناً فقط، فليس لنا أن نتحاشى استخدام مبرمجات قديمة أو أجهزة عتيقة، وكل ما في الأمر تحديد قدراتها وصيانتها بصورة دورية وجيدة.

وبالطبع، قد لا يكون الجميع محظوظين في تعاملهم مع حواسيب قديمة، فكما ورد في تقرير مكتب التدقيق الحكومي الأمريكي حول حادثة الظهران، فإن أحد التعديلات التي أدخلت على نظام الباتريوت هو إضافة مسار تحتي قصير في برنامج يحسن من قدرته على حساب الوقت. ولقد أرسل هذا التعديل إلى القيادة الأميركية في الخليج، إلا أنه تم تسلمه في اليوم التالي للحادث المميت.

لقد أخطأ صاروخ الباتريوت في إصابة صاروخ السكود بسبب غلطة صغيرة في برمجة الحاسوب، ترتب عليها خطأ في ساعته الداخلية بجزء من المليون.

بالمنظمات وأدوات القياس الخاصة، علما بأن هذه الطائرات بدأت بالتحليق قبل الحرب العالمية الثانية. ومن أهم المميزات التي تستمتع بها صناعة الطائرات: اشتراط هيئة الطيران المدني (Civil Aviation Authority) وهيئة الطيران الاتحادي (Federal Aviation Authority) بتقديم مستندات ووثائق مبرمجات على مستوى عال جداً والتي تجعل حتى من صيانة الأنظمة المتقدمة أمراً هيناً نسبياً.

وقد لا يمنع جل الحرص في العالم حدوث بعض الأغلط. فمنذ أربع سنوات خلت، وبعد أخذ ورد لمدة طويلة نزلت إلى الأسواق طائرة بوينغ ٧٤٧ / ٤٠٠. وفي محاولات الطيران الأولى تكرر حدوث أمر غريب، فقد أبطأت الطائرة سرعتها فوراً بعد الإقلاع وبصورة مفاجئة حيث وصلت إلى حالة بطيئة عند الارتفاع. وبالرغم من أن هذا قد لا يعدو أمراً خطيراً، إلا أنه - لا شك - قد أزعج طاقم الطائرة. وبعد الفحص الدقيق، انحصرت دائرة الخطأ في مسألة تبادل المعلومات بين محرك الطائرة وبين مفاتيح التحكم بها، لاسيما تلك التي تتحكم في الانطلاق والتي تراقب الظروف العامة ونظام إدارة الطيران. ولقد صرح المسؤولون في شركة هوني ويل بأن الحاسوب كان يقوم بتغذية بيانات خاطئة في جهاز إدارة الطيران حيث نجم عنه سوء تفسير

الثقافة الأميركية في خدمة التجارة

فاتن عبد الرحمن

هربرت شيلر

لأن منظمي المشروعات الأميركيين صادفوا من العراقيين أقل مما واجهه الآخرون، أصبح النموذج الرأسمالي يتجلى في أنقى صوره في الولايات المتحدة، وفيه تحتل الدعاية الإعلان مكانة مركزية. وحتى تؤدي هذه الدعاية دورها كاملاً كنظام يهدف إلى توصيل السلع المنتجة والخدمات إلى المستهلكين، وإلى التأكيد في كل لحظة على أن الديمقراطية هي الاستهلاك، كان لابد أن تصبح الصحافة المكتوبة والراديو والتلفزيون والبرق والأقمار الصناعية أدوات للتسويق التجاري.

وقد كانت تحرك الآلة الأميركية لصنع الصور والمعلومات قوتان تختلف كل منهما عن الأخرى، ولكنهما مرتبطتان فيما بينهما، وهما : القطاع العسكري، وعالم الشؤون التجارية.

كما أن القوة الاقتصادية والعسكرية امتزجت أيضاً بالرغبة في الإقناع الأيديولوجي.

وهكذا يلخص صحفي متخصص هذا التطور على النحو التالي: «إن الحرب الباردة جلبت للبحث العلمي أكثر مما حصل عليه في أي وقت مضى، والواقع أن تدفق رؤوس الأموال والمواهب والإمكانات لم يسبق له مثيل». وبالتالي، فإن استثمارات هذه الأموال ساعدت على ميلاد «كافة صناعات المجال الفضائي والاتصالات والإلكترونيات».

وأدى تكاثر المشروعات التي صممها العسكريون ورجال الصناعة في آن واحد إلى ميلاد عصر الاتصالات. والواقع أن أكبر المستفيدين من هذه الطاقات الجديدة في مجالات الإنتاج والنقل والتوزيع الإعلامي كانوا هم الأبطال الرئيسيين للحرب الباردة: شركات متعددة الجنسيات، وكالات سياسية وعسكرية ومخابراتية.

العنوان الأصلي للمقال : La Culture Americaine au Service des Marchands, La Mond Di plam-atique, October 1992.

فالتقنيات العصرية أتاحت لهم الوسائل لإدارة مختلف أنواع النشاط التي يمارسونها في أنحاء مختلفة من العالم، ونقل رؤوس أموالهم، ومراكز إنتاجهم، وإضعاف نفوذ التنظيمات النقابية. وفي الوقت نفسه، أقام البنّتاغون وأجهزة المخابرات شبكات للأقمار الصناعية للاتصال مع مؤسساتها المنتشرة في أنحاء العالم.

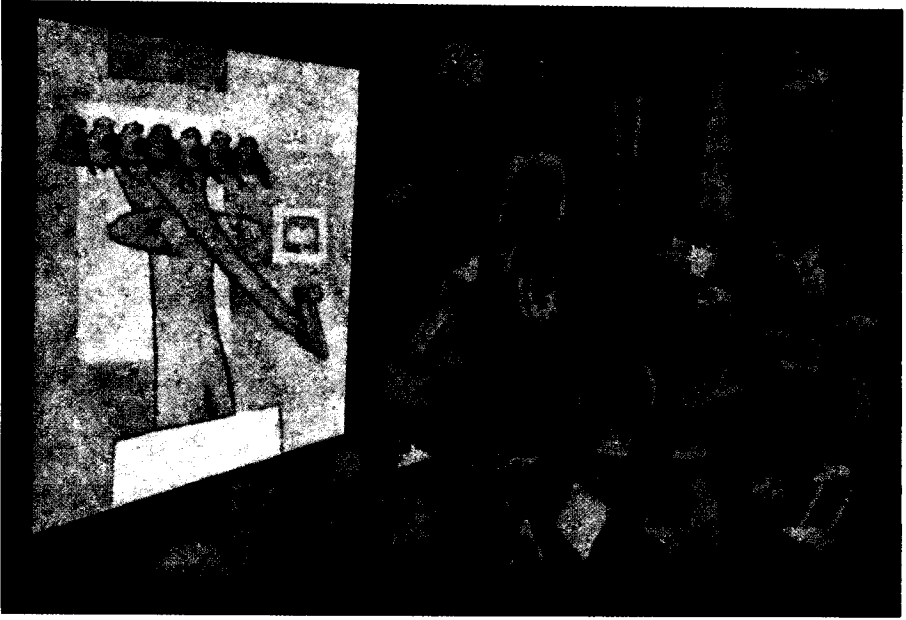
وكان هناك اعتقاد بأن هذه القوة التكنولوجية ستتيح الفرصة لتعزيز الهيمنة الأميركية واستمراريتها. ولكن سلسلة من الأحداث الدولية وعلى رأسها حرب فيتنام فتتت عضد هذه السلطة. كما أن النمو الذي حققته ألمانيا واليابان قلل من نفوذ الولايات المتحدة، ولكن ليس في المجال الأكثر حسماً وهو مجال الاتصالات.

وخلال العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، لم تكن هناك حاجة لمراعاة أذواق وخيارات المشترين المحليين أو الأجانب نظراً لندرة المنافسين. وشجع الازدهار الاقتصادي على طرح المنتجات الأميركية في الأسواق دون أي جهود إعلانية متميزة على الرغم من أن ظهور التلفزيون كان يمكن أن يمثل أداة خارقة للتسويق. ولكن، منذ انتهاء حقبة الستينيات، تبدلت أحوال الصناعة الأميركية، وبدأت المنافسة الأجنبية تضغط بثقلها. واليوم، يبدو تباطؤ الإنتاج ملحوظاً في كل مكان. ومنذ عشرين عاماً، أخذت تتصاعد حمى السعي وراء المستهلك. ففي حين راح يتداعى النفوذ الأميركي، فإن المجال الذي ما زال يسيطر عليه هذا النفوذ بلا منازع - وهو مجال الثقافة الشعبية التي تبثها الوسائل الإعلامية - يستفيد من التقنيات التي وضعت في الأساس من أجل خدمة السياسة الإمبريالية. وقد أصبحت هذه التقنيات - من الآن فصاعداً - تستخدم لاجتذاب المستهلكين.

وقد ظهر قطاع اقتصادي جديد هو صناعة المؤثرات الخاصة. واستخدام المؤثرات الخاصة قديم قدم السينما، ولكنه أصبح منذ عهد قريب من المكونات الأساسية للفيلم السينمائي.

وهناك عدة عوامل تفسر المكانة المركزية التي تحتلها هذه المؤثرات الخاصة في الثقافة الشعبية المعاصرة. ولكن أحد هذه العوامل يبدو مهيماً، وهو تكثيف جهود التسويق من أجل الحفاظ على معدلات الاستهلاك. ومن أجل تحقيق هذا الهدف استخدم كبار منتجي السلع الأميركيون ووكالاتهم الإعلانية وسائل دعائية لملاحقة المستهلك بشكل متزايد. وتزامن هذا الضغط الإضافي مع ظهور منافسة عالمية حادة للغاية، ومع استمرار الركود الاقتصادي الداخلي.

وفي مثل هذه الظروف، ماذا يمنع استخدام هذه التقنيات التي ابتكرت في الأساس من أجل خدمة نشاطات أخرى؟ فالواقع أن استخدام هذه الطاقات التي تعتمد على الوسائل السمعية والبصرية قد فتح أبواباً جديدة لتكثيف الحماس، وجذب الانتباه بقوة وإثارة



« ١٩٥٢ فيكتور برونه »

وتركيز الاهتمام. وهكذا تملك صناعة المؤثرات الخاصة الفرصة لاستيعاب التقنيات المستخدمة في مجالات أخرى «العلوم، الطب، التخطيط على العقول الإلكترونية» وتطويعها بصورة مذهلة.

وسعت خطط التسويق إلى التشجيع على شراء عدد متزايد من منتجات الصناعة الإلكترونية التي ظهرت تقريباً في نفس الوقت ، مما أدى على سبيل المثال إلى أن تفقد مجموعات الأسطوانات وأجهزة التسجيل الموجودة بالفعل جاذبيتها. وأدى ظهور العقول الإلكترونية الشخصية وانتشارها على مستوى جماعي، وكذلك أجهزة الفيديو والأسطوانات المضغوطة، إلى خلق أفاق جديدة للاستهلاك، وظهور أجهزة التلفزيون ذات التصميم المتطور سيؤدي إلى أن تصبح مئات الملايين من الأجهزة التي تستقبل الإرسال التلفزيوني الأميركي عديمة الجدوى، وعتيقة الطراز.

وخلال الأعوام الماضية، استعانت وسائل الاتصال بالمؤثرات الخاصة من أجل الاستحواذ على اهتمام الجمهور. وأصبح الصوت والصورة يهملان الفكر، ويستهدفان حواسه، وهكذا تراجع المضمون، وازدهرت التقنية، وتلاشى التفكير، وربما كانت تلك هي سمات مايسمى بعصر ما بعد المدنية.

وكتب فيليب هيوارد يقول: إن استخدام المؤثرات الخاصة في مجال الفيديو والبث التلفزيوني الموسيقي «يستثير الجمهور ويجذب»، ويتخلّى عن «عمق النص لصالح سحر التكنولوجيا، وبعض القدرات التنافسية العالية». ويرى مراقب آخر في بعض استخدامات

المؤثرات الخاصة انتصاراً للعقلية التجارية: «إن تزواج موسيقى البوب الشعبية والفيديو أخل بالتوازن بين الأغنية وصورة من يؤديها». وبعد أن كانت الصورة من قبل تضيف إلى النغمات أصبح النغم يسخر اليوم لخدمة الصورة التي توظف بدورها في معظم الأحيان لصالح حملة دعائية للإعلان عن مطاعم الوجبات السريعة أو الكوكاكولا. وكان نجوم موسيقى البوب يشاركون دوماً في الدعاية للسلع المنتجة، ولكن مع ظهور عصر الفيديو الموسيقي، أصبحت صورة نجم البوب والسلعة المنتجة شيئين لا ينفصل أحدهما عن الآخر. ولم تعد موسيقى البوب عالماً قائماً بذاته، ولكنها مساعد للتلفزيون الذي يبت، من خلال سيل الإعلانات التجارية، ثقافة كل شيء فيها قابل للبيع». وتشير مارتا روزلر إلى أن «اختلاط الأسلوب والمضمون الناجم عن أي وسيط إعلامي يجعل الدعاية الإعلانية تتغلغل في هياكله ومفاهيمه».

وكل ذلك ليس ظاهرة حديثة تماماً، ولكن خطوة عملاقة تم اجتيازها في هذا المجال بفضل التقنيات الجديدة. ولم يعد الهدف هو مجرد التشجيع على الاستهلاك بواسطة رسالة إعلانية مستخدمة في موضعها الصحيح. ولكن بناء الشكل أصبح يخطط من أجل تحقيق هدف تجاري. وتعتبر قناة التلفزيون الموسيقية الأميركية «MTV» أبلغ مثال لهذا التطور، لما تبثه من فقرات إعلانية مستمرة. وبرنامج قناة «MTV» ليس إلا سلسلة لاتنقطع من الدعايات الإعلانية غير المعلنة لفرق موسيقية، وشركات تسجيل الأسطوانات. «إن سحر الصياغة التي تستخدمها قناة MTV يمكن تفسيره جزئياً بأن الجمهور يشاهد إعلانات دون أن يشعر بذلك».

ولا يقتصر تأثير قناة «MTV» على مجال الدعاية الإعلانية، ولكنه يمتد إلى كافة وسائل الإعلام، بما في ذلك المكتوب منها.

وهكذا فإن صحيفة «يو.إس.إيه توداي - USA Today» تنشر إعلانات دعائية في فقرة أو فقرتين مختصرتين، جرعة إعلانية مركزة في حروف مطبعية تحيط بها كوادر ملونة. أما الفقرات الإعلانية التي تبثها قناة «MTV» الموسيقية، فهي أخذة في التقلص من حيث الحجم. ومنذ عهد قريب، بدأت هذه القناة تدمج هذه الإعلانات ضمن برامجها الموجهة للشباب «وهو يشكل جمهورها الأساسي».

ومنذ بداية الثمانينيات بدأ استخدام الآلة التي تضغط الوقت وتختصره بهدف «إتاحة مساحة من الوقت لبث المزيد من الفقرات الإعلانية من خلال الإسراع بإيقاع عرض الأفلام والبرامج التلفزيونية القديمة». وهي تقنية تبدو جذابة بالنسبة لأصحاب البث «لأن الدقائق الإضافية الجديدة المتاحة للمادة الإعلانية لا تثقل بعبء مالي إضافي على تكاليف التوزيع التقليدي للبرامج».

ومن هذا المنطلق، يمكنك أن تكسب ٨ بالمائة من فترة بث فيلم مدته ساعتان من خلال

الإسراع بإيقاع عرضه للاستفادة بحوالي عشر دقائق إضافية دون اقتطاع أية مشاهد تمثيلية. ولا يهيم في هذه الحالة سلامة المادة الدرامية المعروضة.

وهكذا فإن أي مغزى آخر غير تجاري يفرغ من فحواه. ونشهد اليوم عدداً متزايداً من توالف «البراعة التقنية والتصويرية»، مع «قصص ساذجة وتافهة».

وإذا كان الهدف الأول هو الاستحواذ على اهتمام الجمهور من خلال هز مشاعره، فلماذا نثير شجونه، أو نشئت ذهنه بقصة أو بأغنية جادة؟

وتمثل تلك التطورات الأميركية المستحدثة مقدمة لما حدث بعد ذلك في السوق العالمية التي تتقاسمها حفنة من الشركات: إلكترونيات، أسطوانات، حبوب غذائية، مشروبات غازية، منتجات للأغراض المنزلية، سيارات، عقاقير، إلخ... ويبدو التداخل بين التكنولوجيات والأسواق التجارية ملحوظاً بشكل واضح في أوروبا الغربية، واليابان وأستراليا وكوريا الجنوبية، أي في تلك البلدان التي بلغ فيها الاقتصاد القومي مستوى مرتفعاً نوعاً ما من التنمية الصناعية. وفيما وراء السمات المتفردة لكل نظام اقتصادي، هناك ملامح مشتركة يمكن استخلاصها. فأيما توجد الوسائل التكنولوجية المتطورة: «عقول إلكترونية، أقمار صناعية، أجهزة تليفزيونية متطورة»، فإن الشركات متعددة الجنسيات - المدعومة داخل كل نظام - تطالب وتنجح في الحصول على ما يسمى - حسب الاختيار - بـ «إلغاء اللوائح»، أو «الليبرالية»، أو كذلك «الخصخصة». ومهما اختلفت التسميات إلا أنها تعني جميعاً بطريقة أو بأخرى أن تحتفي سلطة الرقابة المحلية، وتفتح الأبواب أمام الاستخدام التجاري للبرامج ووسائل الاتصال التليفزيوني.

و بالنسبة للتليفزيون والكابل، فإن هذه العملية تتطلب تمويلاً متزايداً في ضخامته بسبب الإعلانات والاستخدام الخاص «من قبل الشركات» للخطوط الهاتفية، وشبكات العقول الإلكترونية التي تبث أحجاماً ضخمة من المعطيات.

وهكذا تمت صياغة إطار يمكن بداخله خلق واستخدام المجال الثقافي على الطراز الأمريكي. وبدأ توظيف الدوائر الإعلامية والثقافية واحدة تلو الأخرى، لخدمة الاقتصاد التجاري، أحياناً بواسطة واردات المنتجات الأميركية، وأحياناً من خلال منتجات محلية تحاكي هذه الثقافة الشعبية. وغالباً من خلال هاتين الطريقتين معاً.

وللاستدلال على ذلك، نورد هذا المثال الذي ذكرته صحيفة «لوس أنجيلوس تايمز - Los Angeles Times» العليمة ببواطن الأمور في هوليوود، والتي كتبت تقول: (إن) المسلسل التليفزيوني الشهير «ريفييرا» له نكهة أوروبية، والسبب أن المدير التنفيذي ومدير الإنتاج أميركيان «وقد تم التعاقد مع مستشارين أميركيين وإيفادهم إلى باريس لتولي شؤون الديكور والموسيقى والإضاءة والهندسة، كما تمت جميع التسجيلات باللغة الإنجليزية، ثم تمت دبلجة النص باللغة الفرنسية، ولغات أخرى أوروبية، ومع ذلك فإن

معظم الممثلين والمديرين والفنيين من الأوروبيين. كما تم تصميم المسلسل داخل وكالة إعلانية باريسية».

وتتجاوز هذه الظاهرة حدود الفيلم أو التلفزيون. وقد علقت مجلة «بيزنس ويك - Business Week» في شهر مارس الماضي على افتتاح مدينة ديزني لاند الأوروبية في فرنسا بلهجة مازحة بعض الشيء، قائلة: «لقد كنتم تعتقدون أن أعظم أحداث عام ١٩٩٢ في أوروبا هو خلق سوق بلا حدود تفصل بين الدول. ولكن الحدث الذي يستحق الأهمية بالفعل هو الذي سيوافق يوم ١٢ أبريل، يوم افتتاح أورو ديزني، حيث ستلحق أوروبا بالولايات المتحدة واليابان داخل المجتمع الاستهلاكي العصري حقاً». ومن أجل الدعاية الإعلانية لهذه العملية «ستنشر إعلانات قيمتها ستة ملايين دولار في الصحف التي تصدر في عدة مدن كبرى، وسيتم تمويلها - جزئياً - الشركاء في مشروع ديزني لاند من أمثال ماثل، وكوكاكولا، وأميركان إكسبرس».

وتساءلت بيزنس ويك: «كيف يمكن لأوروبا أن تقاوم التيار؟ كل الدلائل تشير إلى أنها لا تستطيع المقاومة، وسواء كانت تلك إمبيرالية ثقافية أم لا، فإن ملايين الأوروبيين سيهبطون Big Thunder Mountain للاحتفال بالقارة القديمة بمناسبة بلوغها سن الرشد».

وفي عام ١٩٨٨، بدأت قناة MTV تبث إرسالها في أوروبا من خلال القمر الصناعي «أسترا». وتقوم الشبكة التلفزيونية بالتنسيق بين القمر الصناعي، والكابل التلفزيوني، والمؤثرات الخاصة السمعية والبصرية من أجل نقل الرسائل الإعلانية التجارية بأقصى قدر من الفعالية. وكانت «التراتك - Ultrateck» من أوائل العروض التي بثتها قناة MTV في بداية افتتاحها، وهي تعتبر نموذجاً يتجلى من خلاله هذا التفرد «ونحن نعتبر التراتك، فكرة شاملة تماماً لأنها لا تتضمن أي حوار، أو حبكة درامية، ولا شخصيات، وهي مجرد صوت وضوء، وهذا هو جوهر العمل التلفزيوني»، أي بمعنى آخر هو الأداة المتكاملة للتسويق.

وما أن يتم إلغاء اللوائح، وتثبيت الأقمار الصناعية، وكوابل الإرسال التلفزيوني في مواضعها، وما أن يتم استيراد تقنيات المؤثرات الخاصة الأميركية أو تقليدها، يصبح بإمكان الأوروبيين - وعدد من الآسيويين - الارتقاء إلى مستوى عالمي «أي أميركي» من فن التجارة الذي يعتمد على الربح. وبالفعل فإن صناعة الإعلانات تتهلل فرحاً «فالواقع أن نصيب الأسرة الواحدة من الإعلانات التلفزيونية التي تعرض في أميركا يزيد أربعة أضعاف عن مثيله في أوروبا «...» وفرصة زيادة إيرادات الإعلانات في أوروبا تعتبر ضخمة».

ومع ذلك، ماذا يخفيه هذا التطور وراءه في الأفق؟ هناك إهدار متزايد للموارد المحدودة لم تبرز بعد ملامحه بوضوح، ولكنه يصاحب هذا الاختزان للأرباح على المدى القصير.

ففي الوقت الذي تتزايد فيه مبيعات السيارات، يرتفع أيضاً استهلاك الوقود، وتطوق الطرق السريعة سطح الأرض، وتتراكم زجاجات الكوكاكولا والمخلفات الأخرى على امتداد الطرقات، وكل ذلك يتزايد بنفس السرعة التي ينمو بها التلوث الثقافي.

ولا يعني ذلك أن نطلق صيحة تحذير جديدة ضد التكنولوجيا، ولكن المقصود — بالأحرى — أن نقوم بتحليل التأثير القوي، إن لم يكن الحاسم للمشروع الاجتماعي الذي هيأ الفرصة في الأساس لتطور هذه التكنولوجيا الجديدة.

وقد قام الكاتبان روبرت كوبي، وميهالي شيكزنتميهايا باستعراض الحتميات التكنولوجية التي يزعم البعض أنها ملازمة للتلفزيون: (لا بد من تبديد الفكرة التي تتردد باستمرار، والتي تفيد بأن التلفزيون هو الوسيلة الإعلامية الأكثر قدرة على نقل الانفعالات، وهو لا «يستطيع» أن ينقل الأفكار، أو هو لا ينقلها «جيداً». والإجابة عن سؤال، لماذا نرى ما نراه على شاشة التلفزيون نجدها عند نقطة التقاء الطريقة التي ينظر بها الجمهور إلى الوسيلة الإعلامية، وما يرغب الجمهور في مشاهدته «أو تعود على مشاهدته»، والأشياء التي يؤمن المسؤولون عن رقابة أو تمويل البرامج التلفزيونية بأن عليهم ابتكارها وبثها من أجل زيادة أرباحهم إلى أقصى الدرجات).

هكذا فإن برامج التلفزيون والأفلام والموسيقى والصور تصاغ جميعاً من أجل خدمة الحتميات التجارية. ويتوقف تحقيق هذا الهدف على الصناعة الثقافية الأميركية، وهي القطاع الأكثر ديناميكية في اقتصاد يسير بشكل عام في طريق الانحدار. ونظراً للنجاحات التي حققتها تلك الصناعة، فقد كان من المفترض أن تكون مصدر ارتياح وأمان. ولكن، من المفارقات الكبرى، أنها تعتبر مسؤولة عن كارثة اجتماعية تنذر بالخطر. لأن هذه المنتجات الثقافية تنشر فيروس النزعة الاستهلاكية المدمرة. وتحطمت أمواج العقلية التجارية على صخرة الواقع: وهي نفاد موارد الأرض. وسواء تعلق الأمر بمستودعات المخلفات النووية، أو بتقب طبقة الأوزون المتزايد، أو كذلك بالبحث اليائس عن أماكن لإلقاء مخلفات الصناعة، فإن كلاً من هذه الأزمات تكشف عن إهدار للموارد. وخلال الخريف الماضي، أدان مثقفون بارزون، شاركوا في مؤتمر حول «اقتراب عام ٢٠٠٠»، الأضرار التي تلحق بالموارد العالمية، ولفتوا الانتباه إلى سوء التوزيع الفاحش في عالم «يستهلك فيه ٢٠ بالمائة من السكان ٨٠ بالمائة من الثروة، وهم مسؤولون عن ٧٥ بالمائة من معدلات التلوث». وأشار المؤتمر إلى أن مصدر هذه الظاهرة هو «التلوث الثقافي»، وفقدان الهوية للذات تسببا في عملية اقتلاع شامل للبشر من جذورهم، وأصبحوا في قبضة وسائل التسويق الجماعي، مجرد كائنات ضعيفة أمام ضغوط النزعة الشمولية السياسية والاقتصادية، وعادات الاستهلاك والإسراف التي تهدد كوكب الأرض بالخطر.

وفي قلب هذه الأزمة الشاملة التي تزداد عمقاً يوماً بعد يوم، يؤدي التزاوج القوي والقاتل بين وسائل الإعلام والتكنولوجيا والسوق مهمته.

ترجمة: أحمد علي فقيه

.. دكتور كريمال

عرض: كوينتين كيرتيس

رواية جديدة: مالكولم براد بيرى



اعترف مالكولم براد بيرى ذات مرة بأنه يشعر كما لو أنه «يبطئ التاريخ». وطوال فترة لعبة الشطرنج السياسية والفكرية الخاصة بالحرب الباردة، كان براد بيرى موجوداً هناك ومعه مفكرته يدون فيها ملاحظاته على اللعبة بدقة بالغة. وفي غضون العقود الأربعة المنصرمة لم يصدر سوى أربع روايات، كل منها هجاء موجه نحو أفكار ذلك العصر، الأمر الذي جعل النقاد يتحدثون عن «عقود» براد بيرى.

وتمثل روايته الجديدة «الدكتور كريمال» (Dr. Criminale) مبادرة استطلاعية لمعالم التسعينات، ومع ذلك فهي في الوقت ذاته إطلالة إلى الوراء (بهدهوء مدهش) على قرن وضع خادع، حيث تبدو الفضيحة الفكرية وكأنها تطل محمقة

من وجه كل مفكر. إن الوقوف على أبعاد هذا القرن المظلم وفكره السائد أصبح بطل براد بيرى الساحر بالنسبة لأواسط أوروبا: الدكتور بازلو كريمال المفكر والكاتب المتعدد الاهتمامات. ومع تقدم الرواية، يتضح أن كريمال عبقرى وفاسد في آن واحد. فهو شخص متعاطف مع الأنظمة الشيوعية ومتورط في صفقات غامضة. ولقد تمت كتابة الرواية في وقت قياسي من أجل اللحاق بالأحداث المتسارعة بعد سقوط جدار برلين سنة ١٩٨٩.

العنوان الأصلي للمقال: Dr Criminale , Malcolm Bradbury, Reviwed by Quentin Curtis, The Independent: on Sunday. 30 Auguts 1992

فمع الإيقاع البالغ التسارع لحركة التاريخ أصبح يتعين على براد بيرى أن يجهد من أجل اللحاق به.

كان الكاتب الصحفي، وهو في طريقه لإجراء مقابلة مع براد بيرى، منشغل الفكر تماماً بفقرة من الرواية الجديدة حيث يبدو فيها الراوي، وهو صحفي شاب من أتباع الدكتور كريمنال، يورد دعاية من دعاياته: «ما هو الفرق بين الله وبازلو كريمنال؟». ويأتي الجواب: «الله موجود في كل مكان، كريمنال موجود في كل مكان إلا هنا».

هذه الدعاية انطلقت لأول مرة في حرم جامعة إيست إنجليا حيث يعمل براد بيرى أستاذاً للدراسات الأميركية. والهدف من هذه الدعاية هو التكوين الشخصي لبراد بيرى الذي يعتبر مزيجاً من «الزوغان» والوجود في كل مكان، مع رحلاته المنتظمة في دائرة المؤتمرات الدولية.

وفيما يبدو كان براد بيرى يتحدى الشهرة، فيلتزم بوجوده في مقر إقامته في منزله في نورويك في الوقت المحدد - وجهه يشبه الحرباء، مأخوذ بصورة ساحرة لجون براتبي معلقة في الغرفة - يبدو وكأنه يتحول من سنه الحالي الذي فاق المتوسط، والذي يبدو عليه الإجهاد، إلى صبيانية متحمسة، وذلك عندما تلوح له فكرة ما.

إنه يجثم على كنبته في ثياب غير رسمية: بنطلون بيج، قميص أزرق غامق، يتناقل غليونه من يد لأخرى، وهو بهذا يبدو وكأنه أمير إسباني مكتمل الهمد. إلى جانبه توجد رواية معاصرة موضوعة بشكل لافت للنظر في خزانة للكتب ذات فهرس هجائي، بطبعات أولى حديثة.

براد بيرى يصف كتابه «الدكتور كريمنال» على أنه كتاب حاول من خلاله العودة إلى الوراء وصولاً إلى الأفكار المنهارة لما بعد الحرب العالمية «على مدى خمس وأربعين سنة، منذ بداية الحرب الباردة، ونحن متشبثون بنوع خاص من التفكير، وكل شيء مما كان يحدث في تلك الفترة، بما في ذلك الرواية، كان عن ذلك النظام التاريخي. لقد أردت الإمساك بال اللحظة التي عندها شعرت بأن النظام الفكري قد بدأ بالاختفاء.. تاريخ عند الحافة».

إن كل رواية من رواياته قد عملت على تحليل الأفكار المعاصرة لها، فمثلاً القلق من ليبرالية مابعد الحرب انعكس في رواية «أكل الناس خطأ»، ١٩٥٩، وراديكالية الخمسينات على جانبي الأطلسي في «السير نحو الغرب» ١٩٦٥، والثورة الماركسية للستينات والسبعينات في «إنسان التاريخ» ١٩٧٥، و«السادية النقدية» للثمانينات في «أسعار الصرف» ١٩٨٣. والدافع له على الكتابة لا يكون عادة من أمر يحصل له هو، بل من «أمر يحدث في العالم الخارجي».

يتمتع براد بيرى بموهبة «التحدث الفكري الباطني». ففي روايته الأولى يقدم لنا شخصية الطالب لويس بيتس الذي لا يزال دون مرحلة النضج بشكل مؤسف للغاية، رغم تجاوزه تلك السن زمنياً؛ والصوت الذي يحدده براد بيرى لهذه الشخصية هو صوت

مجنون عبقري من أشباه الشيللا^(١) وفي الرواية التي أعطته الاسم والشهرة، «إنسان التاريخ»، هوارد كيرك المحاضر في علم الاجتماع الماركسي الذي يلقي بالشتائم على مقالات الطلبة الذين يتهمهم بجعل المجتمع (عاطفياً).

الدكتور كريمنال يتمسك بالمقولة المتداولة بين المثقفين المتأنقين، والتي تقول: «إن البورصة في روسيا تصبح غير قابلة للتحويل فقط عندما يصبح الروبل قابلاً للتحويل». هذا ما يقوله بسخرية لأحد الصحفيين - لقد كان ذلك صوتاً بدا لبراد بيرري أيضاً في أحد المؤتمرات العالمية.

إن شخصية كريمنال عبارة عن مزيج من مفكري الماضي والحاضر: أصداء الصدى، إمارات من دريدا، لمحات من ألتوسير، بريخت، لوكاس، مان، سارتر، حتى موريس زاب لديفيد لودج. ومع ذلك فإن أول صورة تتبادر إلى الذهن هي صورة بول دي مان، سيد الهرم في بيل، الذي اكتشف أنه كان قد كتب في أثناء الحرب مقالات ضد السامية بلغته البلجيكية. إن مجموع حصاد كريمنال أكبر وأوسع من أعمال دي مان وجرائمه أكثر خبثاً، إلا أن الدوامة المركزية تبقى: كيف يتم تحديد الحياة الضبابية بالأفكار النيرة. براد بيرري يجيب عن هذه المعضلة بقوله: «الاثنان يجب أن يسيرا معاً، إلا أن هناك شيئاً ما في عقل الفيلسوف أو المنظر الذي يكون قادراً على التجرد الذي يقود إلى الاستقلالية. قد يفكر المفكر بقوانين أعظم من القوانين التي ينتج عنها وضع سياسي محلي. كريمنال رجل فكري بدرجة أعلى من الكثير من أعماله».

قد يكون هناك أكثر من إشارة سفسطائية في هذه الإجابة، إلا أن براد بيرري، في نقاش له فيما بعد، يقول بأنه في هذا القرن المحفوف بالمخاطر فإن «الصمت، والنفي، والخداع» هي الأسلحة الضرورية للمثقفين المكبوتين. وهكذا، فإن كريمنال، مهما كانت الوسيلة مريبة، فإنه في النهاية يصل لما يريد على الأقل، ويجادل زميل أكاديمي باسم الأفكار، فيقول: «إن تفكر كثيراً تخطيء كثيراً».

يفهم من روايات براد بيرري الأولى أن الليبرالية تؤدي إلى الجمود: الميل الفاضل نحو الضعف والوهن. أما براغماتية ودهاء كريمنال فهما عبارة عن حل وسط يجده براد بيرري ملائماً. واعتقاد كريمنال بأن الفلسفة هي شكل من أشكال السخرية هو اعتقاد يتوافق مع براد بيرري الذي قضى حياته الأدبية وهو يمثل الأفكار بأسلوب ساخر. إن تعاطف براد بيرري مع الشخصية الرئيسية، يفسر إلى حد ما اللهجة المرححة للكتاب، وهناك إشارات، إذا تمت ملاحظتها، يستشف منها، عودة إلى التفاؤل السياسي والشخصي. الكتب السابقة «كانت عن القرن العشرين وهو يرسم نفسه في إحدى الزوايا»، تمت كتابتها في أوقات عصيبة من الكتابة (لقد وصف نفسه على أنه كئيبي مهووس). إلا أن «الغلاسنوست» قد

(١) الشيللا: حيوان بحري خرافي غريب الشكل، ذو ستة رؤوس، في الأوديسا لهوميروس، كان على أوديسوس وبحارته أن يتجاوزوه في أثناء رحلتهم البحرية. (المترجم).

أذاب الجليد عن روحه.

يبدو أن قلق براد بيرى الآن هو حول سوء التمثيل الشخصي أكثر مما هو حول الدمار العالمي. في العام الماضي صدرت «الكتابة الجديدة»، وهي مقتطفات أدبية عنه للمعهد البريطاني تضمنت أسوأ لاذعة من النقد. إذ ظهرت مقالات تفترض أن يدير مافيا أدبية، وذلك من خلال كتاباته الخلاقة الناجحة في إيست إنجلاند بالنسبة لبعض أقسام الصحافة - براد بيرى يصبح ليس فقط مجرد أمير، بل هو الأمير.

إن الكاتب الذي بدأ دخيلاً على الأدب في الخمسينات - ابن عامل سكة حديد - عندما بلغ الستين أصبح شخصية بارزة ذا مؤسسة للجيل الجديد يترزق منها.

وإجابة عن ذلك يقول هو: «أمل ألا يكون الأمر كذلك، إلا أنني أعتقد بأن هذا قد يكون صحيحاً. أنا، بالتأكيد، أرى نفسي بعيداً عن المؤسسة، وليس لدي رغبة في أن أكون فيها. هناك صورة مزيفة عني تصفني كشخص يركض باستمرار حول التجمعات الأدبية، أبيع الطلبة للناشرين. إن ما أفعله حقيقة هو، بالضبط ما يفعله كل معلم. إنني أكتب رسائل لصالح الطلبة إن كنت أعتقد بأنهم جيّدون. إلا أنه لا توجد معالجة سامية».

وقد يكون هناك أيضاً سأم وضجر من «رواية حرم الجامعة» (Campus - novel)، وهي شكل من أشكال الكتابة الذي ابتدع منه الكثير هو وصديقه ديفيد لودج. وهذا النوع من الكتابة ارتفع ثم هبط بتزامن متقارب مع التعليم العالي البريطاني. ويخشى براد بيرى من أن تنبذ روايته الجديدة على اعتبارها «عالم التسعينات الصغير». إن حبكة هذه الرواية، المحركة للمؤتمرات، يمكن أن تثير السخرية لدى أولئك الذين يعتقدون بأن الاختلاف الوحيد بين العلاج الذي يقدمه روائيو حرم الجامعة، والحل الشهير لرايموند تشاندلر هو أن الرجل في كتبهم يخرج من الباب حاملاً دعوة إلى مؤتمر أكاديمي بدلاً من بندقية يخرج منها الدخان.

براد بيرى يشير كذلك إلى جيل من النقاد الذين هم بالنسبة لكتاب مثله ومثل لودج، كما كان جيله هو بالنسبة لبلومز بيرى .. «إنك بحاجة لقناع لكي تستطيع التصريح بما لديك من فوارق». ولكن، مثل الراوي في «الدكتور كريمنال» فإنهم مهتمون باستطلاعات النقاد ويعرض الموقف، أكثر من اهتمامهم بالكتاب الكبير.

كتابة القصة تمثل الآن سعادة أكبر بالنسبة لبراد بيرى من كتابته للنقد. وهو يقول في هذا المضمار: «إنني أعتقد بأننا سوف ننظر إلى النقد في هذا العصر كما لو أننا كنا نحل الخيوط وليس نجمعها، ومن ثم نتساءل: لماذا استغرقنا وقتاً طويلاً جداً لنحل قليلاً جداً». كما أنه يشير إلى أن النظرية النقدية أصبحت عقبة في طريق الكتابة: «لقد كنت منهمكاً بشكل عميق بعملية «الهدم»، وبفكرة «موت» «المؤلف»، حتى تبين لي أنني واحد من هؤلاء (المؤلفين)، وأني حي وبصحة جيدة وأعيش في نورويك».

هل هذا الهروب من النظرية النقدية يتضمن إشارة إلى خداع كريمنالي؟

براد بيرى يعترف بأنه قرر بعض التشابهات بينه وبين الدكتور كريمنال فيما يتعلق بتدوئهما لمرافقة الجنس الآخر الأكاديمي، وتعطشهما الجارف للتعليم بالاضافة إلى قدر ما من السلاسة المراوغة. إلا أن، لا يعتقد بأنه قد توصل إلى تسوية مع نفسه: «إن البحث عما هو أبعد من الوضع الجاري للهدم لا يعتبر خيانة، حيث يكون من الصعب جدا الحديث عن الأخلاق سواء في الحياة أو في القصة».

إذا كان «موت المؤلف» يعني كارثة بالنسبة لبراد بيرى، فهذا ما يجب أن يكون بالنسبة إلى «موت التاريخ». هناك إلماحات لنظرية فوكوياما في «الدكتور كريمنال» - الدكتور نفسه يذهب في نقاشه إلى القول بأن «إنسان التاريخ»، الفرد الذي يجد معنى أو قصدا في التاريخ، قد مات - إلا أن براد بيرى لا يعتقد بأن كل الأفكار الكبيرة قد انتهت. «إننا في حالة موازاة حتى نهاية القرن التاسع عشر، عندما يتبين أن كل ما بدا أنه ترك كان عبارة عن إحساسات وانطباعات هشة. ثم هبت على أوروبا أفكار جديدة، نجم عنها أيديولوجيات مخيفة وحرمان عالميتان. إنى أعتقد بأنه سيكون هناك أيديولوجيات جديدة، ولكن يحتمل أن تتخذ أشكالا تعصبية متطرفة غير سارة. إنى كليبرالي أبدي، أخشى ذلك». والآن هناك «رواية حول التسعينات وهي تقترب من سنة ٢٠٠٠» في طور النشوء.

بقلم: روجر كوك

عرض: جيرى رافيز*

الحقيقة في عالم مريب

بعد مضي عدة أجيال، في الوقت الذي بدا فيه أن العلم ينطق باليقين، علينا الآن أن نتصارع مع الشك أو اللاتحدد Uncertainty بخصوص المشاكل التي يقدم العلم فيها الإطار العام والمعلومات. هذا ليس فقط في الأمور الكبرى مثل الغليان العالمي. إذ إنه في حالات تفوق بكثير ما يتوقعه الجمهور، تكون الموضوعات الجدلية التي تتضمن الشك بشكل حاد خطيرة في تقدير السلامة في الأجهزة التكنولوجية، مثل محطات القوى النووية.

كيف لنا أن نعرف بأن مفاعلاتنا النووية «آمنة»؟ الرياضيات المتطورة الخاصة بتقدير الخطر الكمي تلامس حقيقة تجريبية، وبالأخص من خلال استتباط الاحتمالات الشخصية. وذلك يعني أن الخبراء في هذا المجال يضعون تخمينات مدروسة حول المخاطر التي تنطوي عليها الطرق التي تفتقر إلى الحقائق. هل هذا «علم» بأي معنى مقبول حتى الآن؟

العنوان الاصيل للمقال : Experts in Uncertainty: Opinion and Subjective Probability in Science, by Roger M. Cooke. Reviewed by Jerry Ravets, New Scientist, 18 July 1992.

في كتاب «خبراء في اللا تُحد»، يواجه روجر كوك هذه التساؤلات ويعرض المستوى الفني لتقنيات استخدام رأي الخبير لتقييم الاحتمالات التي لا يمكن تقديرها مباشرة. إن إغراءات الطريقة الرياضية لتقليل هامش اللاتحدد جديرة بالاهتمام. وتاريخ القياسات والاختبارات الإحصائية يبين مدى إمكان الإنجاز عندما تكون الحقائق سجلات لأحداث. تطورات القرن العشرين فيما يتعلق بالاحتمالات الشخصية، والتي تتضمن ثقات مثل جون مانيارد كيني، قدمت أنظمة شكلية تعد بتطورات مشابهة تهيأ في إدارة الآراء. فإذا كان اللاتحدد العلمي يمكن أن يخفض إلى هذه الدرجة عن طريق الاحتمالات «الموضوعية»، لماذا لا يمكن هذا كذلك بواسطة الاحتمالات «الشخصية»؟ إن الحاجة العملية والسياسية لتقليل هامش اللاتحدد كبيرة وذلك فيما يتعلق بالمجالات ذات الطابع التكنولوجي الجديدة منها والمعقدة مثل الطاقة النووية ورحلات الفضاء. بعد دراسة مادة كوك المعروضة بشكل واضح ودقيق، شعرت بأن التحديات لاتزال تفوق، وبشكل كبير، الإنجازات الثابتة. هناك طرق سليمة متنوعة، ولا يوجد قصور في التقنيات، ولكن حتى الآن لم تظهر تركيبة سحرية، مشابهة لمعامل العلاقة الذي يقيس درجة الترابط بين المتغيرات، أو اختبار «تي» (T) الذي يختبر الدلالة.

إن الصعوبات في استنباط المعلومات من ناحية، وفي الحصول على التقييم النسبي للتقنيات من ناحية أخرى، لاتزال كبيرة جداً. بعض الدراسات التجريبية تؤكد ما سبق معرفته، وبعضها يثري هذه المعرفة، بينما البعض الآخر لم يعط أية نتائج مرضية، مع أنه ليس هناك تعقيدات إضافية واضحة. في مثل هذه الحالة يحق لنا أن نتساءل إن كانت الطريقة الرياضية يمكن أن تكون مفيدة في المستقبل المنظور. عندما نتطلع إلى أقوال كوك عن آراء الخبراء الواسعة جداً فيما يخص الأسئلة الواضحة والمباشرة (الاحتمالات تتراوح بسهولة من التافه إلى الخطير) ونعرف عن أوجه القصور العديدة في تقديراتهم، يمكننا أن نسأل: ما الذي يمكن إنجازه بأي وسيلة استيعاب لمثل تلك المعلومات المدخلة المنطوية على هامش كبير من اللاتحدد.

والأسوأ من ذلك، أن وجود مثل هذه الدراسة يعطي انطباعاً بأن مشاكل الشك يمكن حلها في إطار ذلك النموذج العلمي الذي يفترض أن جميع المشاكل مهيأة للحل بوسائل رياضية. أما التركيز على استنباط الخبراء فيحول الانتباه من ظاهرة تعقيدات اللاتحدد وملأمتها للسياسة المتبعة. إن دراسة مشكلة اللاتحدد في الجزء الأول من الكتاب يمكن أن تشكل المقدمة الطبيعية لكتاب ذي نهج مختلف حيث يكون حلم التصيير قد استغني عنه. والفصل الثاني يبين بوضوح كيف يتم تكييف رأي الخبير بواسطة الأوامر الإدارية (كما هو الحال بالنسبة لكارثة تشالنجر)، لدرجة يصعب معها الإيمان بأن أية دراسة محسنة للخبرة (الخالصة) ستكون قادرة على توفير الإرشاد في الحالات المهمة.

* جيري رافيز: مدير استشارية مناهج البحث، لندن. وهو مؤلف مشارك مع إس. أو. فانتنويتش لموضوع

«الشك والنوعية في العلم من أجل السياسة» ١٩٩١

كوك يوضح كيف تكون آراء الخبراء غير أكيدة وبشكل خطير. إلا أنه كان بإمكانه ذكر النص الذي ينتقد الدراسة بأكملها لإعطاء صورة أكثر توازناً. وهنا أيضاً فجوة نظرية خطيرة في الكتاب، وهي غياب مناقشة الخاصية الملزمة للترار (قابلية التطبيق العملي المهمة ما بالنسبة لقيمها لتوليد سلسلات لا نهائية من القيم) في أية معالجة شكلية للاتحاد. هذا يظهر بوضوح جلي بوصفه مشكلة «درجة احتمالية» تخمينات الخبراء (ما هو التصنيف الاحتمالي لتصنيف احتمالي؟). إلا أنه يوجد كذلك مشكلة «درجة الخبرة الفنية» بخصوص من يستطيع أن يقرر من هو الخبير الحقيقي في حقل من حقول الممارسة الصغيرة المتناثرة. في مثل هذه العضلات يصبح التمييز بين الميثودولوجيا والسياسة ضئيلاً بالفعل. ولا يبدو أن هناك صيغة شكلية يمكن أن تقضي على تلك الصعوبات.

إن تاريخ العلم الحديث يُلطِّح «بقياسات غير ناضجة» وبالأخص في الحياة والعلوم الاجتماعية، ابتداء من ديكرت وحتى يومنا هذا. وأياً كانت طبيعة ماسيتم إنجازها فيما يتعلق بالاحتماليات الذاتية من خلال استخدام أدوات غير متخيلة بعد، فبإمكاننا أن نسأل إن كانت الفراسات التي تقدمها نظرية الصيغ الآن تعوض عن الإحساس الكاذب بالأمان الذي تزودنا به. إن طريقتي أنا وإس. أو. فانتوويتش هي تبني نظام نوعي، تدويني، قوي، والذي يمكن أن يتم من خلاله التعبير بوضوح عن مختلف أنواع الشك في أي مفهوم كمي. بهذا يمكن تجنب الألغاز الميثودولوجية المختلفة، ويمكن كذلك جميع المراهنين على قضية ما أن يقيموا نوعية الحقائق العلمية في إطار حوار.

وإضافة إلى ذلك، فإن كتاباً بهذا الوضوح والصدق حول حدود موضوعه، يجب أن يكون محل تقدير وترحيب كإسهام في نقاش يوصل إلى نتيجة على أية حال.

بقلم: جـودـي واجمان

عرض: روزالين لوف

اعتقدنا ذات مرة بأننا جميعاً نعرف ماهي التكنولوجيا: أنها نظرية علمية في إطار تطبيق عملي، أو أنها (حسب ما كان يعتقد) كل ما أمكن تنظيمه على هيئة معدات: آليات، وأغراض تكنولوجية. جودي واجمان تعطي التكنولوجيا مفهوماً أوسع. إنها عالمة اجتماع أخذت على عاتقها تلك المهمة الطموح لتختبر علاقة وخبرة النساء بالتكنولوجيا. وهي تمضي في نقاشها قائلة: إن يكن اختبار التكنولوجيا على أنها ثقافة، عندها يكون هناك مجال لتضمينها فكرة المهارة التكنولوجية، تكنولوجيا مغمورة بأنظمة تكنولوجية، وتكنولوجيا في مفهوم اجتماعي أوسع.

العنوان الاصلي للمقال، by Rosaleen Love، Viewed by Judy Wajcman. Feminism Confronts Technology, New Scientist, 8 August 1992.

على سبيل المثال، ليس كافياً أن نعتبر السيارة، بحد ذاتها، كجسم تكنولوجي. أنها تمثل جزءاً من مجموع نشاطات الإنسان المتمدن، جزءاً من المفهوم الثقافي. ذاك هو ما يهمها، والمفاهيم تختلف دائماً بالنسبة للمرأة. إذا اعتبرنا التكنولوجيا كثافة، فإننا لا نستطيع فصل المجال عن ممارسيه. الناس يقضون فترة طويلة يكتسبون الخبرة التقنيّة، نساء كانوا أم رجالاً. والتكنولوجيا أصبحت مغمورة لحد كبير بالممارسة الرجالية. لم تعد كلمة تكنولوجيا بسيطة كما كانت تبدو ذات مرة. هذا التعقيد المكتشف حديثاً هو الذي تحاول واجمان بحثه من وجهة نظر أن النساء أيضاً يؤثرن في الأنظمة التكنولوجية. إن تكن التكنولوجيا ثقافة، فعلم الاجتماع إذن يجب أن يكون كذلك. إن المجتمع الذي تخاطبه واجمان هو مجتمع من علماء الاجتماع، متخصصون بالأمور الأنثوية، وعلماء اجتماع أنثوي. إنها تستخدم أسلوب «المقالة النقدية» مع نمطها المعهود بالاستشهاد والرغبة في تضمين عرض نصوص كاملة مع التعليق. إنه أسلوب قد يقف حجر عثرة في طريق كتابها الذي يتحدث مباشرة إلى التكنولوجيين والعلماء، وهذا أمر يؤسف له.

إن القارئ الذي ليس بعالم تكنولوجي قد تكون أفضل نصيحة تقدم له هي أن يبدأ بالمألوف، مثل تلك الفصول التي تتناول تصميم المدن، تقنيات المنزل، المكتب، والمصنع. عندها قد يقدر القارئ بصورة أفضل المهارة التي تتحرك واجمان معها إلى بحث الطرق والأساليب التي من خلالها استطاع الناس - الذين يمثل البحث عن الحقيقة بالنسبة لهم واحداً من عدة أهداف في أنماط معينة من علاقات القوة مع بعضهم البعض ومع الحكومة أو المؤسسات الخاصة - استطاعوا أن يخلقوا شيئاً ما على نحو متصل والذي قد يكون مختلفاً جداً عما هو عليه. وهذه هي طريقة عملها، الطريقة التي من خلالها تثير التساؤلات حول المؤلف، التقنيات التي أصبحت من البديهيات، تقنيات الحياة اليومية، فتضعها في سياق كبير مهم.

الموضوعات المتناولة في هذا الكتاب تتضمن تأثير التكنولوجيا على الجانب الجنسي للعمل، بالإضافة إلى إثارة أسئلة مثل: «الجنس، المهارة، والكفاءة التقنية»، أتمتة المصنع والمكتب، تصنيع البيت، تقنية الحرب، وغير ذلك الكثير.

هناك فصل في الكتاب مخصص لتكنولوجيا الولادة، حيث وجدت بعض القصور في انسجام موقف الكتاب القائم على مفهوم «التشكيل الاجتماعي للمعرفة». وهي في جدالها بهذا الخصوص، تقول: «من أجل أن يكون هناك معنى لتكنولوجيا الولادة نحن بحاجة لاختيار القوى الاجتماعية والاقتصادية التي تدفع بالبحث إلى الأمام أو التي تمنع تطورات أكثر تقدماً». والموضوعات المتناولة هي معالجة ومكننة ولادة الأطفال، التكنولوجيا والاحتراف، منع الحمل، وعملية التخصيب بالأنابيب. في الوقت الذي تكون فيه القوة مهمة بالنسبة لإجراءات التخصيب بالأنابيب، فإنها ليست للعبة الوحيدة في المدينة، إن الرغبة في «ذلك الشيء الذي لا نستطيع أن لا نريده» تعتبر لاعبا آخر عنيدا وقويا. هنا، نجد كتاب مثل فاليري هادوتوني، الذين يطلون دور الأمومة، الصور الخيالية، الحديث، الطريقة التي

تتغير، وتستخدم فيها اللغة، نجدهم يمزجون المادة المعلوماتية المتعلقة بالتكنولوجيا بالزبد الثقافي للمجاز، والعاطفة، والخيال، والإيمان، والعرف. كل هذا، والتكنولوجيا أيضا؟ فلا عجب إذن في أن تقرر واجمان عدم الالتفات إلى المقالة الملحقة بالعصرية.

إن هذا الكتاب مفيد بشكل كبير لأي شخص يعمل في مؤسسات علمية أو تكنولوجية تواجه صعوبات، مثل صعوبات في التمويل، أو الاتصال بين العلم والحكومة، العلم والصناعة، أو العلم والجمهور. فالمواجهة الأثنوية للتكنولوجيا تعتبر أكثر من اشتباك في معركة مباشرة. وهي أيضا مشفوعة بالرغبة في جعل الأمور تعمل بصورة أفضل. وباستمرار تعمل واجمان على جر القارئ وإعادته إلى السؤال التالي: «ماذا يعني للعالم بأن النساء أبعدن عن ممارسة العلوم التكنولوجية». فالمواجهة قد ينتج عنها قدر أكبر من الخيارات للمستقبل.

أضواء على حالة الحب القمري

بقلم: باتريك مور

عرض: جيرارد بنسون

القمر هو المفتاح الذي أدخلني إلى علم الفلك. لقد كان يبدو جميلا، والوصول إليه من الأمور المستحيلة. كان يغير شكله باستمرار، وعندما كنت أسير ليلا كان يلحق بي طوال فترة سيري، ويتوقف عندما أتوقف. كان وجهه يدعو إلى الطمأنينة، أما ضوؤه فقد كان يلقي شيئا من الغموض على الحديقة. النجوم كذلك سحرتني، وأحببت دراسة تلك الخرائط الفضائية بتشكيلاتها المتنوعة من الأوز، الدببة، الكلاب، والتنين والتي تنتصب جميعها في أثناء الليل.

أما الآن، فقد أصبحت أعرف أن القمر، على الرغم من أنه لا يزال جميلا، إلا أن الوصول إليه لم يعد مستحيلا، وشكله يتغير ظاهريا فقط. أما تعقبه لخطواتي فهو عبارة عن وهم ظاهري فقط، وأن وجهه عبارة عن سلسلة مما يطلق عليها «بحار»، وأن الضوء الغامض الملقى على الحديقة إنما هو ضوء منعكس من الشمس.

من «علم الفلك والمنزل» تعلمت المزيد. الفصل العاشر القصير لا يقدر بثمن، وهو مرشد شامل لدراسة سطح القمر. الفصول الأخرى تنبئ بأن القمر يتحرك ببطء بعيدا عنا، وأن هناك خططا لإقامة تلسكوب عليه، وأن وليام هرشل وآخرين كانوا يعتقدون بأن هناك ماء عليه. والأكثر لفتا للنظر هو أن اسكندر أبيان من جامعة أيووا، الذي لم يكن راضيا عن مناخ الأرض، وضع خطة سنة ١٩٩٠ لتفجير القمر من أجل تغيير مدار الأرض. إلا أن العقول الصغيرة غالبا ما تعارض التقدم، وهكذا قوبلت هذه الفكرة بالسلبية.

العنوان الأصلي للمقال : Fire side Astronomy, by Patric Moore. Reviewed in New Scientist, 8 August. 1992

هذا هو ملخص محتوى الكتاب، وهو يأتي مع دعوة من المؤلف إلى «الغوص فيه». باتريك مور من الكُتَّاب الجيدين. وهو يكتب بأسلوب عذب ودود، ومقالاته القصيرة البالغة ١٠٧ مقالات عبارة عن تنوع كبير من حيث الموضوعات. إن المقالات تتسع لجميع المفاهيم الفلكية مثل: تلسكوب، سفن فضائية، عذباء، مجرات بعيدة، رواد فضاء قديما وحديثا، شهب، ظواهر جوية، أشباه الأجسام الفضائية، رياح شمسية، الأنجم الزائفة. قارئ هذا الكتاب يرى أمامه استعراضا رائعا لعالم من العمالقة الخارقة باللون الأحمر، وأقزام باللون الأبيض، وثقوب سوداء، ومجموعات متناثرة زرقاء اللون. إنه كون شاسع ذو مسافات هائلة، وموازن خارقة للزمن، حيث جزء من مليون من الثانية يشغل فصلا كاملا، وفصل آخر يستغرق آلاف الملايين من السنين.

في بعض الأحيان تكون الموضوعات في المتناول تماما. وفي سنة ١٩٨٩، أجري تطوير على القمر الصناعي «سولار ماكس» ليقوم بجمع المعلومات عن الشمس وكان على وشك العودة لدخول الغلاف الجوي.

حاول العلماء إقناع الوكالة الوطنية الأميركية لعلوم الفضاء (ناسا) بالعمل على تقوية القمر ليستقر في مدار ثابت. لم تقدم أية منحة، وتحطم القمر. لو افترضنا أنها كانت عملية انقاذ مؤقتة لكانت تكلفتها أقل من تكلفة صاروخ باتريوت واحد. وإذا كان من واجب الناقد أن ينتقد، فإني سأذكر قائمة بأولئك الضعفاء المتقاعسين. إلا أن النص عبارة عن مجموعة من النفائس. إن كتاب «علم الفلك والمنزل» يمكن أن يتمتع الناس، من جميع الأعمار، ويزودهم بالمعلومات بالمعلومات. إنه بالضبط الكتاب الذي يتطلب وجوده باستمرار قريبا من الصفوف الدراسية لأية مدرسة. إنه قد يولد نوعا من الاهتمام الذي يستمر مدى الحياة. وبالنسبة لأولئك الذين يشدهم مثل ذلك الاهتمام، فإن الكتاب زاخر بالشذرات النفيسة.

دعوة

ترحب المجلة كل الترحيب باسهام كل مثقف عربي وكل قارئ ومتابع لافاق الفكر العالمي في اغنائها ودعم رسالتها الثقافية وتدعوهم لتزويد المجلة:

● بكل بحث اجنبي يختارونه ويجدونه جديرا بالترجمة والنشر.

● بكل بحث يترجمونه للنشر عن اي لغة اجنبية.

يشترط في البحوث المختارة أو المترجمة:

أولا: ان تكون مما نشر في الدوريات العالمية خلال الاشهر الستة الاخيرة من تاريخ الارسال للمجلة في الحد الأقصى.

ثانيا: ان تكون مما يدخل ضمن خطة المجلة في المستوى الفكري والعلمي الرفيع.

● يرسل البحث المختار أو المترجم بنصه الاجنبي الكامل في نسخة المجلة التي نشرته أو مصورا عنها في حالة خلو المقال من الصور أو المخططات الملونة مع صورة الصفحة الاولى للمجلة التي تحمل التاريخ والفهرس.

● تدفع المجلة مكافأة قدرها ٥ دنانير عن كل بحث اجنبي يرسل اليها وتقبله للترجمة والنشر. فان تكرر وصول البحث من أكثر من جهة دفعت المكافأة للسابق في الوصول.

● تدفع المجلة مكافأة عن المقالات المترجمة التي تقبلها للنشر بمعدل ١٥ ديناراً كويتياً عن كل ١٠٠٠ كلمة (أو ما يعادلها) من الاصل الاجنبي فإن تكرر وصول البحث المترجم من أكثر من جهة دفعت المكافأة للترجمة الأكثر جودة وصحة.

مراكز بيع مجلة الثقافة العالمية في البلاد العربية

القاهرة - شارع الجلاء

دمشق — ص.ب: ١٢٠٣٥

الدار البيضاء -

ص.ب ٦٨٣/١٣

بيروت - ص.ب: ٤٢٢٨ - ١١

تونس — ص.ب: ٤٤/٢٢

جدة - الرياض - الدمام

عمان — ص.ب: ٣٧٥

ابوظبي - ص.ب: ٤٦٦٧٥

الدوحة - ص.ب: ٣٢٢

المنامة - ص.ب: ١٥٦

دبي — ص.ب: ٢٠٠٧

روي — ص.ب: ٦٣٠٥

مؤسسة الأهرام

المؤسسة العربية السورية

لتوزيع المطبوعات

الشركة الشريفة للتوزيع

الشركة العربية للتوزيع

الشركة التونسية للتوزيع

الشركة السعودية للتوزيع

وكالة التوزيع الأردنية

دار المسيرة للطباعة والنشر

دار الثقافة للطباعة والصحافة

الشركة العربية للوكالات

والتوزيع

مكتبة دار الحكمة

المتحدة لخدمة وسائل الاعلام

مصر

سوريا

المغرب

لبنان

تونس

السعودية

الأردن

الامارات

قطر

البحرين

الامارات

عمان